The Islamic University of Gaza
Deanship of Research and Graduate Studies
Faculty of Arts
Master of Arabic language

الجـــامعـــة الإسلامـيّة بغـــــزة
عمادة البحث العلميّ والدراسات العليا
كـــليـــــــــــــــــة الآداب
ماجستير لغة عربيـــــــّـــــــــة

التناص في شعر تميم البرغوثي

Intertextuality in the Poetry of Tamim Al Barghouthi

إِعدَادُ البَاحِثة

أماني عبد المعطي محمد غيث

إِشرَافُ

الأستاذ الدُكتُور

كمال أحمد غنيم

قُدمَ هَذا البحثُ اِستِكمَالا لِمُتَطلباتِ الحُصولِ عَلى دَرَجَةِ الْمَاجِستِيرِ

فِي اللُغةِ العَرَبِيةِ بِكُليةِ الآدابِ فِي الْجَامِعَةِ الإِسلامِيةِ بِغَزة

سبتمبر/2018م– محرم/1440هـ

إقـــــرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

التناص في شعر تميم البرغوثي

Intertextuality in the Poetry of Tamim Al Barghouthi

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل الآخرين لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

I understand the nature of plagiarism، and I am aware of the University's policy on this.

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced، is the researcher's own work، and has not been submitted by others elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:	أماني عبد المعطي غيث	اسم الطالب:
Signature:		التوقيع:
Date:		التاريخ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسلامية غزة
The Islamic University of Gaza

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا
هاتف داخلي: 1150

الرقم: ج س غ/35/ Ref:
التاريخ: 2018/10/21م Date:

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة عمادة البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحثة/ **أماني عبد المعطي محمد غيث** لنيل درجة الماجستير في كلية **الآداب**/ برنامج **اللغة العربية** وموضوعها:

التناص في شعر تميم البرغوثي

Intertextuality at the poetry of Tamim Al-Barghouti

وبعد المناقشة التي تمت اليوم **الاحد 10 صفر 1440**هـ الموافق **2018/10/21**م الساعة **الحادية عشرة صباحاً**، في قاعة **مؤتمرات الجنوب** اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

أ. د. كمال أحمد غنيم	**مشرفاً ورئيساً**	.....
أ. د. وليد محمود أبو ندى	**مناقشاً داخلياً**	.....
أ.د. موسى إبراهيم أبو دقة	**مناقشاً خارجياً**	.....

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحثة درجة الماجستير في **كلية الآداب/برنامج اللغة العربية**.

واللجنة إذ تمنحها هذه الدرجة فإنها توصيها بتقوى الله تعالى ولزوم طاعته وأن تسخر علمها في خدمة دينها ووطنها.

والله ولي التوفيق،،،

عميد البحث العلمي والدراسات العليا

أ.د. مازن إسماعيل هنية

التاريخ: 5/ 11/ 2018

الرقم العام للنسخة	3106893	اللغة	عربي

الموضوع/ استلام النسخة الإلكترونية لرسالة علمية

قامت إدارة المكتبات بالجامعة الإسلامية باستلام **النسخة الإلكترونية** من رسالة

الطالب/ أماني عبد المعطي محمد غنيم

رقم جامعي: 220153988 قسم: اللغة العربية كلية: الآداب

وتم الاطلاع عليها، ومطابقتها بالنسخة الورقية للرسالة نفسها، ضمن المحددات المبينة أدناه:

- تم إجراء جميع التعديلات التي طلبتها لجنة المناقشة.
- تم توقيع المشرف/المشرفين على النسخة الورقية لاعتمادها كنسخة معدلة ونهائية.
- تم وضع ختم "عمادة الدراسات العليا" على النسخة الورقية لاعتماد توقيع المشرف/المشرفين.
- وجود جميع فصول الرسالة مجمَّعة في ملف (WORD) وآخر (PDF).
- وجود فهرس الرسالة، والملخصين باللغتين العربية والإنجليزية بملفات منفصلة (PDF +WORD)
- تطابق النص في كل صفحة ورقية مع النص في كل صفحة تقابلها في الصفحات الإلكترونية.
- تطابق التنسيق في جميع الصفحات (نوع وحجم الخط) بين النسخة الورقية والإلكترونية.

ملاحظة: ستقوم إدارة المكتبات بنشر هذه الرسالة كاملة بصيغة (PDF) على موقع المكتبة الإلكتروني.

والله ولي التوفيق،

توقيع الطالب

.....

إدارة المكتبة المركزية

.....

349

ملخص الرسالة

تهدف هذه الدراسة إلى دراسة التناص في شعر تميم البرغوثي، من وجهة نظر حديثة، حيث اهتم روادها بدراسة العلاقة بين النصوص الأدبية، من حيث أثر النصوص السابقة في اللاحقة، كما لا يفوتنا أن نؤكد على الحاجة لاستكمال المشهد الفلسطيني، لأن الدراسات الأدبية السابقة تركز –في الغالب– على شعراء بعينهم، وتترك مساحات واسعة من الإبداع دون دراسة وتجلية، والهدف الأخير هو دراسة نماذج شعرية جديدة يدخل فيها التناص الأدبي من خلال ديواني الشاعر "في القدس"، و"مقام عراق".

وقد قسمت الباحثة دراستها إلى ثلاثة فصول: الفصل الأول: بعنوان مصادر التجربة الشعرية عند الشاعر، وقد قسّم إلى ستة مباحث، حيث كان المبحث الأول بعنوان: مفهوم التجربة الشعرية والأدب عند الشاعر، والمبحث الثاني: بعنوان مصادر التجربة الشعرية عند الشاعر، والمبحث الثالث: التراث، والرابع: الواقع، والخامس: الخيال، والسادس: بوتقة الذات.

وفي الفصل الثاني تناولت الباحثة أنواع التناص، وقد قسّم الباب إلى ثلاثة مباحث، هي: التناص الخارجي، والتناص الداخلي، والتناص الذاتي، وكان الفصل الأخير بعنوان معمارية التناص، وقد قسّم إلى أربعة مباحث، هي: الدراما والقصة والسيرة والرسالة.

وقد اتبعت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي، وقد خلصت في ختام رحلتها البحثية إلى مجموعةٍ من النتائج، كان أبرزها:

التجربة الشعرية ضرورية لحياة الأديب، وتزيد إبداعه الأدبي والفني جمالاً، كما أجاد الشاعر في توظيف التناص الذي برهن على مقدرته الشعرية وموروثه المعرفي، فيما أسهمت معمارية التناص لديه في إثراء النص الأدبي وحيويته.

ومن ثم فقد اشتملت الدراسة على **توصيات البحث والتي تمثلت في:**

- ضرورة تناول الشعراء المحدثين في مجال الدراسات الأدبية بالدراسة والتحليل والنقد.
- دراسة أعمال البرغوثي ليس فقط في المجال اللغوي والفني والجمالي وإنما في المجال الرمزي.

Abstract

This study aims at exploring intertextuality in the poetry of TamimBarghouthi، from a modernistic point of view, where the pioneers of modernism were interested in studying the relationship between literary texts، in terms of the impact of previous texts in the subsequent ones.Here the studycan not fail to emphasize the need to complete the Palestinian scene becausemost pervious studies focus on specific poets، and leave large areas of creativity without a study.The last objective of this study is to investigating new poetic models that includes literary intertextualityin the poet's two collectionFi Alquds, and Maqam Iraq.

The researcher divided this study into three chapters: Chapter one، which is entitledthe sources of poetic experience of the poet، has been divided into sections where the first sectionis entitled the concept of poetic experience and literature to the poet.The second sectionis entitled the sources of poetic experience of the poet، and the third section is entitled‘heritage’, while the fourth is entitled‘reality’. The fifth section is entitled ‘imagination، and the sixth on is entitled‘self melting pot.’

The second chapter explains the types of intertextuality which is divided into three sections: external intertextuality، internal intertextuality، and personal intertextualThe last chapter isentitled "The structure of intertextuality", which is divided into four sections, namely drama, story, biography and letters.

The researcher used the analytical descriptive approach، and concluded at the end of her research a set of findings، the most important of which:

Poetic experience is necessary for the life of the writer and increases his literary creativity and artistic beauty.The poet succeeded in employingintertextuality and demonstrated his ability and poetic knowledge.The structure of his intertextuality contributed to enrich the literary text and vitality.

The study made a number of recommendations the most important of which are:

There is a need to address and study modern poets in literary studies، analysis and criticism.

The study of Barghouthi's works is not only in the linguistic, artistic and aesthetic fields but can be done on symbolism.

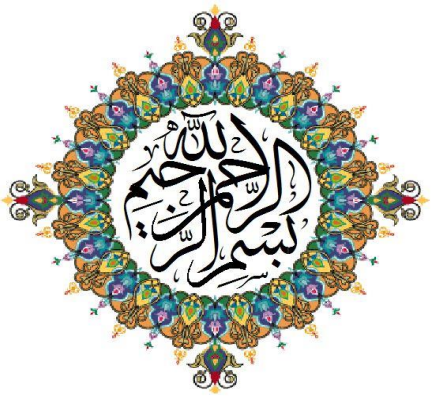

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾

[التوبة:105]

إهداء

إلى والديّ الكريمين وإنني أرجو الله أن يرحمهما كما ربياني صغيرا، وقد أعطياني من حبهما الكثير إلى أن صرت في هذا المقام.

إلى زوجي وقد كان خير المعين والسند.

إلى أبنائي أعزائي أولادي وكل حياتي (الهيثم و براءة و جنة و رهف و يمام و عبد الرحمن).

إلى أخواتي الكريمات "إيمان و أزهار" و أخي "أيمن".

إلى كل عائلتي الكريمة آل غيث، وعائلة زوجي الأكارم آل أبو شاويش.

إلى مشرفي الفاضل الأستاذ الدكتور كمال أحمد غنيم.

إلى كل من أعانني على إنجاز هذه الدراسة.

إلى كل هؤلاء أهدي هذا الجهد.

.

شكر وتقدير

[رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ] [النمل: 19]

فما كان لعملي هذا أن يخرج إلى النور لولا رحمة ربي، ورفقه بي، فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وله الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، نستغفره ونتوب إليه، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله معلم البشرية الأول صلى الله عليه وآله وسلم.

وبعد شكري لله الواهب أتقدم بالشكر والتقدير لجامعتنا الغراء الجامعة الإسلامية التي أعطت وما زالت تعطي فكانت صرحاً شامخاً للعلم، فالشكر للجامعة ولكلية الآداب عامة وقسم اللغة العربية خاصة، من محاضرين وأساتذة أفاضل وكذلك لمكتبة الجامعة والقائمين عليها.

كما أتقدم بالشكر والامتنان لأستاذي الكريم ومشرف رسالتي الأستاذ الدكتور/**كمال أحمد غنيم** الذي تشرفت بإشرافه على رسالتي حتى خرجت على هذه الصورة، فله مني كل التقدير ووافر الاحترام والتبجيل.

والشكر موصول كذلك إلى الأستاذين الكريمين اللذين تكرما بمناقشة رسالتي وإتحافها بالتعديل والتنقيح، فكانت في أبهى صورة وأبهج حلة:

الأستاذ الدكتور/ وليد محمود أبو ندى

والأستاذ الدكتور/ موسى إبراهيم أبو دقة

كما أتقدم بخالص شكري وتقديري إلى والديّ الكريمين/ المربي الفاضل أ. عبد المعطي غيث، والمربية الفاضلة أ. نجية الخطيب، اللذين رافقاني بالدعاء طيلة رحلتي البحثية بما فيها من صعوباتٍ وعقبات، كما أتقدم بالشكر الجزيل لزوجي الكريم/ أ. **محمد أبو شاويش** الذي لم يبخل عليَّ بشيء، محاولًا تذليلَ كل عقبةٍ أمامي، فكان خير المُعين والمساعد، ولا أنسى أخواتي الكريمات وأخي الفاضل.

فهرس المحتويات

إقـــرار ..... أ

نتيجة الحكم ..... ب

ملخص الرسالة ..... ت

Abstract ..... ث

إهداء ..... ح

شكر وتقدير ..... خ

فهرس المحتويات ..... د

الإطار العام للدراسة 1

تمهيد: 1

أهداف الدراسة: 1

أسباب الدراسة: 1

الدراسات السابقة: 2

منهج الدراسة: 2

مصادر الدراسة: 2

الصعوبات التي واجهت الباحثة: 2

هيكل الدراسة: 3

المقدمة 5

مولده ونشأته: 6

حياته العلمية 7

دواوينه المطبوعة: 7

التمهيد 9

التناص تعريفه وأنواعه 9

مفهوم التناص: 9

أنواع التناص 10

الفصل الأول.....13
المبحث الأول: مفهوم التجربة الشعرية والأدب عند تميم البرغوثي.....13
المبحث الثاني: مصادر التجربة الشعرية عند تميم البرغوثي. 18
المبحث الثالث: التراث.....20
المبحث الرابع: الواقع 27
المبحث الخامس: الخيال.....38
المبحث السادس: بوتقة الذات.....46
الفصل الثاني: أنواع التناص 60
المبحث الأول: التناص الخارجي.....60
القرآن الكريم.....60
التناص مع السيرة النبوية: 70
التناص التاريخي: 72
التناص الأدبي: 76
المبحث الثاني: التناص الداخلي.....80
الشعر:.....80
النثر 83
المبحث الثالث: التناص الذاتي.....95
الشعر الفصيح 95
الشعر العامي. 99
الدراسات 103
الفصل الثالث: معمارية التناص 109
المبحث الأول: الدراما 110
المبحث الثاني: القصة.....121
المبحث الثالث: السيرة.....135
المبحث الرابع: الرسالة.....147

الخاتمة 153
النتائج 155
التوصيات: 156
المصادر والمراجع 158

الإطار العام للدراسة

الإطار العام للدراسة

تمهيد:

تهدف هذه الدراسة إلى دراسة شعر تميم البرغوثي من وجهة نظر حديثة تمثله نظرية التناص، حيث اهتم روادها بدراسة العلاقة بين النصوص الأدبية، من حيث أثر النصوص السابقة في اللاحقة، وقد ظهر التناص عند البرغوثي في قصائده، إذ اقتبس من القرآن الكريم، والتاريخ الإسلامي، بالإضافة إلى شعره الذي ضمنه العديد من الأشعار لكبار الشعراء السابقين.

والحقيقة إن الكثير من رسائل الماجستير والدكتوراه قد أُنجزت في موضوع التناص الأدبي، فالدراسة ليست جديدة في هذا المجال، ولكني أرجو أن أقدم جديداً نافعاً من خلال الدراسة التطبيقية لشاعر لم يحظ بتناول شعره ضمن ذلك المجال.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق التالي:

1. سبر غور مبدعي الشعر العربي وبيان تفاعلاتهم النصية مع النصوص السابقة، والبحث يجمع بين الأمرين.
2. الحاجة لاستكمال المشهد الفلسطيني، لأن الدراسات الأدبية السابقة تركز في الغالب على شعراء بعينهم، وتترك مساحات واسعة من الإبداع دون دراسة وتجلية.
3. دراسة نماذج شعرية جديدة يدخل فيها التناص الأدبي من خلال ديواني الشاعر في القدس، ومقام عراق.

أسباب الدراسة:

1. إبراز دور الشعر الفلسطيني في الكشف عن آمال وطموحات الشعب الفلسطيني، وقضاياه الوجودية والمصيرية.
2. ما جاء في ديواني الشاعر من جانب إنساني تحدث فيه الشاعر عن آلام الإنسان العربي المقهور.
3. قلة الدراسات التي تناولت هذا الشاعر بالدراسة والتحليل.

الدراسات السابقة:

- الصورة الشعرية عند تميم البرغوثي: من إعداد الباحث (أسامة محمد القطاوي)، 2017 وهي رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، وتتناول هذه الدراسة الصورة الشعرية وأثرها في بلاغة الشاعر وكيف يصل من خلالها إلى تحقيق أغراضه، والتعبير عن آلامه وآمال شعبه، وتطلعات أبنائه، وبث الحماسة والأمل عند جمهور المتلقين.
- جماليات المكان في شعر تميم البرغوثي: من إعداد الباحثة (جيهان عوض أبو العمرين)، 2014 وهي رسالة ماجستير، جامعة قطر، وتناولت الدراسة البنى المكانية لما لها من أهمية في تشكيل النص الأدبي، حيث اتضح ذلك في شعر تميم البرغوثي عبر نصوصه التي كتبها لنا في دواوينه الفصيحة.
- جماليات التناص في شعر تميم البرغوثي: ديوان في القدس أنموذجا: من إعداد الباحثين (عبد اللطيف خليل وذياب خالد)، 2017، وهي رسالة ماجستير، جامعة العربي التبسي– تبسة_ الجزائر، وتتناول هذه الدراسة ماهية التناص وجماليات التناص الديني والتاريخي في ديوان الشاعر (في القدس).

منهج الدراسة:

استخدمت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي في هذه الدراسة التي تتناول الدواوين باللغة الفصحى عند الشاعر تميم البرغوثي.

مصادر الدراسة:

- ديوان (في القدس).
- ديوان(مقام عراق).
- قصائد للشاعر نشرت على الشبكة العنكبوتية.

الصعوبات التي واجهت الباحثة:

لا يوجد عمل أدبي يخرج إلى الوجود دون صعوبات تواجه من قام بإخراجه، ومن هذه الصعوبات:

- الدراسات التي تناولت الشاعر بالنقد والتحليل –وخاصة قصائده–كانت قليلة إلى حدٍ ما.

- للتناص أنواع متعددة ومتشعبة كما تتعدد طرائق تطبيقه ما بين القديم والحديث.
- مصطلح التناص له العديد من التعريفات ما بين علماء الغرب والعرب، فهو مصطلح متشابك، متعدد التوصيف لذلك سمي بمسميات متعددة ومختلفة تحناج إلى الدقة والتوضيح.

هيكل الدراسة:

قسمت هذه الدراسة إلى تمهيد وثلاثة فصول أما التمهيد فقد تناولت فيه: التناص وتعريفه وبداياته منذ (جوليا كريستفا) ومروراً بعلماء الغرب ثم وصولاً إلى العلماء العرب.

أما الفصل الأول فكان بعنوان مصادر التجربة الشعرية وهي: التراث، والواقع، والخيال، وبوتقة الذات.

أما الفصل الثاني فقد تناول: أنواع التناص، من حيث تقسيمه إلى تناص خارجي وتناص داخلي، وتناص ذاتي،على اعتبار أن التناص الخارجي يتناول القرآن الكريم، والتاريخ، والأدب. أما الداخلي فيتناول الشعر والنثر. أما عن الذاتي فيتناول الشعر الفصيح والشعر العامي والدراسات.

وآخر الفصول فإنه يدرس معمارية التناص من حيث الدراما والقصة والسيرة.

ثم تأتي النتائج والتوصيات بعدها المصادر والمراجع.

المقدمة

المقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، الحمد لله الذي جعل العلم لنا نورًا نهتدي به والصلاة والسلام على أشرف من علم الخلق جميعاً، أفصح الناس لساناً وأعظمهم بياناً. أما بعد:

فقد تعددت فنون الأدب العربي وأنواعه، ولكن الشعر هو الفارس في الميدان الأدبي امتطى الشعراء صهوته منذ القديم، فصالوا وجالوا وكان لهم السبق في الميادين المختلفة، فكانوا فرسان بيان وأمراء كلمة، وسباقين في مجال الكلمة والصورة.

وقد اختارت الباحثة من بين هؤلاء الأمراء والفرسان الشاعر تميم مريد البرغوثي، حيث تلتحم الكلمة والصورة، فترسم لنا لوحة فنية فائقة الجمال، يصور فيها الآمال والآلام، فيكتب للقدس، ويصور بعدسته ما لم يستطع قاطنوها تصويره، حيث أثر في عقول سامعيه وأحاسيسهم عندما تجول في حَواري القدس وأزقتها.

مزج السياسة بالشعر، فالشعر من وجهة نظره عمل سياسي مقاوم بامتياز، فالإنسان يستطيع أن يقاوم الظلم بالكلام، فهو أفضل طريقة لقول شئ ما، لذلك فقد كتب لفلسطين والعراق، يقرأ في القديم للأصفهاني وابن عبد ربه، وفي الحديث لمحمود درويش وإميل حبيبي وغيرهم الكثير، وقد وصفه الُنَّقاد بأنه شاعر يعيش في الماضي، حيث تحمل ألفاظه الحنين إلى الماضي، ولكنه يرد على ذلك بأن الصراع مستمر بين الاتجاهين التراثي والحداثي، والإنسان لن يكون متقدماً إذا تنكر لماضيه أو حبس نفسه فيه.

قدم الشاعر الشعر العمودي كما قدم الشعر الحر، مزج بين الفصحى والعامية، وتعد قصيدته (في القدس) من أشهر قصائده، وهي من شعر التفعيلة.

يعد تميم من الشعراء الذين نوعوا في قصائدهم ما بين العامية المصرية والفلسطينية بالإضافة إلى الفصحى، وهو من الشعراء الذين ارتبط اسمهم بالقدس والوطن، حيث كان المصور الدقيق الذي استطاع أن يتخذ من السرد والحكاية أسلوباً في تمرير أفكاره إلى القارئ، حيث امتاز شعره بسهولة اللفظ وجزالته مع جمال الإلقاء.

وقد حاولت في هذه الدراسة أن أقف على موضوع التناص في شعر تميم البرغوثي، وأن أفيه حقه من الدراسة والتحليل، والربط والتوضيح، والله أرجو التوفيق.

مولده ونشأته:

الشاعر تميم البرغوثي هو أحد الشعراء الفلسطينيين، "ولِدَ في مدينة القاهرة في الثالث عشر من حزيران لعام 1977م، أبوه هو الشاعر مريد البرغوثي، أما أمّه فهي الكاتبة المصرية رضوى عاشور، عاش والده في القاهرة ،وذلك في فترة حكم الرئيس أنور السادات"[1]

"في عام 1998، تمكن البرغوثي من العودة إلى فلسطين للمرة الأولى، وأقام أول أمسية شعرية له في فلسطين في ساحة قريبة من قريته دير غسّانة، قضاء رام الله في الضفة الغربية، وفي رام الله كتب أول مجموعة شعرية أسماها "ميجنا" باللهجة الفلسطينية العامية، وصدرت عن بيت الشعر الفلسطيني عام 1999، في العام التالي صدرت مجموعته الشعرية الثانية "المنظر" باللهجة المصرية العامية عن دار الشروق في القاهرة، وكان أول ظهور جماهيري له في مصر في معرض القاهرة الدولي للكتاب في ذلك العام".[2]

اشتهر الشاعر تميم البرغوثي بأعماله التي تتناول قضايا الأمة، و"كان أول ظهور له على شاشة قناة أبو ظبي في برنامج أمير الشعراء، وألقى خلاله قصيدة القدس حيث حازت على إعجاب الكثيرين. والقصيدة هو اسم أول عمل أدبي كتبه تميم البرغوثي عندما كان في السادسة من عمره، بينما كتب أول نص شعري له عندما كان في الثامنة من عمره".[3]

وفي مقابلة مع الشاعر تميم البرغوثي أجراها معه الصحفي زاهي وهبي في برنامج "بيت القصيد" التابع لقناة الميادين يقول: "في السنة التي ولدت فيها رحّل أنور السادات والدي من مصر، فكنت ألتقي به في الإجازات، وأسمعه يقول الشعر فيشدني شعره الفصيح. فكانت الفصحى في نظري لغة الأبطال[4]

لقد عايش الشاعر نكبات الأمة العربية والإسلامية، فنراه يقول في مقدمة ديوانه "مقام عراق" "بدأت في كتابة هذه القصيدة الطويلة ظهيرة التاسع من نيسان أبريل عام ألفين وثلاثة، عندما دخلت القوات الأمريكية بغداد، لم يكن هؤلاء المراهقون الشقر يغزون أرضاً ونخلاً وبشراً فحسب، بل غزوا المبتدأ والخبر، وأربعة عشر قرناً من الفلسفة والنحو والشعر والغناء ونقوش المساجد. فكل ناطق بالعربية عراقي بدرجة من الدرجات، كل من رفع فاعلاً ونصب مفعولاً

(1) قمصية، الشاعر تميم البرغوثي (موقع الكتروني).
(2) الفلسطيني، قصيدة في القدس (موقع الكتروني)
(3) المرسال، السيرة الذاتية للشاعر تميم البرغوثي (موقع الكتروني).
(4) البرغوثي– زاهي وهبي، بيت القصيد (قناة الميادين).

فللبصرة والكوفة وبغداد فيه نصيب. إن عالماً كاملاً وثقافة بأسرها احتلت يوم احتل العراق، وفي أيام كهذه يصبح الحزن نفسه ترفاً ليس يملكه الحزين، والرثاء لا يتجاوز لعثمة الراثين".[1]

حياته العلمية

- حاصل على الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية عام 2004م، كما عمل أستاذاً مساعداً للعلوم السياسية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ومحاضراً في جامعة برلين الحرة، كما عمل بقسم الشؤون السياسية بالأمانة العامة للأمم المتحدة في نيويورك و عمل في بعثة الأمم المتحدة بالسودان، بالإضافة إلى كونه باحثاً في العلوم السياسية بمعهد برلين للدراسات المتقدمة وأستاذاً مساعداً زائراً للعلوم السياسية في جامعة جورج تاون بواشنطن واستشارياً بلجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا.[2]

دواوينه المطبوعة:

- ميجنا، عن بيت الشعر الفلسطيني برام الله عام 1999م. وهو أول مجموعة شعرية كتبها تميم البرغوثي باللهجة العامية الفلسطينية.
- المنظر، عن دار الشروق بالقاهرة عام 2002م.وهو ديوان باللهجة العامية المصرية.
- قالوا لي بتحب مصر قلت مش عارف، عن دار الشروق بالقاهرة عام 2005م.وهو أيضا ديوان باللهجة العامية المصرية.
- مقام عراق، عن دار أطلس للنشر بالقاهرة عام 2005م.
- في القدس عن دار الشروق بالقاهرة عام 2009م، وهو بالعربية الفصحى ويعد من أشهر دواوينه الشعرية.

(1) البرغوثي، ديوان مقام عراق،(مقدمة الديوان).

(2) القطاوي، الصورة الشعرية عند تميم البرغوثي. (ص 3).

التمهيد

التناص تعريفه وأنواعه

التمهيد

التناص تعريفه وأنواعه

التناص مصطلح نقدي حديث حظي باهتمام العديد من الباحثين والدارسين، وكتبت حوله دراسات متعددة، حيث تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن التناص في شعر الشاعر تميم البرغوثي، وتمنح شعره أبعاداً جمالية مختلفة، وأهمها التناص الديني، والأدبي، والتاريخي.

مفهوم التناص:

تناول العديد من النقاد هذا المصطلح بالدراسة والتعريف منهم الغرب ومنهم العرب أمثال "باختين" و "كريستيفا" و "ريفاتير" ومن النقاد العرب المعاصرين "محمد بنيس" و "عبد الله الغذامي" و" محمد مفتاح" وغيرهم.

وقد توافق النقاد على أن أول من وضع تعريفاً للتناص بمفهومه الحديث الكاتبة البلغارية "جوليا كريستفا"، والتي قالت عنه:" إن علاقة النص باللغة التي تتموضع فيها هي علاقة إعادة توزيع (هدم – بناء)، فالتناص هو ترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي نص معين تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى، وبمعنى آخر إن كل نص هو عبارة عن لوحة فسيفسائية من الاقتباسات، وكل نص هو اقتصاص وتحويل لنصوص أخرى"[1]

وهذا ما أشار إليه "رولان بارت" إلى أن "النص فضاء متعدد الأبعاد، تتمازج فيه كتابات متعددة، أو هو نسيج من الاقتباسات تنحدر من منابع ثقافية متعددة"[2]

فالتناص هو أن يتأثر نصٌ بنصٍ سبقه، ويرى أحمد الزعبي أن" التناص، في أبسط صوره، يعني أن يتضمن نص أدبي ما نصوصاً أو أفكارًا أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس أو التضمين أو التلميح أو الإشارة أو الأفكار مع النص الأصلي، وتندمج فيه؛ ليتشكل نص جديد واحد متكامل."[3]

وقد صور الجاحظ ذلك أصدق تصوير حيث قال في باب أخذ الشعراء بعضهم معاني بعض:

---

(1) كريستيفا، علم النص، ت. فريد الزاهي (ص21).

(2) بارت، درس السيميولوجيا، ت. ع. بنعبد العالي (ص 85).

(3) الزعبي، التناص نظريا وتطبيقيات، (ص11).

"لا يُعلم في الأرض شاعر تَقدَّم في تشبيه مصيب تامٍّ، وفي معنى غريب عجيب، أو معنى شريف كريم، أو في بديع مُخترَع، إلا وكلٌّ من جاء من الشعراء من بعده أو معه، إنْ هو لم يعدُ على لفظه، فيَسرِق بعضه، أو يدَّعيه بأسْرِه، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى، ويجعل نفسه شريكًا فيه، كالمعنى الذي تتنازَعه الشعراء، فتختلِف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم، ولا يكون أحدٌ منهم أحقَّ بذلك المعنى من صاحبه، أو لعلَّه أن يجحد أنه سمِع بذلك المعنى قط، وقال: إنه خطر على بالي من غير سماعٍ كما خطر على بالِ الأول"[1]

بينما يرى محمد بنيس أن المصطلح الأنسب لهذه الظاهرة هو "التداخل النصي"[2]

"إن التداخل النصي ينسحب على كل شعر وعلى كل نص، أكان قديماً أم حديثاً...لقد أدرك الشاعر الجاهلي سلطة النصوص الأخرى على نصه، وهو ما واجهه القرآن كما واجهته مختلف الخطابات في الثقافة العربية القديمة، وتفصيل دراسة العلاقة بين النصوص في الشعرية العربية القديمة، دليل على إدراك المسارات اللانهائية التي يسلكها النص في علاقته بالنصوص الأخرى"[3]

فاللغة تعتمد في الأساس على الانتقال من شخص إلى آخر فنكرر بعضنا بعضا في لغتنا وهو ما عبر عنه عنترة بن شداد حين قال:

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم[4]

بمعنى أن الشعراء يستعيرون كلام غيرهم، أو يعيدون كلامهم ويكررونه.

فالنص الأدبي يعتمد على المخزون الثقافي للأشخاص بمعنى "إعادة إنتاج هذه النصوص السابقة له، التي خبرها الأديب على نحو من الأنحاء خلال مراحل تكوينه الثقافي."[5]

أنواع التناص

التناص نوعان:

---

(1) الجاحظ، الحيوان، (ج311/3).

(2) بنيس، الشعر العربي الحديث: بنياته و إبدالاتها (ص183).

(3) المرجع السابق، (ص181).

(4) ديوان عنترة، (ص80).

(5) قاسم،التناص القرآني والإنجيلي في شعر أمل دنقل(ص241).

- **التناص المباشر:** "ويسمى بتناص التجلي، وهو حوار يتجلى في توالد النص وتناسله وتناقش فيه الكلمات والمحاور والجمل فهو إعادة إنتاج سابق في حدود من الحرية.
ويدخل تحته ما عُرِفَ في النقد القديم بالسرقة والاقتباس والتضمين والاستدعاء... ويعمد الأديب فيه إلى استحضار نصوص بلغتِها التي وردت فيها، كالآيات القرآنية والحديث النبوي والشعر."[1]
- **التناص غير المباشر:** "وينضوي تحته التلميح والإيماء والإشارة والمجاز، وهو عملية شعورية يقوم بها الأديب باستنتاجات مع النص المتداخل معه وإبراز أفكار معينة يوحي بها ويرمز إليها في نصه الجديد، وتعتمد هذه الأنماط على فهم المتلقي وتحليله للنص ... ويحتاج هذا التناص إلى ثقافة واسعة عند الباحث وإلى معرفةٍ واطلاعٍ واسعين". [2]

وهناك من قسم التناص إلى أنواع أخرى مثل:

- **التناص الديني:** ويتم من خلال الاقتباس من القرآن الكريم، أو من الكتب السماوية الأخرى كالتوراة والإنجيل أو من الحديث الشريف أو السيرة النبوية.
- **التناص التاريخي:** وهو تداخل النص الأصلي الذي بين أعيننا مع نصوص تاريخية مختارة.
- **التناص التراثي:** وفيه يعود الأديب للتراث ومعطيات التاريخ التي تتيح تمازجاً وتخلق تداخلاً بين الحركة الزمانية بحيث ينسكب الماضي بكل إشاراته وتوافراته وأحداثه على الحاضر.
- **التناص الأسطوري:** حيث يعود استخدام الشاعر العربي للأساطير إلى العصر الجاهلي.
- **التناص الأدبي:** وهو "تداخل النص مع نصوص أدبية سواء كانت للكاتب نفسه أو لأدباء آخرين مزامنين له أو سابقين له ينتمون إلى ثقافته أو لا ينتمون لهذه الثقافة".[3]

---

(1) المبحوح، التناص في ديوان لأجلك غزة، (ص20).

(2) المرجع السابق، ص40.

(3) انظر: عائشة، جماليات التناص في شعر أمل دنقل: ديوان البكاء بين يدي زرقاء اليمامة أنموذجا (ص44-36).

الفصل الأول

التجربة الشعرية عند تميم البرغوثي

الفصل الأول

المبحث الأول: مفهوم التجربة الشعرية والأدب عند تميم البرغوثي.

يمثل الأدب حديقة غنَّاء تُبث فيها المشاعر والأحاسيس التي يمتلكها الإنسان، وينمو فيها الإبداع عند الشاعر، ويستلهم من وحي خياله الحدث الأدبي، وتمثل التجربة الشعرية مرتكزاً رئيساً في عملية الولادة الشعرية.

وينطلق مفهوم التجربة من (تَجْرِبة) المفردة، "وهي مصدر جرَّبَ، جمع تَجارِبُ لغير المصدر، وجَرَّبَه تجريباً وتجرِبة اختبره مرّة بعد أُخْرَى وَيُقَال: رجلٌ مُجرَّب: جُرِّبَ فِي الْأُمُور وَعُرِف مَا عِنْده. وَرجل مُجرّب عَرِفَ الْأُمُور وجَرَّبَها"[1]، فيدور فحوى المعنى اللغوي حول المعرفة بالأصول ومجريات الأمور، مما يدلل على أن التجربة الشعرية تقوم على الاطلاع على أصول الإبداع والتعرف على حالات إنجازه في قوالب فنية قائمة بذاتها ولها خصائصها التي تمتاز بها عن غيرها من الأجناس الأدبية المتنوعة.

وعرّف أهل الاصطلاح التجربة الشعرية تعريفات مختلفة، منها:

"مجموع المشاعر والأفكار التي تتراكم في خاطر الفنان أو الشّاعر أو الأديب، تجول في نفسه وتُؤثّر في تعبيره"[2]. أو "الحالة التي يمرُّ بها الشاعر قبل نظم القصيدة وفي أثناء النظم"[3]. أو هي "التعبير بالشعر عن التجربة الشعورية، وهي رد فعل نفسي لحدث مؤثر، وبعبارة أدق استجابة وجدانية لمثير ما مادياً كان أو معنوياً"[4]. وأخيرا "المعرفة أو المهارة أو الخبرة التي يستخلصها الإنسان من مشاركته في أحداث الحياة أو ملاحظته لها ملاحظة مباشرة"[5].

يتآلف المعنى اللغوي للتجربة مع معناها الاصطلاحي في التعرف إلى حالات الإبداع ورعاية ظروف الإنتاج الأدبي من أجل ترجمة المشاعر والأحاسيس التي تدور في عقل الإنسان من أفكار، يحدد أساليب عرضها لجمهور المتلقين، وهي تختلف من شاعرٍ إلى آخر، فتميم

---

(1) مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، (ج114/1).
(2) عمر وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، (ج357/1).
(3) مطلوب، مصطلحات النقد العربي القديم، (ص137).
(4) قلقيلة، التجربة الشعرية عند ابن المقرب، (ص 67).
(5) وهبة والمهندس، معجم مصطلحات العربية في اللغة والأدب، (ص88).

البرغوثي له تجربته الأدبية التي تحوي في ثناياها كثيراً من التعبيرات الوجدانية التي بث فيها الكثير من المشاعر والأحاسيس والتي مثلت تجربته الشعرية والتي ارتبطت بحياة الإنسان الفلسطيني بشكل خاص والعربي بشكل عام.

ويلاحظ أن التمايز موجود في نظر أهل الإبداع فهذا "الشاعر الإنجليزي (تشوصر Chaucer) يميز بين مصدرين للأديب، هما: "التجربة الشعرية التي تتمثل في تفاعل الإنسان مع أحداث الحياة، والحقائق التي يستفيدها الإنسان من الكتب القديمة التي تعتبر كنزاً للذكريات البشرية والحكم التي استخلصها البشر خلال العصور المختلفة، فعلى الأديب في نظره أن يجمع في أدبه بين الاثنين"[1]، ويُلمس ذلك في شعر تميم وإبداعاته المتميزة التي تطرق فيها لحالات شعورية مختلفة، تمثل رؤية البرغوثي لطقوس الحياة ومجرياتها.

إن حالة الخلق الأدبي عند تميم البرغوثي قد استمدت من مصادر متنوعة، فقد لعبت الحالة الشعورية دوراً بارزاً عنده في عملية الكتابة الأدبية، فهو الشاعر الذي يحمل هم أبناء شعبه، ويعبر عن لسان قومه وعالمه الذي يحياه، فالساحة العربية ساحة رحبة حبلى بالأحداث والصراعات والتناقضات التي أسهمت في تنشيط فكر الشاعر وتدعيم صوره الأدبية مما انعكس إيجاباً على قصائد الشاعر وإبداعه الفني، وقد أشار ابن طباطبا العلوي إلى هذا المعنى عن نظم القصيدة وبنائها حيث يقول:" إذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرًا، وأعدَّ له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه والوزن الذي يسلس له القول عليه، فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبته، وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه، بل يعلق كل بيت يتفق له نظمه على تفاوت ما بينه وبين ما قبله، فإذا أكملت له المعاني وكثرت الأبيات وفّق بينها بأبيات تكون نظامًا لها، وسلكًا جامعًا لما تشتت منها، ثم يتأمَّل ما قد أدَّاه إليه طبعه، ونحتته فكرته، فيستقصي انتقاده، ويرم ما وَهِيَ منه، ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية، وإن اتفقت له قافية قد شغلها في معنى من المعاني، واتفق له معنى آخر مضادّ للمعنى الأول، وكانت تلك القافية أوقع في المعنى الثاني منها في المعنى الأول، نقلها إلى المعنى المختار الذي هو أحسن، وأبطل ذلك البيت، أو نقض بعضه وطلب لمعناه قافية

(1) وهبة والمهندس، معجم مصطلحات العربية في اللغة والأدب, (ص88).

تشاكله، ويكون كالنّساج الحاذق الذي يقوّف وشيه بأحسن التّقويف، ويسديه وينيره، ولا يهلهل شيئًا منه فيشينه"[1].

إن الروح الشاعرة التي يتمتع بها تميم البرغوثي جعلته مبدعاً، ناقداً، قادراً على تصوير رؤيته للحياة وموقفه منها، ولعل الأديب الفلسطيني يمر بتجربة أدبية خالدة، أثبتت نفسها في مواقف إبداعية مختلفة، فهذا الشاعر ولد في خضم المتغيرات التي أُلحقت بالقضية الفلسطينية، والتي انعكست على نفس الأدباء والشعراء، مما جعل الشعر مجالاً خصباً لطرح الرؤى والكشف عن طبيعة الأحداث ومجرياتها بثوب أدبي يحمل مشاعر الإنسان وأحاسيسه التي تختلف باختلاف المواقف التي يحياها، ويتمثل النّفس الشعري الحاد في مقدرة البرغوثي على صياغة قصائد تمتاز بتراوح لغتها بين الفصحى والعامية، مما يدلل على موقف الشاعر من قضية ما، وإيصال صوته لجمهور المخاطبين، وهذا ركن من أركان التجربة الشعرية، تعرض له النقاد كأبي هلال العسكري (ت400هـ)، الذي يقول: "وإذا أردت أن تعمل شعراً فأحضر المعاني التي تريد نظمها فكرك، وأخطرها على قلبك، واطلب لها وزناً يتأتّى فيه إيرادها وقافية يحتملها؛ فمن المعاني ما تتمكّن من نظمه في قافية ولا تتمكّن منه في أخرى، أو تكون في هذه أقرب طريقاً وأيسر كلفة منه في تلك؛ ولأن تعلو الكلام فتأخذه من فوق فيجيء سلساً سهلاً ذا طلاوة ورونق خير من أن يعلوك فيجيء كزّاً فجّاً ومتجعداً جلفاً، فإذا عملت القصيدة فهذّبها ونقّحها؛ بإلقاء ما غثّ من أبياتها، ورثّ ورذُل، والاقتصار على ما حسُن وفخُم، بإبدال حرفٍ منها بآخر أجود منه، حتى تستوي أجزاؤها و تتضارع هواديها وأعجازها"[2]، فالمعاني المكنوزة في نفس البرغوثي متنوعة ومتعددة، فهو يحمل مشاعر وأحاسيس وأفكار، ويمتلك أدوات لغوية يستظهر بها ما يجيش في نفسه إلى الجمهور، فالذات المبدعة لها طريقتها في خلق الإبداع وإبرازه بما يسهم في تبليغ الرسائل وإيصال المعاني والمفاهيم، فبناء القصيدة عند البرغوثي له خصوصيته فلكل شاعر تجربته التي تميزه عن غيره، ويرى النقاد المحدثون "أن القصيدة في جوهرها تجربة لغوية، فهي في أبسط تصورٍ لها لا تعدو أن تكون مجموعةً من الألفاظِ مرتبطة ومنسقة على نحو معين، ولكنها حين تكوَّنت على هذا النحو تكون قد اكتسبت شخصية خاصة لها حيويتها وفعاليتها، وهذا الارتباط الخاص للألفاظ هو الذي يشيد العلاقات الجديدة التي تتمثل في صور التعبير المختلفة التي تظهر دائمًا في الكتابة الشعرية، وأعني بصفة خاصة تكوين "الصورة"

(1) ابن طباطبا، عيار الشعر، (ص7-8).

(2) العسكري، الصناعتين، (ص139).

فالألفاظ في ارتباطها تكّون في القصيدة مجموعة من الصور التي تنقل الشعور أو الفكر، وحتى تبدو عملية إبداع الشعر أكثر وضوحًا لا بد من التعرف على عناصر الإبداع هذه"[1].

فالإبداع في مجال الشعر لم يكن بالأمر الهين عند الشعراء، فقيل: "عمل الشعر على الحاذق به أشد من نقل الصخر، ويقال: إن الشعر كالبحر أهون ما يكون على الجاهل أهول ما يكون على العالم"[2]، ولكل شاعرٍ أحواله التي ينظم فيها الشعر، فهذا الفرزدق لم يستطع نظم الشعر في بعض الأحيان، فيقول:" أنا عند الناس أشعر الناس وربما مرّت عليَّ ساعة ونزعُ ضرسٍ أهونُ عليّ من أن أقول بيتاً واحداً"[3]، يمثل الشعر المشاعر الإنسانية الراقية، وسُمي الشاعر شاعراً لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره، وينهل الشعر من معين الإنسان وخبراته وتجاربه، الإنسان الشاعر هو الذي يمثل عواطفه الجياشة ويرسم بنبوءته رؤيته للواقع والحياة، فالأديب ابن بيئته، وتترك بصمات واضحة عليه، فهذا الشاعر البدوي علي بن الجهم عندما جاء مدن الحضارة ببغداد ومدح أحد أمرائها، فقال:

أَنْــتَ كَالكَلْــبِ فِــي حِفَاظِــكَ لِلــوُدِّ وَكَــالتَّيْسِ فِــي قِــرَاعِ الخُطُــوْبِ[4]

فَهّمّ بعض أعوان الأمير بقتله، فقال الأمير: خل عنه، فذلك ما وصل إليه علمه ومشهوده، ولقد توسمت فيه الذكاء فليقم بيننا زمناً، وقد لا نعدم منه شاعرًا مجيدًا، فما أقام بضع سنين في سعة عيش وبسطة حال حتى قال الشاعر الرقيق:

عُيُـونُ المَهَـا بَـينَ الرُّصَـافَةِ وَالجِسـرِ جَلَـبنَ الهَـوَى مِـن حَيـثُ أَدرِي وَلا أدري[5]

فالتجربة الشعرية تتأثر بالبيئة التي يحيا فيها الشاعر، فيقول تميم البرغوثي:" بدأت كتابة هذه القصيدة ظهر اليوم التاسع من إبريل عام ألفين وثلاثة، كنت في عمَّان بعد اضطراري لمغادرة مصر في بداية الحرب، أشاهد سقوط بغداد في أيدي القوات الأمريكية ودخولهم ساحة الفردوس حين بدأ البيت الأول من القصيدة يتردد في ذهني:

---

(1) الشنطي، فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه، (ص238).
(2)ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر ونقده، (ج117/1).
(3) الجاحظ، البيان والتبيين (ج181/1).
(4) ابن الجهم، ديوانه (ص117).
(5) المرجع السابق (ص141).

كُفُّــوا لِســـانَ المراثـــي إنهـــا تَـــرَفُ عـن ســائرِ المــوتِ هــذا المــوتُ يختلــفُ [1]

تأثر تميم البرغوثي بالبيئة التي عاش فيها، والتي مُورست فيها أبشع حكايات الصراع بين الحياة والموت بين الحضور والعدم، فقصائده تعبر عن الألم الذي عاناه أهل العراق وكذلك أهل فلسطين ومن تعاطف معهم، في ظل غياب روح العدل والنزاهة والإنصاف عند كثيرين من القادة والولاة والحكام، الذين سيطروا على مقدرات الأمم والشعوب.

إن التجربة الشعرية تعبر عن الحالة التي يمر بها الأديب وتبين الظروف التي تحياها الكتابة الأدبية وكيفية إنتاجها وإبرازها لجمهور المخاطبين، فترتكز التجربة الشعرية على مقدرة الأديب على تمثيل مشاعره وأحاسيسه التي تعبر عنها معانيه، وانتقائه للكلمات والألفاظ الموحية التي تتناسب مع مضامين موضوعاته ومحاور أفكاره، علاوة على الصورة والأسلوب الذي ينظم من خلاله ألفاظه ومعانيه، حتى تنضج القصيدة بصورة فنية، تدلل على الأسلوب الشعري الراقي، والحس الأدبي المرهف الذي يمتلكه الأديب.

(1) البرغوثي، مقام عراق (ص9).

المبحث الثاني: مصادر التجربة الشعرية عند تميم البرغوثي.

ليست التجربة الشعرية وليدة اللحظة أو الصدفة العابرة، بل لها خطواتها وأساسياتها التي تنطلق منها وتتشكل من مجموعها، فلم يكن البرغوثي مرفه الحياة منعم العيش؛ فهو فلسطيني الهوية.

عاش زمناً طويلاً في مصر مع أمه الكاتبة رضوى عاشور، وسافر لبودابست، التحق بأبيه الشاعر مريد البرغوثي، وعاش في عمَّان إبان العدوان على أرض العراق في العام 2003م، كل مجريات هذه الأحداث أّثرت في إبداعه الشعري، وشارك العالم العربي كل همومه، بالرغم من وضعه الذي عايشه من تشرد وتمزق وضعف وهوان، إلا أن النفس المبدعة تسمو بروحها عن مصاعب الحياة وتقارع قسوة الظروف والمواقف والأحداث وأهوالها، فالمبدع لم تقف مشاعره وأحاسيسه عند حدثٍ هنا أو هناك، إنما الحس الإنساني الذي يتمتع به المبدع هو من يضيف شيئاً جديداً، يحمل رسالة أو رؤية معبرة عمّا يختلج النفس وما يدور في فكر المبدع.

ونستطيع أن نستشف تجربة البرغوثي من خلال ما أنجزه من قصائد تدلل على عمق التجربة لديه، لما لها من صدى وجمال على نفوس جمهور المتلقين، "فالمشاعر والأحاسيس هي أهم العناصر في التجربة الشعرية، ولا يحتاج الشاعر إلى حدث كبير يثيره، ولا إلى موضوع خطير يحركه، فقد يكون الحدث صغيراً، وقد يكون الموضوع غير بالغ الأهمية، ومع هذا يستطيع الشاعر بما له من موهبة وبما عنده من شاعرية، أن يتفاعل معه وأن يحيطه بهالة كبيرة من إحساساته ومشاعره، وليس هذا أمراً سهلاً ولا عملاً هيناً، فهذا يمثل لحظة مخاض الولادة الأدبية من نفس المبدع، والسبب في ذلك أن عالم الشعور عالم واسع وعميق، ومكوناته في الغالب تكون صاخبة وجيّاشة وذات ضغط قوي على صاحبها حتى يطلقها من قمقمها"[1]، مما يجسد الزفرات النفسية التي نجد آثارها العميقة في نفسية الشاعر تميم البرغوثي الذي ما لبث أن ينظم القصائد المحملة بالدلالات الموحية والمعبرة عن حالات الشعور والفكر في ذاته المبدعة، ورؤيته لمجمل الأحداث وتفاصيلها.

إن المعرفة بالواقع والخبرة السياسية عند الشاعر البرغوثي صنعت من قصائده مرتكزات ذات أبعاد تتعلق بقضية فلسطين ومجرياتها، ومن الملاحظ أن قصائده تحمل في مضامينها آراءً واتجاهات تعبر عن الوعي العقلي الموشح بزفرات النفس الشاعرة، مما يذكي التجربة الشعرية في ضوء خبرته بعوالم الشعر.

---

(1) قلقيلة، التجربة الشعرية عند ابن المقرب (ص68).

ولا تستغني التجربة الشعرية عن قدر من الفكر يضبطها أو يساعد على جعلها مفهومة منطقية، وإذا كان هذا القدر من الفكر لازماً للتجربة الشعرية، فإنه أقل منها أهمية، وعلى الشاعر أن يحاذر من أن يجعل لفكره الغلبة على تجربته الشعرية، "فالقصيدة عندئذ تفقد الأساس الذي تقوم عليه أصلاً وهو المشاعر الوجدانية؛ ليفهم أنه بإزاء عمل نفسي مجاله الشعر، وليس بإزاء عمل عقلي مجاله النثر، وإذا خرج الشعر عن مجال الشعور لم يعد شعراً وإن كان موزوناً ومقفىً، وتظل التجربة الشعرية لها تأثر بالعقل ولها دور فيه، لكنه دور محدود وعمل مشروط بألا يخرجها من عالمها الوجداني إلى عالم التجريد والصور العقلية[1].

وقد أبدع البرغوثي في تجربته الشعرية عند بنائه أفكار قصائده من مصادر مختلفة تمثل جوهر الروح الشاعرة، في مزجه بين سمو الشعور وآلام الواقع وأحداثه المتوالية.

إن لحظة نتاج القصيدة وتنظيم الحدث الأدبي فيها، تحتاج لحالة شعورية يمتلك فيها المبدع نفسه لكي يترجم مشاعره وأحاسيسه؛ فيقول البرغوثي:

كُفُّــوا لِســـانَ المراثـــي إنهـــا تَـــرَفُ عـن ســائرِ المـوتِ هـذا المـوتُ يختلـفُ

"كان الشطر الأول رداً على رغبة عارمة في البكاء، فلم أبك، ولم أفهم لماذا لم أبك، فكان الشطر الثاني تفسيراً ولم أنته من كتابة القصيدة إلا بعد سنة وعدة أشهرٍ من ذلكَ التاريخ"[2]، ولعل قسوة الظروف التي يعيشها العالم العربي هي التي ألهبت النّفس الشعري لدى البرغوثي بالإضافة إلى تعدد الأحداث وتقلباتها، وسأحاول تسليط الضوء على مصادر التجربة الشعرية.

(1) قلقيلة، التجربة الشعرية عند ابن المقرب (ص 69).

(2) البرغوثي، مقام عراق، (ص5).

المبحث الثالث: التراث

إن الأدب مرتبط بالموروث المادي والمعنوي للشعوب، فالعلاقة بينهما قوية ومن الصعب الفصل بينهما."إن الأدب لسان حال الأمة المعبر عنها، ويمثل صورة المجتمع وهو مرآة له، تنعكس على صفحاتها أحوال هذا المجتمع من قوة أو ضعف ومن تقدم وتخلف"[1]

وقد نادى أصحاب بعض الأيدلوجيات بالتغيير الشامل لكل ما هو قديم؛ لكي تذوب في عالمية الحضارة، وهو ما صرح به زكي نجيب محفوظ في كتابه الذي دعا فيه إلى الاتجاه إلى أوروبا وأمريكا، بقوله: "نستقي من منابعهم ما تطوعوا بالعطاء، وما استطعنا من القبول، وتمثل ما قبلناه ... فهذا التراث كله بالنسبة لعصرنا فقد مكانه، فالوصول إلى ثقافة علمية وتقنية وصناعية، لن يكون بالرجوع إلى تراث قديم"[2]، وهو ما عبر عنه أدونيس في (الثابت والمتحول)، الذي وصف الإبداع بأنه نفيٌ لكل صيغةٍ جاهزةٍ وتجاوزٍ لكل شكلٍ موروث، فيقول: "فاستمرار البنية التعبيرية القديمة دليل على استمرار البنية الثقافية الذهنية القديمة، فتحطيم البنية التعبيرية إذن، وهو ما يبرز فنياً في الشكل، دليل على الخروج من البنية الثقافية القديمة، وعلى هذا فإن تحرير الشكل يكشف عن الرغبة في تحرير المجتمع، ذلك أن الشكل، أي الإطار الإجمالي، لا يمثل العلاقات الفنية وحسب، وإنما يمثل كذلك العلاقات الاجتماعية، فالاجتماعي قائم موضوعي في بنية التعبير، أي في الشكل"[3]، فأودنيس كما يتضح مما سبق يرفض وضع البضاعة الجديدة في إناء قديم، وبعبارة أخرى يرفض وضع المضمون الجديد في شكل قديم، فالإبداع في رأي أدونيس هو التجديد المتحرر من أيّ ارتباط بالتراث، وهو نفيٌ لكل سابق، ويلاحظ أن هذه الأقوال تحمل معانٍ وأحكام تمثل وجهة نظر بالنسبة للتراث واستقرائه، ويُلاحظ أن البرغوثي استلهم التراث بحسه الأدبي المرهف وبثقافته الرصينة التي استطاع من خلالها الاستناد إلى التراث العربي والعالمي، وأذابته في بوتقة قصائده التي أنجزها في عدة دواوين، فامتلاك البرغوثي لأدوات تطوير الإبداع يمثل خير رافد لتجربته الشعرية.

يمثل التراث عند البرغوثي أساساً من أسس الإبداع الشعري عنده، فركز عليه في جل أعماله الإبداعية، مما يوحي بأصالة الهوية والانتماء أمام موجات السحق والنفي والسلب والتدمير، إنها أيقونة البقاء في ظل احتدام الصراع وتعدد ألوانه واختلاف مشاربه ومسالكه،

---

(1) عبد الباري، التذوق الأدبي طبيعته نظرياته مقوماته قياسه، (ص24).

(2) إبراهيم، خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، (ص 219).

(3) المرجع السابق، (ص 219).

فالتراث هو إحدى ركائز الهوية التي تُعرف من خلالها أصالة الأمة وعراقتها، وهو مخزون ثقافي وحضاري مكتنز بالأحداث المادية والمعنوية، وهذا ما يمثل التعبير عن الأصل الذي يتصل فيه الأديب في إطار تأكيد هويته العربية فالهوية لا ترتبط بالمكان، فالعربي أينما كان يرتبط بتراثه وليس بمكانه، فالبحث في التراث هو تأصيل للهوية والبحث عن القيمة الجوهرية التي تتجاوز الزمان والمكان؛ لتعبر عن خلود الهوية العربية وخلود الذات الأدبية، ودراسة تراث أيّة أمة هو البحث في ماضيها بمختلف مكونات هذا الماضي الذي يُعد امتداداً لجذورها الموغلة في القِدم، وبذلك تتحدد أصالة الأمة على قَدْرِ امتداد جذورها في الماضي الذي يزخر بالإنجازات العلمية والعملية في مختلف الفنون، فقد قامت لتلك الأمة حضارة عظيمة شهِدَ بها القاصي والداني، ومن هنا عُدَّ التراث هوية الأمة وجزء من شخصيتها، فالتراث يكون في حينه حاضراً، فلما مرت عليه السنون وخلده التاريخ أصبح ماضياً تاريخياً، ولكن ليس كل قديم ماضٍ هو تراث؛ لأنَّ أكثر القديم قد ذهب أدراج الرياح، وطمرته السنين، وأنبت الربيع على دمنه، فالتراث لا يتحدد بالكم الذي وصل منه بل بالنوع الذي يفصح عن قيمة المضمون التراثي، إذن فالتراث الذي يعتد به هو الذي يبلور الخبرة الإنسانية العامة وهو الأحق بالتوارث.

إن التراث الذي سجَّلَ حضوراً دائماً في ذاكرة التاريخ، هو الذي يُبحث عنه لأنه استطاع أن يخلد ذاته عبر الأجيال بما يحمل من رموز ودِلالات وقيم وأخلاق تؤكد أصالة الأمة وعراقتها، والأديب هو جزء من شخصية هذه الأمة، والتراث يمثل ماضيه وهو يتعامل مع وقائع قومه، ويمثل حاضر الأمة ومستقبلها وهو امتداد لشخصية الأمة، وهذا الامتداد هو امتداد الذات الأدبية وليس الواقعة القومية، وهذا ما سار على هديِهِ الشاعر تميم البرغوثي عندما وظف التراث في عمله الإبداعي.

جسد التراث مصدر إلهام النَفس الشعري عند تميم البرغوثي، مما يُؤصل هويته الشعرية والشعورية التي أسدل عليها من عبق التراث وأصوله المعرفية ومختلف أنواعه التي استحضرها في جل نصوصه المبدعة، ولعل الاتصال مع الماضي دشن حالة تفاعلية بين البرغوثي ومتلقي نصوص شعره، إنها لحالة فريدة شكلت بكل مجرياتها التجربة الشعرية المتفاعلة عند الشاعر تميم البرغوثي؛ لأن التراث "ما تراكم خلال الأزمنة من تقاليد، وعادات، وتجارب، وخبرات، وفنون، وعلوم، في شعب من الشعوب، وهو جزءٌ أساسي من قوامه الاجتماعي، والسياسي،

والتاريخي، والخلُقي،ويوثق علائقه بالأجيال الغابرة التي عملت على تكوين هذا التراث و إغنائه[1].

إن الأدب له علاقة وثيقة بالتاريخ، فالأدب يستمد أحداثه من التاريخ ويخرجها بأسلوب أدبي جميل بعيداً عن الحقائق والأحداث التاريخية الجافة التي قد لا تستهوي القارئ، ولما كان الأديب مرآة للبيئة، فمن الطبيعي حقاً أن يكون متأثراً بالأحداث والوقائع التاريخية في المجتمع الذي يعيش فيه، فعامل التاريخ جزء لا يتجزأ من التراث، ويرتبط الأدب بالتاريخ ارتباطاً وثيقاً من أجل ذلك نجد أن معظم الأحداث التاريخية حاضرة في الأعمال الأدبية وأجناسها المختلفة، فتداخل الحدث وما يتعلق به من تفاصيل في الجنس الأدبي الذي يقوم باستلهامه يعبر عن وجهة نظر، تنبع من فكر الشاعر ورؤيته، مما يسهم في تنمية التجربة الشعرية ويسهم في فاعليتها؛ لأن المرتكز الثقافي الجامع بين الأدب والتاريخ يمثل مفهوماً رئيساً في طبيعة التراث التي تتكون من مجموع من النماذج الثقافية التي يتلقاها جيل من الأجيال السابقة، فالتراث من أهم العوامل في تطور المجتمعات البشرية؛ لأنه هو الذي يدفع المجتمع إلى السير خطوة جديدة في سبيل التطور، ومن دراسة ذلك الإرث يصل العلماء إلى "التجديد والابتكار، وكل فيلسوف وعالم وفنان مدين في تجديداته ومبتدعاته إلى الإرث الثقافي الذي يكنه من تلك التجديدات"[2]، فالشاعر البرغوثي اهتم بالتراث واستحضره في ثنايا منجزاته الشعرية، حتى لا تكاد قصيدة شعرية إلا وفيها لمسات تراثية تتعلق بأحد ضروبه المتنوعة، ويستحضر التاريخ فيقول:

وفي وَسَطِ الشامِ تاريخُنا

مثلُ سجادةٍ من حريرٍ تَرَبَّتْ فيها شُيُوخُ الصناعَةْ

ويربطُها البائعونَ بخيطٍ رخيصْ

وتاريخنا فسحَة الشمسِ في السّجْنِ[3]:

إن التواصل مع التراث خلّد التجربة الأدبية عند البرغوثي وأسهم في هويتها وتنشيطها، وزيادة امتداداتها بين أبناء المجتمعات العربية، خصوصاً في ظل انتشار قصائده بين أفراد الشعب الفلسطيني والعربي، فهو يستحضر التراث في أشعاره ليس من أجل ذاتها، وإنما يحملها رسالة تستلهم الماضي من أجل إيصال رسالة الحاضر، وتبليغ رؤيته وما يصبو إليه من معانٍ

(1) عبد النور، المعجم الأدبي، (ص 63).

(2) الجبوري، المضامين التراثية في الشعر الأندلسي في عهد المرابطين والموحدين، (ص25).

(3) البرغوثي، في القدس،(ص15).

ودلالات كامنة في نفسية البرغوثي الشاعرة؛ فيقول عند تخميسه لقصيدة على قدر أهل العزم للمتنبي:" وأنا أكتب تخميسي للقصيدة الجليلة السابقة في هذا الزمان غير الجليل، معتمداً قلب معانيها لانقلاب زمانها، وأن أغير ما تَعُود عليه ضمائر أبي الطيب، فبدلاً من أن يكون موضوع قصيدة أبي الطيب موقعة بين سيف الدولة والروم عند قلعة الحدث، يكون موضوعها بعد التخميس وصفاً لذاتنا جمعاً وأفراداً في هذا الزمان، فأنا بصراحة أسرق أبا الطيب، لكنه جدٌّ سمح وذو كف ندية، ونحن ناسه شئنا أم أبينا، بل شاء هو أم أبى، والله المستعان"[1].

يدلل ذلك على حالة التيه التي يحياها الإنسان العربي، لكن البرغوثي بحنكته استطاع صقل تجربته الشعرية في فتح قنوات اتصال مع التراث العربي والإسلامي من أجل إيصال رسائل قصائده التي أودع فيها إبداعاته ورؤيته لواقع الحياة ومجرياتها، "إن حالة الإبداع في التجربة الشعورية هي التي تنطلق من المعتقدات الثابتة وتبين صورتها أمام المتغيرات التي لحقت بأبناء الشعوب والأمم، فالشاعر يرتبط بإرث ثقافته وما تمتلكه من كنوز مادية وروحية للشعب، "والتي تكونت على مدى الزمن وانتقلت من جيل لآخر بكافة أشكالها وعناصرها المادية والشفهية المدونة وغير المدونة"[2]،وهذا يمثل روح التراث الإنساني الخالد الذي تطرق إليه البرغوثي بمختلف أشكاله، فأجرى الاتصال مع التراث في قصيدته "معين الدمع " التي يقول فيها:

معــينُ الــدَّمْعِ لَــنْ يَبْقَــى مَعِينــا	**فَمِــــنْ أَيِّ المصَــــائِبِ تَــــدْمَعِينا**
زَمَــــانٌ هَــــوَنَ الأَحْــــرارَ مِنَــــا	**فُــــدِيتِ، وَحَكَّــــمَ الأَنْــــذَالَ فِينــــا**
مَلأْنَــــا البَــــرَّ مِــــنْ قَتْلَــــىً كِــــرَامٍ	**عَلَــــى غَيْــــرِ المهَانَــــةِ صَــــابِرِينا**
كــــأَنَّهُمُو أَتَــــوْا سُــــوقَ المنايــــا	**فَصَــــارُوا يَنْظُــــرُونَ وَيَنْتَقُونــــا**
لَــوَ أَنَّ الــدَّهْرَ يَعْــرِفُ حَــقَّ قَــوْمٍ	**لَقَبَّــــلَ مِــــنْهُمُ اليَــــدَ والجبِينــــا**
عَرَفْنَــا الــدَّهْرَ فــي حَالَيْــهِ حَتــى	**تَعَوَّدْنَاهُمَــــا شَــــدَّاً وَلِينــــا**
فَمَــــا رَدَّ الرِّثَــــاءُ لَنَــــا قَتِــــيلاً	**ولا فَــــكَّ الرَّجَــــاءُ لَنَــــا سَــــجِينا**
سَــنَبْحَثُ عَــنْ شَــهِيدٍ فــي قِمَــاطٍ	**نُبَايِعُــــهُ أَمَيــــرَ المؤمِنِينــــا**
وَنَحْمِلُــــهُ عَلَــــى هَــــامِ الرِّزَايــــا	**لِــــدَهْرٍ نَشْــــتَهِيهِ وَيَشْــــتَهِينَا**

(1) البرغوثي، في القدس (ص145 – 146).

(2) مؤمن وجرجس، التراث الشعبي للأزياء في الوطن العربي، (ص5).

فَـــإنَّ الحَـــقَّ مُشْـــتَاقٌ إلـــى أَنْ يَـــرَى بَعْـــضَ الجَبَـــابِرِ سَـــاجِدِينا[1]

إن هذه القصيدة تمثل استحضار البرغوثي للتراث العربي في العصر الجاهلي، وذلك بمعارضة البرغوثي للشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم في معلقته الشهيرة، ويمثل ابن كلثوم اعتزازاً قومياً لبني تغلب، كما أن صراعه مع عمرو بن هند أذكى روح التمرد والثورة على الظلم والجبروت، ومن هنا يُستشعر بأن البرغوثي استلهم ما أنتجه ابن كلثوم؛ ليعبر عمّا يتعرض له من ملاحقات ومطاردات للأفكار والآراء والاتجاهات في الوطن العربي.

وارتبط بالتراث العربي والإسلامي واستلهمه في نصوص أشعاره، وفتح معه قنوات حوارية، فاستحضر شخصية الرسول(ﷺ) في الهجرة النبوية؛ فيقول:

أَرَى أُمَّـــةً فـــي الغـــارِ بَعْـــدَ مُحَمَّـــدٍ تَعُـــود إلِيـــهِ حِـــينَ يَفْـــدَحُهَا الأَمْـــرُ

دخلـــتِ إليـــه اثنـــينِ أوَّلَ مَـــرَةٍ نَبِيَّـــاً وصِـــديقاً وَشَـــى بهمـــا الـــوَعْرُ

أيـــا أمـــةً فـــي الغـــارِ تبغِـــي حمايـــةً مـــن الطيـــرِ معـــذورٌ إذا خانَـــكِ الطيـــرُ

وجبريـــل يـــأتي الغـــار كـــلَّ عَشِـــيَّةٍ ويـــذهبُ والغـــافونَ فـــي الغـــارِ لـــم[2]

لقد أورد الهجرة النبوية والتي تحدث من خلالها عن المرحلة الحرجة التي تمر بها الأمة العربية والإسلامية، فكانت تجربته الشعرية تمتاز بالوعي والصدق الفني في بناء القصيدة وطرح الأفكار وتصوير المشاعر والأحاسيس التي تنتابه وتمثل رؤيته للحياة.

واستلهم من خلال تجربته الشعرية التي أردفها بعلوم التراث وفنونه، فاستحضر القرآن الكريم من التراث الديني في نصوص قصائده، فيقول[3]:

يا هلالْ

عَلَمَ المؤمنين

أيها القارب المتأرجح ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالْ

شمالك مُعْتَلَّةٌ واليمينْ[4]

---

(1) البرغوثي، في القدس، (ص170).

(2) المرجع السابق، (ص 54).

(3) البرغوثي، مقام عراق (ص10).

(4) المرجع السابق، (ص10).

لقد وظف البرغوثي التراث الديني المتمثل في القرآن الكريم، التي تحدث فيها عن الأوضاع المعيشية التي يحياها الإنسان الفلسطيني، فأجرى تناصاً مع قوله تعالى:﴿**وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا**﴾[1]، ويُلاحظ أن الشاعر"يرغب بكل ما هو مقدس،وهذا يجعل المبدع يحرص على الهيمنة، فحضوره ليس لمجرد إغناء النص بطاقاته فحسب بل لكونه عالقاً في ذهن المتلقي، مما ينتج عن استثماره من وظيفة مزدوجة: روحية، وفنية"[2]، فالشاعر البرغوثي صقلت النصوص الدينية تجربته الشعرية، وساهمت في حيويتها والتفاعل معها، مما يشي بحضور التراث الديني وتأثيراته في نفسية الشاعر والإنسان العربي.

ووظف الشاعر التراث التاريخي للأمة العربية والإسلامية، ويستعرض حاضر الأمة في زماننا، ويركز على القضية المركزية فلسطين التي تعد قلب الأمة النابض، فلم يكن التراث التاريخي حاضراً بلا دلالة؛ إنما يحمل إيحاءات معبرة، صب فيها الشاعر مراجعات ذات موارد متنوعة تشي بعمق رؤيته وخصوبتها، فيقول:

وأعيدُ تركيبَ التواريخِ القديمةِ

ربما أدخلتُ فيها بعضَ تزويرٍ حميدْ

فيصحُ التاريخُ سيرتَه كأحسنِ ما أريدْ

فيه الخوارجُ لا تثورُ على عليّ

ويثورُ فيه المسلمونَ على يزيدْ

ويُطافُ في الأسواقِ بابنِ العلقميّ

وبكلِّ من جعلَ الغزاةَ ولاتَهُ

في مصرَ أو في الشامِ

أو في ذلكَ البلدِ المخضَّب والمجيدْ[3]

---

(1) [الكهف: 18].

(2) حسين، التناص في شعر حميد سعيد (ص24-25).

(3) البرغوثي، في القدس(ص31-32).

لقد شكل توظيف التراث صوراً أدبية تعبر عن حال الأمة ولسان واقعها، ويستحضر الشاعر التراث التاريخي للفتن والنعرات التي شهدتها الأمة في غابر الأزمان، لم يقصد الشاعر التراث نفسه في ذلك الزمن البعيد، إنما وظفه ليصور حال العرب والمسلمين اليوم، وحال الضياع والهوان وفقدان البوصلة في ظل احتدام ألوان شتى من الصراع وأساليب الاحتلال والغزو، فيقول:

وأُعيدُ ترتيبَ الخرائطِ

حيث أجعلُ سورَ بغدادٍ عقالاً

في رؤوسِ الأكرمينَ

ونيلَ مصرٍ نهرَ خيلٍ تحتَ قومٍ غاضبينَ

وغوطةً بدمشقَ تُنبتُ، في زمانِ الحربِ

رُمحاً كي يصونَ الياسمينَ[1]

لقد أساهم التراث التاريخي والجغرافي في إثراء التجربة الشعرية عن البرغوثي، وجعله يوصل رسالته الأدبية ويسهم في التعبير عن المعاني والدلالات التي تجيش بها نفسه ويعمل بها فكره وعقله.

إن تعبيرات البرغوثي عن تجليات الحدث الأدبي وارتباطها بالتراث الذي يمثل: "ميراث إنساني بجهد بشري خلّفه الذين أورثونا إياه"[2]، من عوامل إثراء التجربة الشعرية لديه، حتى على مستوى استلهام الموضوع ومكوناته في القصيدة، فاعتمد على المعارضة والتخميس وما إلى ذلك من أساليب فنية، تعبر في مجملها عن الوعي الفني في تشكيل القصيدة الشعرية، وشحنها بالدلالات والمعاني التي يريد الشاعر تبليغها وإيصالها.

(1) البرغوثي، في القدس(ص32-33).

(2) إبراهيم، خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، (ص 216).

المبحث الرابع: الواقع

سبق أن أشرنا أن الأديب ابن بيئته، ولقد أرفد شعراء فلسطين الأدب العربي بكثير من القصائد التي تحمل في ثناياها دلالات مختلفة ومعانٍ متنوعة، ويلاحظ أن القضية التي تشغل كتابها قضية محورية وأساسية ووحيدة، وهو أمر طبيعي لا يحتاج إلى تبرير أو إلى تفسير، "ففلسطين هي الموضوع وهى القضية وهى البداية والنهاية، وهى الدافع إلى الكتابة وهى الغاية من الكتابة"[1]،وهذا ما حدا بالاحتلال لاضطهاد الكتَّاب جاهداً للتقليل من تأثيرهم ومحاصرتهم، ولما فشل لجأ إلى أسلوب القمع الدموي والتخريب فشهدت اغتيال الأدباء، فلقد اغتيل غسان كنفاني وكمال ناصر وراشد حسين ويوسف نصر ونعيم خضر وناجي العلي ...وغيرهم"[2].

عايش البرغوثي أحداثاً متنوعةً، اتخذ فيها الكلمة الشاعرة وسيلة لإيصال رسائله، وما يجيش بقلبه للآخرين، ولكنه لا يستطيع أن ينسى وطنه وذكرياته وما أحاط بأهله من النكبات والكوارث، ولكن الشاعر وأجداده لا زالوا يحملون هم الوطن والأرض والدار رغم البعد والغياب، فيقول عن قضية القدس:

مررنـــا علـــى دارِ الحبيـــب فرَدَّنـــا ... عـنِ الـدارِ قـانونُ الأعـادي وسـورُها

فَقُلْـــتُ لنفســـي رُبمـــا هِـــيَ نِعْمَـــةٌ ... فمـاذا تَـرَى فـي القـدسِ حـينَ تزُورُهـا

تَـــرَى كُـــلَّ مـــا لا تســـتطيعُ احتِمالَـــه ... إذا مَـا بَـدَتْ مِـنْ جَانِـبِ الـدَّرْبِ دورُهـا

ومـــا كـــلُّ نفـــسٍ حـــينَ تَلْقَـــى حَبِيبَهـــا ... تُسَـــرُّ ولا كُـــلُّ الغِيـــابِ يُضِـــيرُها

فـــإن ســـرَّها قبـــلَ الفِـــراقِ لقـــاؤُه ... فلـــيسَ بِمـــأمونٍ عليهـــا ســـرُورُها[3]

لم يكن مرور الشاعر بكلماته ضرباً من الخيال أو مروراً عبثياً لا طائل منه، إنه تعبير نفسي بامتياز يمثل مكنونات الذات وجوهرها المتألم من طول الغياب ولوعة الفراق، تلك العذابات التي خطها قانون الأعادي وما يتبعه من تطورات في النفس وعلى الأرض التي يحيا عليها الإنسان الفلسطيني، فكثرت المتغيرات التي شوهت معالم المحبوبة التي ينشد لها الشاعر من أعماق نفسه؛ لتلهب شعوره المتنامي نحوها.

---

(1) النساج، بانوراما الرواية العربية الحديثة، (ص139).

(2) الجعيدي، مصادر الأدب الفلسطيني الحديث (ص23-24).

(3) البرغوثي، في القدس (ص3).

لقد عبر البرغوثي عن مآسي شعبه، مما جعل الواقع يصقل تجربته الشعرية، وتعّرض لكثير من المآسي، فيقول: "جاؤوا إلى منزلي، قادوني معصوب العينين، وهددوني بالكلاشينكوف، كان ذلك حوالي الساعة الرابعة فجراً، أخبرني أحدهم أن عليَّ أن أشتري تذكرة طيران وأغادر، لم يكن ثمة أوراق رسمية، لا أختام ولا وثائق ولا أي شيء"[1]، مما يوحي أن هذا الشاعر يعاني ويلات الجور والظلم من قبل الطغاة وأعوانهم، واقع هذا الظلم شجعه على نظم القصيدة وعزز تجربته الشعرية في التعبير عمّا يجيش بداخله من مشاعر وأحاسيس، وهذه المضايقات التي تعرض لها، تركت آثارها في تجربته الشعرية، وجعلته يلهب مشاعره وأحاسيسه بمشاعر بني وطنه من أهل فلسطين في المنافي والشتات، لم تكن الكلمات في التجربة الشعرية لحظات عابرة تنطق أو ترسم إنها تحمل رسائل ومعاني يريد الشاعر إرسالها لجمهور المتلقين، فيقول البرغوثي:" الكلمات – كما البشر – لها ظلال، إنها تمتلك رائحة، تحوطها هالة ما، وهي تتغير بشكل جذري عندما تنقلها من لغةٍ إلى أخرى، مثلًا كلمة "مطر"، والتي تُترجم (rain) في الإنجليزية، ففي العربية تعطي إيحاء الكرم، والحظ السعيد والخلاص، أما في الإنجليزية فإن يومًا ممطرًا ليس هو أفضل ما يتمنى المرء حدوثه"[2]، تنبثق الكلمة من الهوية القومية للبرغوثي الذي يتكلم العربية ويدين بالإسلام، مما صقل شخصيته، واهتم بتثقيف نفسه، مما انعكس على مسيرته الشعرية وتجربته فيها، فهو يطلق أشعاره لأبناء الشعب العربي في مختلف أرجاء الأرض، فيقول: "لقد كان بإمكانها أن تحررني من ذلك الشعور الذي يراودني كلما تحدثت أو كتبت بالإنجليزية، بأنني أسبح في بحرٍ هلاميٍ، لقد كانت تحاول، عبر أجنحتها الضخمة جدًا جدًا، كآلهة العدل عند المصريين، تشق البحر كما فعل موسى، تاركة لي المجال للعبور"[3]، بمعنى أن الكلمة الواقعية في نظر البرغوثي لها ما لها في بنية القصيدة التي تطلقها تجربته الشعرية، والاطلاع على ثقافات الآخرين، وتوسيع آثار التجربة الشعرية عند البرغوثي إلى عالم الإنسانية الآخر، فتجربة البرغوثي الشعرية شأنها شأن شعراء فلسطين الذين" اتجهوا نحو المجتمع، والتصقوا بقضاياه السياسية الساخنة، وتوقفوا عند معاناة أفراده من الحصار الاقتصادي والأوضاع المعيشية الصعبة"[4].

(1) البرغوثي، كاتي شانون جينكيز، نيويوركر" الناس يكتبون الشعر بأقدامهم أحيانا" (موقع الكتروني).

(2) المرجع السابق (موقع الكتروني).

(3) المرجع نفسه.

(4) أبو علي، اتجاهات القصة القصيرة في فلسطين بعد اتفاقية أوسلو (ص272).

ويتحدث الشاعر عن جرائم المحتل وجبروته في اغتصابه لمسرى النبي وقبلة المسلمين الأولى، ولا أحد يحرك ساكناً، فمثلت القدس معادلاً موضوعياً أقام عليه البرغوثي ديواناً بأكمله، يُلمس من خلاله مشاهد العدوان والظلم والبهتان على مسمع ومرأى كثيرين من بني العروبة والإسلام، ويبين أساليب المحتلين الهمجية في الاعتداء على عفة المدينة المقدسة؛ فيعبر عن واقع أليم، فيقول:

في القدسِ شرطيٌّ من الأحباشِ

يغلقُ شارعاً في السوقِ

رشاشٌ على مستوطنٍ لم يبلغِ العشرينَ

قبعة تحيّي حائطَ المبكى

وسياحٌ من الإفرنجِ شقرٌ لا يرَونَ القدسَ إطلاقاً

تراهم يأخذونَ لبعضهم صوراً

مع امرأةٍ تبيعُ الفجلَ في الساحاتِ طولَ اليومْ

في القدسِ أسوارٌ من الريحانْ

في القدسِ متراسٌ من الأسمنتْ

في القدسِ دبَّ الجندُ منتعلينَ فوقَ الغيمْ

في القدسِ صلينا على الأسفلتْ

في القدسِ مَن في القدسِ إلا أنتْ[1]

يعبر الشاعر عن حياة مدينة القدس والأجسام الغريبة التي شوهت ثقافتها، وألحقت الأذى بها، ويبين تربية الحقد التي يحملها المحتل وآلات الموت التي يتسلح بها؛ ليزهق بطبعه الشرير أبناء الشعب العربي المسلم بفلسطين، والقبعة والسياح الشقر من الحالات الشاذة التي تدلل على الواقع المؤلم، ويصور تبجحهم بحق مشاعر العرب والمسلمين، ويلفت النظر لصورة الإنسان العربي الغريب في وطنه وهو يطلب الرزق في الساحات طول اليوم، تلك عذابات الإنسان العربي المقهور من بني قومه ومن الغرباء الوافدين، ويستذكر عبق التاريخ المشرق والواقع المشين الذي أذاق أهل بيت المقدس صنوفا من العذابات.

---

(1) البرغوثي، في القدس(ص3-4).

يصور الشاعر حالة العدوان الذي تتعرض له أمة العرب والمسلمين، يبين جور المحتلين وقسوة ضرباتهم وهمجية عدوانهم على الأبرياء العزل، ذلك الإجرام الذي يقوده قياصرة الظلم وولاته، فيقول:

دخانٌ كثيفٌ يوزن بالأطنانْ

يعبرُ الخرائطْ

إن ترفعْ يدَكَ لا تَرَها

والناس يصدم بعضُهم بعضاً كسياراتِ الملاهي

فإن تتبَّعتَ الدخانَ إلى مصدرهْ

وصلتَ غليونِ القيصرْ[1]

يعبر الشاعر عن حالة الهلع والتشرد وألوان العدوان بآلات القتل والسحق التي يستخدمها المحتل الغاصب الذي انتهك حرمات الأمة العربية والإسلامية مع حالة الضياع من جراء التشرذم وغياب الوحدة، وتشعب الأمة وانقسامها على نفسها في ظل توالي المحن والآهات التي دبت أرجاء المعمورة، فيقول:

أربعةُ جيوشٍ من ورقِ اللعبْ
جيشانِ أحمرانِ وجيشانِ أسودانْ
تظهر المذيعةُ في نشرةِ الأخبارْ
يتقاتلُ الأسودانِ والأحمرانْ
المذيعةُ تذكرُ خلطَ الأوراقْ
يتحالفُ كلُّ جيشٍ أسودَ مع نظيرٍ أحمرْ
المذيعةُ مرةً أخرى
تنقسمُ كلُّ ورقةٍ إلى لونينْ
نصفها الأعلى أحمرْ
والأسفلُ أسودْ
أو العكسْ[2]

(1) البرغوثي، في القدس، (ص37).
(2) البرغوثي، في القدس (ص41).

يعبر الشاعر عن حالة الفرقة والضعف بين أبناء الأمة العربية والإسلامية، يبين اختلاط الأوراق وتداخل الصالح والطالح في زمن متقلب تحكمه أطماع المستعمرين، والفرق والجماعات المتشرذمة التي تلهث خلف مصالحها، ذلك الواقع المرير استوقف الشاعر وجعله ينهل من معينه؛ ليصور طبيعة الحياة وأساليبها، ويقول:

تزدادُ العداوةُ كلما اقتربَ الخصمُ من خصمِه

فما ظنكَ بالخصمينِ وقد أصبحا متجاورينِ

في ورقةٍ واحدةْ

تصابُ الأوراقُ بالفصامْ

فتقطعُ كلُّ ورقةٍ نفسَها من الوسطْ

نهايةُ النشرةْ

سلةُ المهملاتْ[1]

يتحدث الشاعر عن حالة العداوة والتخاصم بين أبناء الأمة الواحدة داعياً إلى التماسك والوحدة أمام تغيرات الحياة وهجمات الأشرار ومن والاهم، ويذَّكر بني قومه بضرورة الالتحام والتماسك.

ويستعرض الشاعر واقع الأمة وما تتعرض له العراق من نكبات في العصر الحديث، على يد الطغاة العابثين، الذين أغروا ضعفاء النفوس بأموالهم ودعواتهم المشبوهة، فيقول:

طائفةٌ من الحدادينَ المكفوفينَ نحنْ
ندقُّ معادنَ لا نعلمُ أصولَها
ونصبّر أنفسَنا على النار
حاسبينَ أننا نصنعُ شمساً من ذهبْ
والدهرُ يمشي على إيقاعِ مطارقِنا
وعلى الباب ينتظر الناس أن نَخبزَ الشمسَ لهم
أتوا بالدراهمِ والدعوات[2]

(1) البرغوثي، في القدس (ص42).
(2) البرغوثي، مقام عراق (ص27-28).

يتمثل الألم والعذاب من الواقع في ثنايا قول الشاعر، فهو يواجه أحداثاً ومواقف لم يعرف أصولها إنما يعيش نتائجها، فصور الواقع ومشاهده حيث يقول:

إذا مـــا أَضَـــعنا شـــامَها وعراقَهـــا فتلـــكَ مـــنَ البيـــتِ الحـــرامِ مداخلُـــهْ

ومـــا مَـــيَلانُ الـــدهرِ ميـــلُ قَوَامِـــهِ ولكـــنْ يميـــلُ الـــدهرُ لـــو قـــامَ مائِلُـــهْ

أرى الـــدهرَ لا يرضـــى بنـــا حلفـــاءَهُ ولســـنا مطيقيـــهِ عـــدواً نصـــاولُهْ

فهـل ثَـمَّ مـن جيـلٍ سـيقبِلُ أو مضـى يبادلنـــــا أعمارَنـــــا فنبادلُـــــهْ[1]

ويتحدث الشاعر عن واقع ألم الغربة الذي اكتوى بناره في ظل حالة من التشرد والتشرذم بين أنحاء العالم العربي والغربي، حياة الواقع غير المستقر التي تطارد المبدع في حله وترحاله رحلة العذاب بعيداً عن أرض الوطن والأهل والأحباب؛ فيقول:

يا غربتي يا غربةَ المغتربِ

عن دارهِ أو غربةَ المقتربِ

من نفسهِ التي تظلُّتختبي

يُريغُها كذا بدونِ سبب

كأرنبٍ يعدو وراءَ أرنبِ

أو ربما يعدو وراءَ ثعلبِ

كم طالبٍ من جهلهِ بالمطلبِ

يدفعُهُ مطلبهُ للعطبِ[2]

إن مشاعر الغربة والشعور بالوحدة والعزلة يؤثر على نفسية الشاعر ويغذي أفكاره ويشحن رؤيته بمزيد من الدلالات والمعاني، التي تمثل حالة الصراع النفسي في البقاء والفناء في ظل احتدام الأحداث وتشابكها في نفسية الشاعر وأمام ناظر عينيه.

---

(1) البرغوثي، في القدس (ص142).

(2) المرجع السابق (ص164).

ولم يسعف واقع التاريخ ذات الشاعر ولم يرحم من يستكين ويستسلم لأحداثه الهوجاء، إن هذا الواقع أنتج حالة شعورية متمردة، تحوي كثيراً من المواقف والإشارات والدلالات ذات المنبع النفسي، فيقول:

صُبّي لعمكِ يا نوارُ القهوةْ

لا تستحي من عمكِ التاريخْ

قد زارنا من قبلُ

كنت صغيرةً

لا تذكرينْ

لا تسرقي أقلامَهُ

لا تهزئي من شكلِهِ

هو هكذا

الوجه مرتجل الملامحِ[1]

يبث الشاعر آلامه النفسية من عذابات التاريخ وآهاته، يعبر عن الذات المقهورة التي تجرعت ألواناً مختلفة من الأوجاع، لكنها لا تفقد الأمل في الانتصار على جبروت المحتل وأعوانه، وتستوقف الأحداث التي يحياها الشاعر في واقعه ومتغيراته؛ فيقول البرغوثي: "لقد دارت عجلة التغيير، سيكون هناك إخفاقات، لكن لا أظن أن الأمر سيرتد على عقبيه"[2]، هذه إعادة صياغة للواقع بنبوءة البرغوثي، الذي يرى أن أحداث التغيير مهما كانت نتائجها فإنها تكون في صالح الشعب.

ويصور الشاعر واقع الأمة ويستجلي معالم حكامها الفاسدين الذين يسومون شعوبهم سوء العذاب، ويبين حالة التشرذم التي تحياها الأمة العربية بسبب السياسات الاستعمارية التي فتكت جسد الأمة وأنهكته، فيقول:

يا أمَّنا الموتُ أبلَهُ قريةٍ يهذي

ويسرقُ ما يَطيب لهُ

---

(1) البرغوثي، في القدس (ص60).

(2) البرغوثي، كاتي شانون جينكيز، نيويوركر" الناس يكتبون الشعر بأقدامهم أحيانا" (موقع الكتروني).

منَ الثمرِ المباركِ في سِلالِك

ولأنهُ يا أمَّ أبلهُ

فهو ليسَ بِمنتهٍ من ألفِ عامٍ عن قتالِكْ

حتى أتاكِ بحاملاتِ الطائراتِ

وفوقَها جيشٌ من البلهاءِ يسرقُ من حلالِك

ويظنُّ أنَّ بغزوةٍ أو غزوتينِ

سينتهي فرحُ الثمارِ على تلالِكْ

يا موتَنَا يشفيكَ رُّبكَ من ضلالِكْ[1]

ينادي الشاعر أمته ويشكو حالها يحمل هم المآسي والآهات التي يعيش فيها الإنسان العربي، ويتحدث عن المستعمرين الذين نهبوا خيرات البلاد والعباد، ينهبون مقدرات الشعوب، ويلاحقون الأحرار الرافضين لسياساتهم، إنها لعنة الاستعمار الذي تعاني منه الأمة العربية، تلك أدوات الأشرار وأطماع الظالمين والخونة وأتباعهم، لذا يعبر الشاعر في تجربته عن قسوة الحياة وألم الواقع وآهاته.

ويصر البرغوثي على أن المقاومة "ستتجاوز الحدود اليوم، ويكأن نيرون يلبس تاجه، صارخًا بالويل روما والقدس"[2]، لقد ربط عامل القداسة بين المكانين من أجل التعبير عن القيم الشعورية التي يمكن من خلالها الارتقاء بالنفس الشاعرة، وترجمة المشاعر والأحاسيس التي تدور في خلد البرغوثي، إن واقع القدس استوقف البرغوثي لما تمثله القدس من مكانة مقدسة مرموقة في نفس الشاعر، علاوةً على كونها إحدى الثوابت الوطنية والقومية لأمة العرب والمسلمين، فيصور حال القدس، فيقول:

في القدسِ، بائعُ خضرةٍ من جُورجِيا بَرِمٌ بزوجته

يفكرُ في قضاءِ إجازةٍ أو في طلاءِ البيت

في القدس، توراةٌ وكهلٌ جاءَ من مَنْهاتَن العُليا

يُفَقِّهُ فتيةَ البُولُونِ في أحكامها

---

(1) البرغوثي، في القدس (ص56-57).

(2) البرغوثي،كاتي شانون جينكيز ،نيويوركر" الناس يكتبون الشعر بأقدامهم أحيانا"(موقع الكتروني).

في القدسِ شرطيٌ من الأحباشِ

يُغْلِقُ شَارِعاً في السوقِ،

رشَاشٌ على مستوطنٍ لم يبلغِ العشرينَ،

قُبَّعة تُحَيِّي حائطَ المبكَى

وسياحٌ من الإفرنجِ شُقْرٌ لا يَرَوْنَ القدسَ إطلاقاً

تَراهُم يأخذونَ لبعضهم صُوَراً

مَعَ امْرَأَةٍ تبيعُ الفِجْلَ في الساحاتِ طُولَ اليَومْ

في القدسِ أَسْوَارٌ مِنَ الريحانْ

في القدسِ مِتْرَاسٌ مِنَ الأسْمَنْتْ

في القدس دَبَّ الجندُ مُنْتَعِلِينَ فوقَ الغَيمْ

في القدسِ صَلَّينا على الأَسْفَلْتْ

في القدسِ مَن في القدسِ إلا أنْتْ[1]

إن واقع مدينة القدس جعل الشاعر يعبر عنها بصورة شعرية تدل على العمق الوجداني الذي تجسده القدس في نفسية الشاعر ورؤيته لتفاصيل قضية القدس، التي تعد أهم مرتكزات الهوية الفلسطينية، فالواقع الذي تحياه القدس أثَّر في تنظيم أحداث القصيدة وإخراجها لجمهور المخاطبين، فقد رسم لنا الشاعر صورة يومية حياتية تفصيلية لما يحدث في القدس وكأنه عدسة ترصد الصور والأحداث وتصورها تصويراَ واضحاَ، كبائع الخضرة، والكهل، والشرطي والمستوطن، والسياح، وبائعة الفجل، والجند، وكل قد جاء لهدف يقصده، بما يوحي أن الواقع له دور مهم في إثراء تجربة الشاعر وإضفاء تفاصيل حيوية في النصوص الشعرية المنجزة.

إن طبيعة الشعر تصور الواقع من خلال التجربة الشعرية ومكوناتها ومصادرها، فيُلاحظ أن البرغوثي ينطلق من الواقع ويشكله في صور شاعرة تنقل مشاعره وأحاسيسه، فيصور حال الغاضبين والمعتصمين في الساحات والميادين؛ فيقول:

1() البرغوثي، في القدس (ص3).

لكنَّ رعداً خافتاً يعلو

وزلزلةً وصوتاً من سماءِ الله يأتي

تالياً شيئاً شبيهَ السُّورَةْ

الخيلُ أَدْرَى بالذي تَسْعَى لَهُ

فلتتركوها،

إنها مَأْمُورَةْ[1]

لقد وظف الشاعر التناص الديني من أجل تصوير واقع الشعوب المنتفضة في وجوه الطغاة المتجبرين، ويبين تحركاتهم ونشاطاتهم التي ساروا عليها، فوصف الواقع وبيانه يدعم التجربة عند المبدع، ويقرب المعاني من جمهور المخاطبين، مما يضمن فاعلية القصائد التي تنتجها التجربة الشعرية عند البرغوثي.

وتحدث عن حالة الصمود والتحدي والثورة على الواقع الأليم الذي فرضه المحتل على أهل فلسطين، ولم يقف البرغوثي مكتوف الأيدي حيال ذلك، فثارت ثائرته مشيداً بالصمود على هذه الأرض؛ لأن عليها ما يستحق الحياة؛ فيقول:

إن ســـارَ أَهلِـــي فالـــدَّهْرُ يَتَّبِـــعُ ... يَشْـــــهَدُ أحـــــوالَهم ويســـــتَمِعُ

يَأْخُـــذُ عَـــنْهُم فَـــنَّ البَقَـــاءِ فَقَـــدْ ... زادُوا عليـــــهِ الكثيـــــرَ وابتـــــدَعُوا

وَكُلّمـــــا هَـــــمّ أن يقـــــولَ لهـــــم ... بـــأنهم مهزومـــونَ مـــا اقْتَنَعُـــوا

يســـيرُ إن ســـارُوا فـــي مظـــاهَرَةٍ ... فـــي الخَلْـــفِ فيـــه الإقْـــدَامُ والجَـــزَعُ

يَكْتُـــبُ فـــي دَفْتَـــرٍ طَـــرِيقَتَهُم ... لَعَلّـــــهُ بالـــــدُّرُوسِ يَنْتَفِـــــعُ[2]

يبين الشاعر حالة التمرد والمواجهة في سبيل الدفاع عن النفس وإثبات الذات ومواجهة الغزاة المحتلين بعقيدة الحياة التي لا تخشى الموت، لقد ابتدع أهل فلسطين لنفسهم طرق الخلود والبقاء في ميادين الشهادة وساحات النزال، إنه صراع الوجود مع المحتل الغاصب، مما جعل الشاعر ينطلق من ذاته الحرة؛ ليبرهن على أهمية طريق الثورة في وجه الظلم والبهتان.

---

(1) البرغوثي، في القدس (ص129-130).

(2) البرغوثي، في القدس (ص 66).

يلاحظ أن الواقع شكل التجربة الشعرية عند البرغوثي وأسهم في إثرائها من خلال الأحداث والمضامين والمواقف التي تشهدها الحياة التي يحياها البرغوثي والتي تمر بها الأمة العربية والإسلامية عامةً، وفلسطين بلاده خاصةً.

المبحث الخامس: الخيال

يمثل الخيال مصدراً من مصادر التجربة الشعرية، وهو ركن لا يمكن الاستغناء عنه في العمل الأدبي، فالخيال يتسامى بالتجربة الشعرية، ويسهل على المبدع تجسيد وتصوير الماديات والمعنويات في صلب قصائده، فالخيال هو "القدرة التي يستطيع العقل بها أن يشكل صوراً للأشياء أو الأشخاص أو يشاهد الوجود"[1]، فيمثل "قوة تحفظ ما يدركه الحس المشترك من صور المحسوسات بعد غيبوبة المادة"[2]، وعلى ذلك فالخيال "يمد الأديب بأدوات يمكن من خلالها بلورة مضمون القصيدة وتقريبه للذهن، فالخيال هو الذي يخلق الصورة الشعرية جزئية كانت أو كلية، ثم هو الذي يمد هذه الصورة بالطاقة اللازمة تتحرك وتحقق أهدافها الفنية، ولولاه لعجزت لغة الشعر –مهما كانت راقية– عن أداء التجربة الشعرية"[3]، فمنح الخيال البرغوثي قوة في التعامل مع "المعطى والسائد والمألوف إلى التعامل مع المتشكل بإرادته وما يطمح إليه ولا يمكن له أن يحققه على أرض الواقع"[4]، بمعنى أن الخيال يمد التجربة الشعرية عند البرغوثي بطرح رؤيته التي تنطلق من الواقع والمتخيل الذي قد لا يكون ممكناً تحقيقه.

إن البرغوثي يؤمن بمسؤولية الفن عن إعادة تشكيل خيال الناس حول نظام العالم والتخطيط للمستقبل، ويقول: "القوة تكمن في قدرة الإنسان على التخيل، إذا قرر الناس في الشارع أن رجل الشرطة هو شخص يلبس بطريقة غريبة، فسيصبح ببساطة شخصًا يلبس بطريقة غريبة"[5]، لذا فهو يهتم بجمهوره المخاطب من خلال تصوير الأشياء من وحي خياله، وتقريبها لأذهانهم من أجل إيصال رسالته لجمهوره الذي يتابعه.

لقد بلور البرغوثي رؤيته للواقع مما يُشعر بخصوبة التجربة الشعرية لديه، واتساعها لتشمل في طياتها ضروباً شتى؛ فيقول: "الشيء الجيد بالنسبة لمعظم الطغاة هو أنهم ليسوا حساسين جدًا للفن، هم أكثر غلظة من أن يدركوا التهديد الذي يمثله الجمال عليهم، وعندما يدركون التهديد ويتحركون لسحقه، فإن بإمكان الناس أن يخلقوا البديل، إذا أغلقوا المعارض فسيرسم الناس على الجدران، ليس باستطاعة أي ديكتاتور أن يخفي الإبداع، ولا أن يمحو من

---

(1) وهبة والمهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، (ص163).

(2) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف،(ص161).

(3) قلقيلة، التجربة الشعرية عند ابن المقرب، (ص69).

(4) الربيعي، الخيال في الفلسفة والأدب والمسرح، (ص10).

(5) البرغوثي،كاتي شانون جينكيز ،نيويوركر" الناس يكتبون الشعر بأقدامهم أحيانا"(موقع الكتروني).

وعي البشر الفن الذي يعمل فيهم عمل السحر"[1]، بمعنى أن الأديب لا يعدم الوسيلة، فقد تسحق أفكاره ويطارد، ولكنه له أدواته التي لا يمكن النيل منها، وهي التي تساعده في مواجهة المتغيرات، وتجسيد المشاعر والأحاسيس بصورة إنسانية تحمل قيماً ومبادئ نبيلة، فيقول:

يا أُمَّتي يا ظَبْيَةً في الغَارِ
ضَاقَتْ عَنْ خُطَاها كُلُّ أَقْطَارِ المَمالِكْ
في بالِها ليلُ القَنَابِلِ
والنجوم شهود زُورٍ في البروجْ[2]

فينادي أمته من وحي خياله ومشاعره الجيّاشة، فيرسم صورة لأمته بتشبيهها بالظبية المحاصرة، وتصوير الممالك وليل القنابل، والنجوم والبروج، كل ذلك يصدر عن خيال خصب معجون بألم الواقع وآماله، وينطلق البرغوثي في خياله الخصب؛ ليبرهن على حيوية الصورة التي يرسمها في تجربته الشعرية التي يريد أن تتضح رسائلها من خلال قصائده المنجزة، والتي تنقل رؤيته للواقع والحياة، فيقول:

والعرشُ فَوقَ غزالتينِ كَأَنَّما
دبَّتْ حياةٌ فِيهُما
وَجْهَاهُمَا دِفءٌ يَشِي بِالشَّمْسِ
مِنْ قَبْلِ النَهَارْ
إحدَاهُمَا نَظَرَتْ إلى العَرْشِ الخَلِيّ
وَأُخْتُها نَظَرت إلى جِهَةِ السَّمَا
وَكَأَنَّ غَيْماً مَا
سَيُمْطِرُ لِلأَنامِ خَلِيفَةً
وَمُعَلِّماً
وَبَدا عَلَى سَاقَيْهِمَا
قَيْدَانِ قَدْ جَعَلاهُمَا
أَحْلَى وَأَعْلَى مِثْلَ أَهْلِي في الحِصَارْ[3]

---

(1) البرغوثي، كاتي شانون جينكيز، نيويوركر" الناس يكتبون الشعر بأقدامهم أحيانا"(موقع الكتروني).
(2) البرغوثي، في القدس (ص55).
(3) المرجع السابق (ص80).

إن بلورة الخيال في رسم الصورة الشعرية يوحي بعمق التجربة الشعرية التي يرفدها الخيال بألوان شتى من الأيقونات التي تُبنى عليها القصيدة، من أجل تبليغ المقاصد وتقريب المعنى لذهن المخاطب، فالخيال يمثل ينبوعاً للإبداع الذي يودعه الشاعر في ثنايا نصوص دواوينه.

إن حالة الإبداع في رسم الصورة من وحي الخيال ساعدت الشاعر على بلورة مشاعره وأحاسيسه في مضامين شعرية ترتبط بموضوع القصيدة ومضامينها التي تستعرض حدثاً أدبياً، يتعلق بالواقع المؤلم الذي يحياه الشعب الفلسطيني، لقد أسهم الخيال في تشكيل الحالة الإبداعية وضمان حيوية التجربة الشعرية عند تميم البرغوثي، فوحي الخيال المعجون بالألم من جراء الواقع المزري الذي جعل الشاعر يسبح في عوالم إبداعاته التي يتولد منها الإنتاج الأدبي الذي يعبر عن مشاعر الشاعر، وأثرى الخيال تجربة البرغوثي في تشكيل الفكرة والمضمون، واختيار الألفاظ التي من شأنها أن ترتقِ بالنص الأدبي المنجز؛ فيضفي البرغوثي بخياله الخصب الحياة على الجمادات، فيقول:

وَتَلَفَتَ التاريخُ لي مُتَبَسِّماً

أَظَنَنْتَ حقاً أنَّ عينَك سوفَ تخطئهم

وتبصرُ غيرَهم

ها هُم أمامَكَ

مَتْنُ نصّ أنتَ حاشيةٌ عليهِ وَهَامشٌ

أَحَسبتَ أَنَّ زيارةً سَتُزيحُ عن وجهِ المدينةِ يا بُنَيَّ

حجابَ واقِعِها السميكَ لكي ترى فيها هَواكْ

في القدسِ كُل فتى سواكْ

وهي الغزالةُ في المدى، حَكَمَ الزمانُ بِبَيْنِها

ما زِلتَ تَرْكُضُ إثْرَهَا مُذْ وَدّعَتْكَ بِعَيْنِهَا

رفقاً بِنَفسكَ ساعةً إني أراكَ وَهَنْتْ

في القدسِ من في القدسِ إلا أَنْتْ[1]

(1) البرغوثي، في القدس (ص4-5).

يُلاحظ أن التاريخ أضفى عليه الحياة من خلال الخيال الذي مده بالالتفات والابتسامة، ويدخل عامل البصر من أجل تقوية الخيال والبرهنة عليه، ومن ثم استلهم الكتابة والتوثيق في إيصال الصورة، كل ذلك منشأه الخيال الذي يتمتع به البرغوثي، من أجل نقل الصورة التي يريدها للمخاطبين.

ولم تكن الطبيعة بعيدة المرمى عن خيال البرغوثي الذي أخذ يوظفها من أجل إيصال الصورة الشعرية التي تعبر عن التجربة الشعرية التي أودعها في قصائده المنشورة، فكثيراً ما يستحضر الظواهر الطبيعية أو أحد مكوناتها، فخاطب بخياله الهلال وأضفى عليه الحياة؛ فيقول:

تشاركنا كلَّ ليلٍ قصيرٍ وتسهر وحدَكَ في كلِّ ليلٍ يَطُولْ

ثُمَّ أنتَ الذي نامَ بينَ المقابرِ كَيْ لا يَرَاهُ المغولُ ببغدادَ يا صاحبي

وَعُدْتَ، كما يَصِفُ ٱبْنُ الأثيرِ، تُعانِقُ من عاشَ مِن أهلِها

بعد سِتِّ أسابيعَ

كي تَتَدَبَّر أَمْرَ المعايِشِ[1]

ففتح قنوات الاتصال مع الجوامد أثرى الخيال الذي وفر للتجربة الشعرية وإبرازها مساحة واسعة من أجل الإبداع، وترجمة المحاور والمضامين التي يريد توثيقها، كل ذلك يعزز التجربة الشعرية ويسهم في إثرائها والعمل على توسيعها وخصوبتها.

ويبرهن الشاعر من خياله على تجربته الشعرية في قصائده المتداولة في منجزاته، فيقول:

أُسَمِّي كلَّ غَزْوٍ عِلَّةً كالبَرْدِ،

يأتي بُرْؤُها منها

سيرحلُ كلُّ غازٍ

أو سيصبحُ مثلَنا لُغةً ودِيناً

ثوبَ تطريزٍ، وَحُبّاً للقصيدْ[2]

---

(1) البرغوثي، مقام عراق (ص13 – 14).

(2) البرغوثي، في القدس (ص30).

إن الشاعر بخياله يصور أن كل غزوة تتعرض لها بلاد العرب والمسلمين كعلة البرد التي تصيب الإنسان، وهذه العلة طارئة تدلل على الثبات على المبادئ، والتأكيد على رحيل الغزاة المحتلين، فالإحساس بالشيء من وحي الخيال ومحاولة العمل على توثيقه وإخراجه لجمهور المخاطبين يعد من دعائم التجربة الشعرية التي تصور المشاعر والأحاسيس الجميلة التي ترتبط بمضامين يريد الشاعر إرسالها لبني البشر، فالشاعر البرغوثي يلجأ إلى تحريك الحواس من خلال خياله الخصب، فيقول:

في القدس رائحةٌ تُلَخِّصُ بابلاً والهندَ في دكانِ عطارٍ

بخانِ الزيتْ

واللهِ رائحةٌ لها لغةٌ سَتَفْهَمُها إذا أَصْغَيتْ

وتقولُ لي

إذ يطلقونَ قنابل الغاز المسيِّلِ للدموعِ عَلَيَّ:

"لا تحفل بهم"

وتفوحُ من بعدِ انحسارِ الغازِ، وَهيَ تقولُ لي:

"أرأيتْ!"[1]

يحرك الخيال الحواس في النص؛ ليزيد من حيوية النص المنجز، ويدلل على تنوع ألوان الخيال وطرقه وأدواته في التجربة الشعرية عند البرغوثي، التي تمثل في جميع أحوالها حالة شعورية أطلقها البرغوثي وترجمها للمخاطبين من خلال قصائده.

ويصرح الشاعر في توظيفه للخيال في تصوير مشاهد من آلام أبناء شعبه نتيجة الوقائع ومجريات الأحداث التي يقوم بها المحتل ضد الشعب الفلسطيني؛ فيقول:

ورأيتُ أن العرشَ أجملُ وهو خالٍ
أو هوَ العرشُ الذي فيه ملوكٌ من خيالٍ
آمِنٌ من كلَّ خيبات الأملْ
خيرُ الجمالِ هو الجمالُ المحتملْ
والنقصُ أشبهُ بالكمالِ من الكمالِ

(1) البرغوثي، في القدس (ص9).

ورُبَّ قولٍ عندما نقصَ اكتملْ

ولذا ترى أن الهلالَ له معانٍ لسنَ في بدرِ الدجى

يا صاحبَ العرشِ الخليّ المرتجى

إني أرى مَنْ مثَّلوك تمثَّلوكْ

تركوك قولاً غامضَ المعنى ولا يتأوَّلوكْ

ولكلِّ عرشٍ هيبةٌ يا صاحبي

لكنَّ أهيبهَا

هو العرشُ الخليُّ من الملوكْ[1]

وظف الشاعر الخيال في تصوير حياة أهله في فلسطين، فجمع صوراً ومعاني ودلالات موحية تشي بتآلف الخيال مع الحالة الشعورية التي يترجمها الشاعر من بنيات أفكاره وما يبلوره من رؤية للواقع الذي يحياه، فاستجلاب القيم المعنوية وتجسيدها يسهم الخيال في فاعليتها داخل العمل الأدبي.

لجأ الشاعر إلى الخيال ليسمو بروحه الشاعرة عن العذابات أو ليصور سبل الخروج من الأزمات المتراكمة في حياة أبناء الشعب الفلسطيني والعربي أو ليسبح في عالم الجمال والأناقة، هي حالة شعورية متمردة على الواقع المعاش، فيقول:

وربما قررتُ،من أجل المزاحِ فقط،

وجودَ رجالِ أمنٍ طيبينَ

يؤانسونَ الغولَ والعنقاءَ والخِلَّ الوفيّ

هذي سمائي في يديّ[2]

يذكرنا الشاعر بقراره في المزاح الذي يمثل حالة خيالية غير واقعية لهدف التنفيس عن المشاعر، والتعبير عن وجهة النظر بأسلوب السخرية والتهكم للتعبير عن الرفض، يتحدث عن عالم الخرافات والأساطير ويقرنه بالواقع وآلامه من وجود قبضة أمنية مشددة على الأحرار من أبناء الشعب العربي، يستذكر الشاعر حالة الارتقاء بالنفس والسير في مصاف عالم الأسطورة

(1) البرغوثي، في القدس(ص82-83).

(2) المرجع السابق (ص33).

الخيالي، ويدلل على أنه يسير في هذا العالم بكل أريحية متمرداً بذلك على الواقع المضني، ويقول:

هذا إذا ما كنتَ تدري، سلطةٌ عُظمى
أُغِّيرُ ما أشاءُ من الزمانِ على هوايَ
وفوقَ رأسي عالمٌ هو عالمي
وسمائيَ الدنيا التي ليست بِدُنياً
وهيَ كالعنقاءِ، خيَّم ظلُّها فوقي
ويحمي جانباها جانبيّ
وهي التي في الحقِّ تحملني[1]

جعل الشاعر الخيال عالمه الخاص، ويحاول أن يغير ما يريد من الزمان السيئ ويصنع لنفسه حياةً خاصة به، تدور في عالم واسع رحب متنوع وممتد يتسع لمزيد من المشاعر والأحاسيس والرؤى، التي تحمل نفس الشاعر لطرق الحق وتعلمه القيم الإنسانية، فيقول:

وتسعى في بلادِ اللهِ من حيٍّ لحيّ
لكنني من مخلبِ العنقاءِ في السفرِ الطويلِ
مشارفاً جهةَ الوصولِ
أقولُ يا عنقاءُ شكراً
كلَّ شيءٍ بالخيالِ منحتِنِي
وجعلتِنِي ملكاً على الدنيا بأكملِها
ولكنْ لم يزل في الصدرِ شيءٌ
فاكتبوه في الوصية
واقرأوه مرةً أخرى عليّ
يا ليت أرضاً
أيَّ أرضٍ
في يديّ[2]

(1) البرغوثي، في القدس(ص33).
(2) المرجع السابق (ص33).

لقد أجرى الشاعر حواراً مفتوحاً مع عالم الخرافات والأساطير، وهذا يجسد رحلة العذاب التي تحياها نفس الشاعر، ورحلة الأمل الذي تصبو إلى تحقيقه، لقد مزج الشاعر الخيال مع الواقع في صورة شعورية تشتمل على معانٍ تتعلق بالحياة التي يعيشها في عالمنا العربي والمحيط التي تحكم على النفس الحرة بالموت، لذلك نجده يذكر الوصية التي لا تكتب إلا عند الإحساس بدنو الأجل أو التفكير في طريق الفناء والزوال، ويتمنى لو يوجد له كيان يضمه بين جنباته مما يوحي بحالة التشتت والتشرد الجسدي والنفسي عند الشاعر، وهذا جعله يجنح إلى عالم الخيال؛ لتحقيق مآرب النفس وإشباع رغباتها في ظل وجود القمع وأدواته على أرض الواقع.

ويسبح البرغوثي في عالم الخيال يعبر عن عوالمه الشاعرة الكامنة في ذاته المبدعة، فيصور بخياله الرحب تصوير الأشياء من عمق مشاعره الجياشة وأحاسيسه اللطيفة، فيقول:

يَطِيـــرُ حَمَـــامُ بَيْـــتِ اللهِ نَحْـــوِي لأَرْوِيَ عَنْـــــهُ أَشْـــــعَاراً وَيَـــــرْوِي

يُرِيـــدُ بمـــا بِـــهِ تَخْفِيـــفَ مـــا بـــي فَيُرجِعُنـــي كِـــلا الشَّـــجْوَيْنِ شَـــجْوِي

وَظَنَّـــــي مـــــا يَحُـــــجُّ الطَّيْـــــرُ إلا لِجَمْـــعِ الشِّـــعْرِ مِـــنْ حَضَـــرٍ وَبَـــدْوِ

ولـــولا الشِّـــعْرُ مِـــنْ عَـــرَبٍ أَحَبُّـــوا إِذَنْ خُلِـــقَ الحمـــامُ بِـــدُونِ شَـــدْو[1]

لقد صور البرغوثي بخياله الفسيح حمام الحرم، وما ترمز إليه الحمامة من حرية في الحركة، واستحضر في صورته الشاعرة حال العرب في قول الشعر ونظمه، فالخيال يستقطب صور متعددة عند البرغوثي من أجل تكوين المعنى الشعري وإيصاله للمخاطبين، وذلك يسهم في فاعلية التجربة الشعرية، ويجعل الخيال أحد ركائزها الداعمة لها.

(1) البرغوثي، في القدس (ص162).

المبحث السادس: بوتقة الذات

إن فهم البرغوثي لذاته وقدرته على التعبير عن مشاعره وأحاسيسه، أسهم في بلورة التجربة الشعرية التي ينوي إيصالها لجمهور المخاطبين، فتعرض لمواقف حياتية مختلفة أذكت فيه الروح الشاعرة وأرفدت خبرته الشعرية بأحداث مختلفة، فنُفي والده مريد البرغوثي من مصر إلى المجر، فكان يذهب تميم من مصر لزيارة والده، فيقول:" بودابست مدينة جميلة، بها الكثير من الحلوى، إنها جنة حقيقية بالنسبة لطفل"[1]، فالتمتع بما في "بودابست" من ظواهر طبيعية ومؤثرات لطيفة مختلفة، نمّت المشاعر عند البرغوثي من خلال تذوق الجمال والتمتع بالمناظر الخلابة التي تخاطب الحس والشعور.

ولم يكن بمعزل عمّا يمارسه والده الأديب مريد البرغوثي، وما يتسلح به هذا الطفل من ثقافة تفاعلية لها تأثيراتها في بناء قدرته على الكلام ونظم الشعر، مما أضاف نقلة نوعية لتجربته الشعرية فيقول: "في ذلك الوقت، كانت أفلام الكرتون بالعربية الفصحى كذلك، وباعتباري طفلًا، فقد كنت أجد نفسي مشاهدًا لذلك النوع من الأفلام الذي يحارب فيه الأبطال الفضائيين ويدافعون عن كوكب الأرض، وبالتالي فقد كانت لغة أبي هي نفس لغة أبطالي المفضلين"، ويستطرد: "أتذكر حين بلغت الرابعة أو الخامسة، ظننت أنه سيكون بمقدوري الطيران كالأبطال إذا تمكنت من الحديث بالفصحى، لقد بدأت أفكر في الكتابة كمصدر للقوة، كضرب من ضروب الدفاع عن الذات"[2]، إن حالة المغامرة والأحلام التي عايشها البرغوثي وراودته منذ الصغر، جعلته يدور في فضاءات إبداعية واسعة لها آثارها في تجربته الشعرية، فيُلاحظ ذلك من خلال القصائد التي قدمها لجمهوره، فالقصيدة الواحدة تحوي على أحداث أدبية متنوعة، وردت بصور وأساليب مختلفة، توحي بعمق الخيال الذي يمتلكه البرغوثي.

وأسهمت البيئة التي يحيا فيها البرغوثي بدور بارز في صقل شخصيته والمساهمة في توسيع خياله من خلال السير في عوالم متنوعة ومختلفة الثقافات والسلوكيات، فأثبت البرغوثي ذاته وحقق ما يريده من خلال تذوق الأشياء ومحاكمة سلوكيات النفس من خلال القيم التي يؤمن بها في شخصيته الثقافية، فيقول:" يظل أبي يكتب طوال العام، وخلال فصل الصيف، وينتظر أمي لتأتي ويقرأ عليها ما كتب من الشعر، أكون أنا هنالك، أراه يكتب بالعربية الفصحى، ثمة شيء غريب في هذا النوع من الحديث، ليس هذا هو الحديث الذي نستخدمه في

---

(1) البرغوثي،كاتي شانون جينكيز ،نيويوركر" الناس يكتبون الشعر بأقدامهم أحيانا"(موقع الكتروني).

(2) المرجع السابق (موقع الكتروني).

حياتنا اليومية، حروف المد هنا أكثر، وبالتالي فإن الموسيقى هنا أكثر"[1]، إن الخيال والموسيقى يرتبطان ارتباطاً وثيقاً في العمل الأدبي المنجز، الذي يبرز ملامح الذات الشاعرة.

تنطلق زفرات الألم وقسوة العذابات التي تجيش بها نفس الشاعر؛ لتكون ملهمة لإبداعه وينبوع شاعريته المتدفقة، هذه الذات المسحوقة أمام الآهات والأنات، ترسم صورة فنية تراجيدية، فالتعبير عن الأحزان والمآسي التي ألمت بحياة البرغوثي من الواقع المزري، الذي شحن تجربته الشعرية بموضوعات ومحاور شعورية، فيقول:

أنـــا عَـــالِمٌ بـــالحُزْنِ مُنْـــذُ طُفُـــولَتي ... رَفِيقِـــي فَمـــا أُخْطِيـــهِ حِـــينَ أُقَابِلُـــهْ

وإنَّ لَـــــهُ كَفًّـــــاً إذا مـــــا أرَاحَهـــــا ... عَلَـــى جَبَـــلٍ مـــا قـــامَ بـــالكَفِّ كَاهِلُـــهْ

يُقَلِّبُنـــــي رَأْسَـــــاً علَـــــىَ عَقِـــبٍ بهـــا ... كَمَـــا أمْسَـــكَتْ سَـــاقَ الوَلِيـــدِ قَوَابِلُـــهْ

وَيَحْمِلُنـــــي كَالنِّسْـــــرِ يحمِـــــلُ صَـــــيْدَه ... وَيَعْلـــو بِـــهِ فَـــوْقَ السَّـــحَابِ يُطَاوِلُـــهْ

فَـــإنْ فَـــرَّ مِـــنْ مخلابِـــهِ طـــاحَ هالكـــاً ... وإنْ ظَـــلَّ فـــي مخلابِـــهِ فَهُـــوَ آكِلُـــهْ[2]

إن الأحوال المأساوية هزت مشاعر البرغوثي وجعلته يخط كلماته الشاعرة من أعماق قلبه ومن مشاعره وأحاسيسه الحزينة التي تعرض لها في حياة بعيدة عن الوطن الذي يسكن في مخيلته وعقله، لقد توحدت مشاعر الشاعر في إجراء حوار مع الواقع الذي يسود فيه الظلم، ويعلو أنصاره، مما يرفد التجربة الشعرية بالكثير من الآراء والاتجاهات والمشاعر والأحاسيس التي من شأنها أن تثري التجربة الشعرية عند البرغوثي من خلال بث أحداث الواقع وتفصيلاته في ثنايا إبداعاته، ومجريات الأحداث هزت مشاعر الشعراء الأحرار؛ فيقول: "في فلسطين، يقف طفل صغير في مواجهة دبابة إسرائيلية، فارس عودة، ذو الـ14 ربيعًا، يفقد حياته، هذا التصرف الشجاع هو الشعر حقًا، أنا لم أفعل شيئًا، أنا فقط قرأت القصيدة التي خطها أسفل قدميه"[3]، بمعنى أن الشعر يترجم أحداث الواقع ومتقلباته، ويتحدث عن البسالة والشجاعة التي مدت تجربته الشعرية بعوامل القوة والثبات؛ فيقول: "إذا كان لديك مليون إنسان في الشارع يواجهون

(1) البرغوثي،كاتي شانون جينكيز ،نيويوركر" الناس يكتبون الشعر بأقدامهم أحيانا"(موقع الكتروني).

(2) البرغوثي، في القدس (ص140).

(3) البرغوثي،كاتي شانون جينكيز ،نيويوركر" الناس يكتبون الشعر بأقدامهم أحيانا"(موقع الكتروني).

ألف دبابة، فإن البشر، وإن كانوا عزّلًا، سيهزمون الدبابات"[1]، تلك العزيمة التي تدفع الكلمات الشعورية وتترجمها في نصوص القصائد التي أنجزها البرغوثي في دواوينه الشعرية.

ولم تفلح أداة القمع في السلطات الحاكمة في قتل روح الإبداع وإثبات الذات عند البرغوثي صاحب التجربة الشعرية، فيقول: "كيف سيمنعون المصريين من قراءة "ماكبث"؟ كيف بإمكانهم أن يسجنوا ويليام شكسبير أو المتنبي؟"[2]، فالبرغوثي أثبت أن رسالته الشعرية ستصل جمهور المخاطبين، وستطير شهرتها في الآفاق، فمهما تجبر الطغاة، لا بد للكلمة الحرة صاحبة التجربة الشعرية أن تصل لمبتغاها، فعبر عن ذاته الحرة في مدح الثورة وأهلها، وتغنى بأمجاد المقاومة في غزة، فيقول:

لَـوْ صَـادَفَ الجَمْـعُ الجَـيْشَ يَقْصِـدُهُ ... فإنَّـــهُ نَحْـــوَ الجَـــيْشِ يَنْـــدَفِعُ

فَيَرْجِـــعُ الجُنْـــدُ خُطْـــوَتَيْنِ فَقَـــطْ ... وَلَكِـــنِ القَصْـــدُ أَنَهُـــمْ رَجِعُـــوا

أَرْضٌ أُعِيـــــدَتْ وَلَـــــوْ لِثَانِيَـــــةٍ ... وَالقَـــوْمُ عُـــزْلٌ والجَـــيْشُ مُـــدَّرِعُ

وَيُصْـــبِحُ الغـــازُ فَـــوْقَهُم قِطَعـــاً ... أَوِ السَّـــما خَلْفَـــهُ هِـــيَ القِطَـــعُ

فُتْطَلُـــب الـــرِّيحُ وَهـــيَ نَـــادِرَةٌ ... لَيْسَـــتْ بِمَـــاءٍ لَكِنَّهـــا جُـــرَعُ

ثُـــمَّ تَـــرَاهُمْ مِـــنْ تَحْتِـــهِ انْتَشَـــرُوا ... كَزِنْبَـــقٍ فِـــي الـــدَّخَانِ يَلْتَمِـــعُ

لِكَـــيْ يُضِـــلُّوا الرصـــاصَ بَيْنَهُمـــو ... تَكَـــادُ مِنْـــهُ السُّـــقُوفُ تَنْخَلِـــعُ

حَتَّـــى تجلّـــت عَـــنْهُم وَأَوْجُهُهُـــمْ ... زُهْـــرٌ وَوَجْـــهُ الزَّمَـــانِ مُمْتَقِـــعُ

كَـــأَنَّ شَمْســـاً أَعْطَـــتْ لَهُـــمْ عِـــدَةً ... أَنْ يَطْلُـــعَ الصُّـــبْحُ حَيْثُمَـــا طَلَعُـــوا[3]

يفتخر الشاعر بالمقاومة التي تدافع عن المظلومين والتي تحاول جاهدة أن تسقط المحتل عن هذه الأرض الطاهرة، تلك المقاومة التي تذكي النفس الشاعرة، وتعزز ثبات الذات أمام المحن والابتلاءات التي تبين معادن النفوس، فالتعبير عن الذات وتلبية احتياجاتها تسهم في إثراء التجربة الشعرية والارتقاء بها.

---

(1) البرغوثي، كاتي شانون جينكيز، نيويوركر" الناس يكتبون الشعر بأقدامهم أحيانا"(موقع الكتروني).

(2) المرجع السابق (موقع الكتروني).

(3) البرغوثي، في القدس (ص66).

يقوي الشاعر عزائم أمته ويشد من أزرها في مواجهة الظلم والطغيان، ويرسم بذاته المشرقة الأمل في صور رافضة تتجاوز آلام الواقع؛ لتصنع الذات الحرة الأبية التي تنازل المحتل الغاصب وتقارعه، ويلاحظ أن الحس القومي يسهم في بوتقة الذات ورسم الشخصية الأصيلة التي تتحلى بصفات الأحرار الأبرار، فيقول:

يا أمتي أدري بأنَّ المرءَ قد يخشى المهالك

لكن أُذَكرُكُم فقط فتذَكَّروا

قد كان هذا كلُّهُ من قبلُ واجتزنا به

لا شيءَ من هذا يخيفُ ولا مفاجأةٌ هنالك

يا أمتي ارتبِكي قليلاً، إنهُ أمرٌ طبيعيٌّ

وقومي

إنه أمرٌ طبيعيٌّ كذلك[1]

يقوي من إرادة أمته وعزيمتها حاثا إياها على النهوض ونفض غبار الذل والمهانة، فمع الثورة تكون الحياة، ويذكر أمته أن بعد العثرة لا بد أن يكون هناك نهوضاً وقياماً يسهم في التحرر والارتقاء والتقدم، تلك رؤية الذات الحرة التي رسمها الشاعر في تجربته الشعرية.

يبين الشاعر حالة التمرد والمواجهة في سبيل الدفاع عن النفس، وإثبات الذات، ومواجهة الغزاة المحتلين بعقيدة الحياة التي لا تخشى الموت، لقد ابتدع أهل فلسطين لنفسهم طرق الخلود والبقاء في ميادين الشهادة وساحات النزال، إنها صراع الذات والوجود مع المحتل الغاصب، فيقول:

يُبـــدونَ للمـــوتِ أنـــه عبـــثٌ	**حتـــى لقـــد كـــادَ المـــوتُ ينخـــدعُ**
يقـــولُ للقـــومِ وهـــو معتـــذرٌ	**مـــا بِيَـــدِي مـــا آتِـــى ومـــا أدعُ**
يظـــلُّ مســـتغفراً كـــذي وَرَعٍ	**ولـــم يكـــن مـــن صـــفاتِهِ الـــورعُ**
لـــو كـــانَ للمـــوتِ أمُـــرُه لَغَـــدَتْ	**علـــى سِـــوَاكُم طيـــورُهُ تقـــعُ**
أعـــداؤنا خـــوفُهمْ لهـــم مـــددٌ	**لـــو لـــمْ يَخـــافُوا الأقـــوامَ لانقطَعُـــوا**

(1) البرغوثي، في القدس(ص59).

وخـــــوفهمْ ديـــــنهمْ وديـــــدَنُهُم عليـــه مـــن قَبـــلِ يُولَـــدوا طُبِعُـــوا

قُـــل للعِـــدى بعـــدَ كـــلِّ معركـــةٍ جنـــودُكمْ بالســـلاحِ مـــا صـــنَعُوا

لقَـــدْ عَرَفنـــا الغـــزاةَ قبْلَكُمُـــو ونُشْـــهِدُ اللهَ فـــيكمُ البِـــدَعُ[1]

ثم يبين بأن الموت لم يعد يخيف هؤلاء الشجعان، وكأن الموت ضرب من العبث لا يخافونه، بينما المحتل المخادع هو من يخاف الموت، وهذه عادتهم وطبعهم الذي جبلوا عليه حيث لا تنفعهم أسلحتهم وقوتهم، فالتضحية بالنفسِ هي بداية الخلود للذات الحرة، التي لا تؤمن ببقاء الظلم وأعوانه وتسعى جاهدةً لاجتثاثه بشتى الوسائل والطرق، فالتعبير عن القيم الإنسانية يُعد من ركائز بناء الذات في التجربة الشعرية، ويكسبُ الشاعر مزيداً من الدعائم التي تشجعه على البذل والعطاء.

إن التجربةَ الشعريةَ عند البرغوثي جسَّدَت مشاعره وأحاسيسه وبيَّنَت صورَتُه الذاتية، فأثَّرَ البرغوثي في غيره، لأن قوامَ التجربة الشعرية يُبنى على درجة انفعال الشاعر مع الحدث والموضوع، وانطلاقه من خلاله إلى عوالمَ جديدة، يُلتقط منها صوراً موحية مؤثرة، وإنما كانت موحيةً ومؤثرةً؛ لأنها تضرب بجذورها في الحس والشعور "وتكون قادرةً قدرةً ذاتية على أن تتحول عند القارئ أو السامع إلى تجربةٍ شعوريةٍ بنفس درجة تأثيرها السابق على الشاعر، وبنفس درجة وضوحها عنده"[2]، وينطلق تجسيد الذات والوعي الكامل بكينونتها عندما تحدَّث عن حياةِ الأمة وما تتعرض له في سبيل الانتصار على الظلم وأعوانه.

هذه الزفرات تدلل على صمود الذات وكينونتها أمام حملات التذويب والصهر في بوتقة الغزوات متعددة الأوجه والحملات التي يشنها الطغاة الظالمين، ومن هنا تبدأ معركة الوعي في إثبات الذات وقوَّتِها أمام الهجمات الشرسة، تلك الذات المجبولة على الثباتِ على طريق الحق، ومجابهة الظلم والطغيان والعدوان الذي تتعرض له الذات البشرية ومنظومتها القيمية، فإثبات الذات من المقومات الرئيسة التي أرفدت التجربة الشعرية عند البرغوثي؛ لأن الأدب ينطلق من رؤية الأديب لحياة الأمة أو الشعب الذي يعيش فيه ويحمل أفكاره وقيمه وعاداته وثقافته.

---

(1) البرغوثي، في القدس (ص67-68).

(2) قلقيلة، التجربة الشعرية عند ابن المقرب (ص71).

إن صراع الذات الوطنية مع الذوات البشرية الأخرى، يجسد ملهماً رئيساً للتجربة الشعرية التي يؤمن بها الشاعر ويحاول إيصال رسائلها من خلال إنجاز القصائد والأعمال الأدبية، فيقول:

في القدس، رغمَ تتابعِ النَّكَباتِ،

ريحُ براءةٍ في الجوّ، ريحُ طُفُولَةٍ،

فَتَرى الحمامَ يَطِيرُ

يُعلِنُ دَوْلَةً في الريحِ بَيْنَ رَصَاصَتَيْن[1]

يمثل الشاعر حالة الصراع التي تحياها الذات في مدينة القدس الشريف، تلك المدينة التي تمثل رمزاً مقدساً لذات الإنسان العربي والمسلم، تلك المدينة التي تعبر عن الوجهة الحقيقية لطبيعة الصراع وأساسياته حول الوجود والعدم في إثبات الذات، بمعنى أن الشاعر يحاول بلورة موقفه من الركائز والمشكلات التي بُنيت عليها شخصيته، فبوتقة الذات أسهمت في تدعيم التجربة الشعرية عند البرغوثي، من خلال استعراض القضايا والمضامين والأبعاد التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بطبيعة الذات المبدعة ورؤيتها الثاقبة.

يصف الشاعر الذاكرة الجمعية لأهله والحالة النفسية التي يمر بها أبناء شعبه، وتحملهم للآلام والأوجاع، فكم من مواقفَ زلزلت ذواتهم وشجعتهم على الصمود والثبات أمام توالي المحن والنكبات، فيقول:

صعبٌ على الشعراءِ مدحُ الصبرِ في بلَدي

فأهلي صابرونَ على الزمانِ كأمِّهِ

لكنَّنِي، وأنا أقلُّ الناسِ صبْراً

سوفَ أمدَحُهُ

وأمدَحُ الانتظارَ على مرارةِ طعمِهِ[2]

يعبر الشاعر عن حالة الصمود النفسي والتمرد على فِعال الأشرار، فالذات المبدعة تعبر عن آمالها وتطلعاتها في ظل تشابك الأحداث المأساوية وارتفاع وتيرتها، فمهما تعددت مشارب

(1) البرغوثي، في القدس(ص10).

(2) المرجع السابق (ص85).

الآهات والآلام لا بد لانتصار الذات المبدعة في جولاتها مع الظلم والطغيان، فالمبدع يحتفظ في نفسه بمزيد من القيم والأخلاق السامية، فيقول:

مَن كان ذا حُلمٍ وطالَ به المدى
فَلْيَحْمِهِ
وَلْيَحْمِ أيضاً نفسَهُ
مِنْ حُلْمِهِ
فَالحُلمُ يَكْبُر أدْهُراً
في يومِهِ
ويزيدُ دَيْنُ الدَّهرِ حتّى يستحيلْ
فترى ابنَ آدمَ
راضياً منْ أيّ شيءٍ بالقليلْ
لا تقبَلُوا بالقُبحِ يا أهلي مكافأةً
على الصبرِ الجميلْ
فالصبرُ طولَ العمرِ خيرٌ
منْ خلاصٍ كاذبٍ
ما فيهِ منْ صفةِ الخلاصِ سوى اسْمِهِ[1]

يتحدث الشاعر عن آمال الذات المقهورة التي تتبدل أمامها الأهواءُ والأنواءُ، تجامل نفسها وتصمد في حالةٍ من الكبرياء بالرغم من مرارة الواقع وقسوة الحياة وانتشار الألم واستشرائه بين أبناء شعبه، فبثُّ كوامنُ الذاتِ ولواعجُ النفسِ، من الركائز التي أخذت حيزاً واسعاً في تجربة البرغوثي، التي عايشت الويلات بعيداً عن وطنه، وامتزجت التجربة الشعرية بمنبت الذات وموطنها، تلك الأرض التي طالما تغنى بها الشعراء، كل ذلك ينطلق من الذات المخلصة التي تنتمي لتراب الوطن وتذود عن حياضه، فيقول البرغوثي:

يَا أُمَّةً في الغارِ
مَا حَتْمٌ عَلَيْنَا أَنْ نُحِبَّ ظَلامَهُ
إِنّي رَأَيْتُ الصُّبْحَ يَلْبِسُ زَيَّ أَطْفَالِ المَدَارِسِ

(1) البرغوثي، في القدس (ص85-86).

حَامِلاً أَقْلامَهُ

وَيَدُورُ ما بينَ الشَّوارِعِ

بَاحِثاً عَنْ شَاعِرٍ يُلْقِي إِلَيْهِ كَلامَهُ

لِيُذِيعَهُ للكَوْنِ في أُفُقٍ تَلَوَّنَ بِالنَّدَاوَةِ واللَّهَبْ

يَا أُمَّتِي يَا ظَبْيَةً في الغَارِ قُومِي وَانْظُرِي

الصُّبْحُ تِلْمِيذٌ لأَشْعَارِ العَرَبْ[1]

إن الوعي بحب الوطن يُمَثل الذات التي تحتفظ بالمقومات التي تبني شخصية المبدع، مما يعزز قيمَ الانتماء عند المبدع، ويعمل على رفع درجة الصدق الفني في نقل المشاعر والأحاسيس التي تشتمل عليها القصائد عند البرغوثي.

يعبر الشاعر عن ذاته المسحوقة في صلب أشعاره، ويثبت وجوده على مستوى كلماته وعباراته، يحاول أن يبين للعالم أنه هنا إنسان موجود رغم المآسي والآهات، هنا حياة من بين ركام الموت ما زالت تتواصل من أجل بناء الوطن والتمتع بالقيم التي يتحلى بها العالم الإنساني رغم تحالف قوى الشر والاستكبار على مقدرات الشعوب، فيقول:

أنا لي سماءٌ كالسماءِ صغيرةٌ زرقاءُ

أحمِلُها على رأسِي

وأسْعَى في بلادِ اللهِ من حيٍّ لِحيْ

هذي سمائِي في يَدَيّ

فيها الذي تَدْرونَ منْ صفةِ السماءْ

فيها علوٌّ وانكفاءْ[2]

إن صناعة الحياة لم تكن شيئاً اعتيادياً سهلاً، إنها حالة العصيان أمام جبروت أهل الظلم والفجار، تلك الحياة التي جنح إليها الشاعر بثقلِه ليعبر عن ذاته ويرسم خُطى شخصيته المبدعة التي أرفدت الفن بمزيدٍ من التعابير الفنية والأدبية ذات المعاني المتنوعة.

---

(1) البرغوثي، في القدس (ص57).

(2) المرجع السابق (ص24).

إن الارتباط بالأهل والوطن من ركائز بناء الذات في ظل توالي المتغيرات التي تؤثر على نفسية الشاعر، نظراً لما تحمله من وقائع وأحداث لها علاقة بالوطن السليب ومعاناة أبناء شعبه، فيقول:

محبتُكم أيها الأهلُ طيرٌ يحطُّ على كتفِي

هَكَذا كالهديةِ من لا مكانْ

يبارِكُني وأراقبُ نفسِي لكيلا يخاف

أريدُ له أنْ يظلَّ هُناك

فقدْ عَلِمَ اللهُ كمْ طارَ حتى أتانِي

وكم في الطريقِ نجا منْ هلاكْ

رعى اللهُ مُستأمِناً ليس يدري إلى أيِّ حدٍّ

إذا زارَ يُهدِي إليَّ الأمانْ[1]

إن الحالة التي يعاني منها الشاعر جعلته ينظم في محاور ذات منشأ نفسي عميق ينهل من خلاله من وحي المعاناة وآهاتها، فيقول:

وإنَّ الحياةَ الطبيعيةَ اليومَ أمرٌ عظيمْ

وإنَّ حياتِي لّتُشْعِرُنِي أنَّنِي مذنبٌ في الصباحِ

وتُشْعِرُنِي أنَّني بطلٌ في المساءِ

فقدْ مَرَّ يومِي

كمجموعةٍ كُلِّفَتْ باغتيالِي ولم تَرَنِي،

مرَّ وَقْعُ خُطَاهُم على شارعٍ، لحظةً،

وانْحَسَرْ

أهنِّئُ نَفْسِي[2]

---

(1) البرغوثي، في القدس (ص171).

(2) المرجع السابق (ص172).

يُلاحَظ أن الشاعر يُعبر عن الحالة الشعورية التي تجتاح ذاته، من الهموم والأحزان التي تلاحقه وتقض مضجعه، وتستمر معاناته وعذابات ذاته في أشعاره، فيقول:

فقد مرَّ يومِي وما زِلتُ بعضَ البَشَرْ

يُقَاتِلُنا الدَّهرُ عَنْ صِحَّةِ الرُّوحِ فِينا

ويَدْفَعُنَا للفسادِ

وللحُبِّ في زَمَنِي

صِفَةٌ مِن صِفَاتِ الجهادْ[1]

إن حالة الجدل مع الذات في عوالم الفضيلة والرذيلة يُحَتِّمُ على الشاعر أن يكون واعياً في التعبير عن مجريات الأحداث ومستجدات الوقائع أمام توالي المتغيرات التي ترفد تجربته الشعرية بمزيدٍ من المضامين والتعبيرات.

يمثل الشاعر حالة التمرد والعصيان الأزلي أمام جبروت الحياة وقسوتها، ولعل تنوع أسلوبه الشعري يشي بذلك في إيصال رسائله التي تُمثل رؤيةً لواقعِ الحياة ولصورةِ الذات، فيقول:

فيا أُمَّةً لِلهوَى والعِنَادْ
لكم منِّيّ الشُّكرُ ألْفاً
وشُكري لكمْ أنْ أظَلَّ كَمَا كنتُ
حتَّى أموتَ بقلبٍ سليمْ
وأَنِّي أُجيبُ إذا سَألُوني
قُبَيْلَ مُلاقاةِ ربِّ رَحيمْ
وعيناىَ في أعينِ القومِ يا إخوتِي
واثِقاً، راضِياً لا أغضُّ البصر:
"أَنَا ابنُ مريدٍ ورَضْوَى
بِلادي فِلَسطينُ
واسْمِي تميمُ"[2]

(1) البرغوثي، في القدس (ص172).
(2) المرجع السابق (ص173).

إن حالة السُحق التي يحياها الإنسان الفلسطيني جعلت الشاعر يُعبر عن شيءٍ من ذلك في مخاطبته لأمته التي تُعَد سنداً له عند الملمات، ولو على صعيد الاعتزاز والافتخار أمام التقلبات التي تقهر الإبداع وتسحق الذات، فالشاعر يعترف بكل بساطةٍ بنسبِه وأصلِه أمامالجمهور، ويثبت ذاته بكل صراحة مباشرة.

يثبت الشاعر نفسه بحسه القومي والتاريخي معتمداً على مخاطبة أبناء الأمة والناس أجمعين، يبين قِيَمَه ومبادئه السامية التي يُؤمن بها، فلا ضير أن يُعَبِّر عن ذاتِه من منطلق القوة والثبات أمام موجات الاجتثاث من الظالمين الطاغين وأعوانهم ومن حَطَّ رَكْبَهُ في رِحالهم؛ فيقول:

أيهـــا النـــاسُ أنـــتمُ الأمـــراءُ ... بكـــمُ الأرضُ والســـماءُ ســـواءُ

يـــا نُجومـــاً تمشـــي علـــى قـــدميها ... كلمـــا أظلـــمَ الزمـــان أضَـــاؤوا

قـــد عـــلا فـــي كـــلِّ الأمـــاكنِ صَـــوتِي ... مـــا بِـــيَ المـــالُ لا ولا الأســـماءُ

بُغْيَتِـــي أمـــرُكُمْ يُـــرَدُّ إلـــيكُمْ ... فلكـــمْ فيـــهِ بيعـــةٌ وبَـــرَاءُ

لا يَكُـــنْ بيـــنَكُم وبـــينَ هـــواكُمْ ... عنـــدَ إبـــرامِ أمـــرِكُم وُكَـــلَاءُ

ثـــمَّ إنِّـــي أحكـــي حِكايـــةَ قـــومٍ ... لغـــةُ اللهِ خُبْـــزُهُم والمـــاءُ

وَخُطَـــاهُم فـــي الأرضِ تَسْـــطُرُ شِـــعْراً ... هَذَّبَتْـــهُ السَّـــرَّاءُ والضَّـــرَّاءُ

فـــإذا مـــا قُلنـــا القصـــيدَ فإنَّـــا ... للـــذي يَكْتُبونَـــه قُـــرَّاءُ

وإذا مـــا سُـــئِلْتُ مـــنْ شـــاعرُ القـــومِ ... غَـــداً، قلـــتُ أنـــتمُ الشـــعراءُ

وأرى أبْلَـــغَ القصـــائدِ طُـــراً ... أنَّنَـــا فـــي زَمَانِنَـــا أحيـــاءُ[1]

يبعث الشاعر رسالةً بصوته الحي يُنْظُمُ درر القصائد ليبلغ معاناة بني شعبه، فالشعر لم يكن عبثياً عند البرغوثي إنما وحيه الذي يتسربل من خلاله ليعبر عن ذاته ويمثل الشعور الجمعي لأبناء شعبه وأمته، ويتحدث الشاعر عن الألم الجاثمِ على صدور الأحرار، يبين لحظات موت الذات وفنائها، فيقول:

(1) البرغوثي، في القدس (ص169).

إذا أقْصَـــدَ المـــوتُ القتيـــلَ فإنَّـــهُ كـذلكَ مـا ينجـو مِـنَ المـوتِ قاتِلُـهْ

فـنحنُ ذنـوبُ المـوتِ وهـي كثيـرةٌ وهُـمْ حَسَـناتُ المـوتِ حـينَ تُسَـائِلُه

يقـومُ بِهـا يـومَ الحسـابِ مُـدَافِعاً يَـرُدُّ بهـا ذَمَّامَـه ويُجَادِلُـه

ولكـنَّ قَتْلَـى فـي بـلادِي كريمـةً سَـتُبْقِيهِ مفقـودَ الجـوابِ يُحَاوِلُـه

تـرى الطِّفْـلَ مِـنْ تحـتِ الجـدارِ مُنَادِيـاً أبـي لا تخـفْ والمـوتُ يَهْطُـلُ وابِلُـه

ووالِـدُهُ رُعْبـاً يُشِـيرُ بِكَفِّـه وتعجـزُ عـنْ رَدِّ الرَّصـاصِ أنامِلُـه

أرى ابـنَ جمـالٍ لـمْ يُفِـدْهُ جَمَالُـهُ ومنـذُ متـى تَحْمِـي القتيـلَ شـمائِلُه

علـى نشـرةِ الأخبـارِ فـي كـلِّ ليلـةٍ نـرى موتنَـا تعلـو وتَهْـوِي مَعَاوِلُـه

أرى المـوتَ لا يرضَـى سِـوانا فريسـةً كأنَّـا لَعَمْـرِي أهلُـه وقبائِلُـه

لنـا يَنْسُـجُ الأكفـانَ فـي كـلِّ ليلـةٍ لخمسـينَ عامـاً مـا تَكِـلُّ مغَازِلُـه[1]

يبين الشاعر موت الذات وذهابها كضحيةٍ رخيصةٍ يسحقها الأشرار من الغزاة الطامعين، فتنعدم سبل حياة النفس وتذهب الذات في ظِل توالي المحن والضربات القاصمة من جراء حماقات المستعمرين وأعوانهم، ويعبر الشاعر عن ذاته الحُرَّة التي تحمل قِيماً ومعاني ودلالاتٍ إنسانية في ظل تضارب الحياة ومجرياتها، فيقول:

أنا الليلُ حينَ يخالفُ فِطْرَتَهُ ويُضِيءُ

أنا الاحتمالُ الضئيلْ

أقولُ لكم إنَّ شمساً، وإن فارَقَتْ، ما تَزَالُ هُنا

في زوايا السماءِ

ووجهي عليها الدَّليلْ

أنا الاحتمالُ الخفيفُ الثقيلْ

أنا كُلَّما أضعَفَ الله ضوئي طالَبْتُكم أن تَرَوْنِيَ أكثَرَ

هاتوا مناظيرَكُم واستعِدُّوا

---

(1) البرغوثي، في القدس (ص141).

أنا الأمَلُ المستَغِلُّ الذي دائماً يطلبُ المستحيلُ

يُوقِنُ الراصدونَ بأن لا صَبَاحَ سَيَطْلُعُ مِنِّي

لأني ضعيفٌ نحيفٌ هزيلْ[1]

يعبر البرغوثي عن ذاته ويصف مشاعره وأحاسيسه التي يجيش بها قلبه، وما يدور في عقله ومخيلته، فهو يعبر عن الشعور بالسعادة والأمل والحزن والألم، ثنائيات الذات الشاعرة الثائرة في بيئة الصراع التي تكون حُبلى بالتناقضات، ويصور حالة ضعف الأمة التي خارت عزائمها وفترت هممها في ظل تكالب قوى الشر، كل ذلك شَكَّلَ هَزَّاتٍ نفسية لذات البرغوثي عبر عنها من خلال تجربته الشعرية التي أودع فيها كثيراً من انطباعاته النفسية وآماله التي يصبو إليها بأساليب فنية متنوعة.

(1) البرغوثي، مقام عراق (ص16–17).

الفصل الثاني

أنواع التناص

الفصل الثاني

أنواع التناص

المبحث الأول: التناص الخارجي

يتمثل التناص الخارجي بمجموعةٍ من الأصولِ التي وظّفَها الشاعرِ البرغوثي، وتمثل ثقافته في نظم القصائد الشعرية التي جاءت زاخرةً بألوانٍ شتَّى من التناص، وأبرز ما يواجهنا في التناص الخارجي الذي اقتبس منه الشاعر في نصوص قصائده، ما يلي:

1-القرآن الكريم

يعد الدين في عرفنا نحن –المسلمين– أساس الحياة، وهو أول ما ننظر إليه في بحثنا عن التناص الديني، حيث يمثل لنا القرآن غاية الفصاحة والبلاغة دون اعوجاج أو اختلاف، فنهل منه الأدباء ووظفوا نصوصه في قصائدهم وأدبهم، ليزداد إبداعهم بريقا إلي بريق، كما أنه يفتح الباب واسعا أمام التأويلات المتعددة، والتفسيرات المختلفة، ويعتبر وسيلة لرقي الشعر وتطوره، ولا يقتصر ذلك عندنا على البحث في القرآن الكريم وحده، بل ورد التناص عن سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد استطاع تميم في شعره استلهام النصوص الأدبية التي تتلاءم مع القضية الرئيسة التي يتحدث عنها في شعره ألا وهي الوطن والأرض المقدسة، أرض الأنبياء ومسرى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وهو ما أشار إليه القرآن من الحديث عن بني إسرائيل والأرض المقدسة، حيث جاءت هذه التناصات متوافقة مع تعاليم الدين وأحكامه: "إن الجودة الفنية للأبيات لا تكفي ... وإنما لا بد من أن يكون مضمونها منسجماً مع تعاليم الدين".[1]

حاولت في هذه الدراسة بيان أوجه التناص من القرآن الكريم، ثم التناص مع السنة النبوية الشريفة، ثم باقي الكتب كالإنجيل والتوراة.

- **أولا: التناص مع الآيات القرآنية:**

وظف البرغوثي الآيات القرآنية في صلب قصائده، وتجلت الآيات في سياقات أدبية مختلفة، أثرت بصورة أو بأخرى على المعاني المقدمة في القصائد التي أبدعها البرغوثي بقريحته الشعرية، فنراه يقول في قصيدته (الجليل) والتي تتحدث عن مرج ابن عامر وكأنه فنان يرسم لنا بريشته منظراً في قمة الجمال والروعة من وصفٍ للسهول والجبال، فنراه يقول:

---

(1) كيليطو، أبو العلاء المعري أو متاهات القول (ص 24)

جليل هو النص ينذر أعداءنا بالزوال

وسوء الوجوه ويعلمنا أننا

سنجوس خلال الديار[1]

يتضح من السابق بأن الشاعر قد ضمن شعره معنى الآية الكريمة: { **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَاعَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولا** }[2]، حيث جاءت الآية الكريمة في سورة الإسراء وهي تتحدث عن علو بني إسرائيل في الأرض وفسادهم، فإذا وقع منهم الإفساد الأول سلطنا عليهم عبادا لنا ذوي شجاعة وقوة شديدة يغلبونهم ويقتلونهم ويشردونهم وكان ذلك وعداً لا بد من وقوعه، وقد حدث ذلك بالفعل في الزمن القديم، حيث سلط الله على بني إسرائيل عباداً أشداء، مما تسبب في انهيار مملكتهم وتشتت جمعهم، حيث يقول المفسرون: "إن بني إسرائيل لما استحلوا المحارم وسفكوا الدماء سلَّط الله عليهم بختنصر ملك بابل فقتل منهم سبعين ألفاً حتى كاد يفنيهم هو وجنوده، وذلك أول الفسادين {**فَجَاسُواْ خِلاَلَ الديار**} أي طافوا وسط البيوت يروحون ويغدون للتفتيش عنكم واستئصالكم بالقتل والسلب والنهب لا يخافون من أحد {**وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً**} أي كان ذلك التسليط والانتقام قضاءً جزماً حتماً لا يقبل النقض والتبديل"[3] وهنا تميم يقول في شعره بأنه وأمته سيجوسون خلال الديار، ويدخلون القدس وتهزم إسرائيل.

والشاعر عندما يوظف النص القرآني يتكئ بشكل قوي على الوعد الإلهي بالنصر، مما يعزز ثقة المتلقي به على الرغم من المعطيات المحيطة به، وهو بذلك التفاعل النصي يرفد قصيدته بمعاني المكابرة والمثابرة والإصرار على المقاومة.

وفي قصيدة (التخميس) التي يعارض فيها المتنبي (على قدر أهل العزم تأتي العزائم) نراه يقول:

فيا دهر مهما كنت ناراً تَضَرَّمُ فنحن كإبراهيمَ في النار نسْلمُ

عجبتُ لعبدِ الدهر ما يتـعلَّـمُ أفي كل يوم ذا الدمستق مُقدمُ

قَفَاهُ على الإقدام للوجه لائمُ[4]

---

(1) كيليطو، أبو العلاء المعري أو متاهات القول، (ص20).

(2) [الإسراء: 5].

(3) الصابوني، صفوة التفاسير، (ص141).

(4) البرغوثي، ديوان في القدس، (ص157).

وهنا نرى الشاعر قد تناص مع القرآن في قوله تعالى:{**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ**}[1] وكأن الشعب الفلسطيني يتمثل في شخصية إبراهيم عليه السلام الذي ألقي في النار فكانت برداً وسلاما على إبراهيم، وهنا ينظر تميم إلى نار الاحتلال على أنها ستكون برداً وسلاماً على الشعب الفلسطيني، كما كانت من قبل على أبيهم إبراهيم مبشراً الناس بالأمل والخلاص.

وفي القصيدة نفسها يواصل تميم ويقول:

اقلبِ تسلح فالحياةُ وقيعةٌ وَرَبُكَ شارٍ والنفوس مبيعةٌ

وفيك ابن حمدان وفي الناس شيعة تشرف عدنان به لا ربيعةٌ

وتفتخر الدنيا به لا العواصم[2]

في هذه الأبيات يتناص الشاعر مع قوله تعالى:

{**إِنَّ اللهَّ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهَّ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللهَّ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**}[3]

ونلمس هنا الروح الدينية والوطنية لدى الشاعر حيث تتضح الدعوة إلى بيع النفس لله سبحانه وتعالى دفاعاً عن الأرض والشرف، ولا يتحقق ذلك إلا بمقاومة المحتل وخوض المعركة.

كما أن المتتبع لدواوين الشاعر يجده قد يتناص مع المفردة القرآنية فقط وليس الآية بأكملها، وقد يتناص مع التركيب القرآني، كما نلاحظ ذلك في قوله:

يأتــون من كل قرية زمــرا إلـــى طريق لله ترتفـــع[4]

جاء التناص الديني في لفظة (زمرا) التي تدلل على الجماعة وتكاتفهم وتوحد صفاتهم التي جمعت بينهم، ووقع التناص مع قوله تعالى:

---

(1)[الأنبياء: [69].

(2) البرغوثي، ديوان في القدس،(ص159).

(3)[التوبة: [111].

(4) البرغوثي، ديوان في القدس، (ص67).

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا)[1]، وزمرا تعني المجموعة سواء الكافرة أو المؤمنة، فجعلت النص له صلة بالأصل القرآني الذي له مكانته الوجدانية في نفوس المؤمنين بعدالة قضيتهم.

ومن الأمثلة القرآنية التي وظفها البرغوثي في ثنايا إبداعاته، قوله:

أنت رسول خلت من قبله الرسل[2]

وظف البرغوثي التناص الديني مع قوله تعالى: { **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** }[3] ، أضفى هذا التناص الديني في القصيدة المنجزة مزيداً من الدلالات العميقة التي عملت على حيوية النص وفتح تأويلاته مع الماضي لإضافة استنارات نصية مع الحاضر والمستقبل.

- **ثانيا: التناص مع قصص الأنبياء:**

➢ **محمد صلى الله عليه وسلم**

المتتبع لديوان الشاعر يجده في قصيدته (قَبّلي ما بين عينينا اعتذاراً يا سماء) يتحدث عن معجزة الإسراء والمعراج التي ذكرها القرآن الكريم في آياته حيث يقول:

أبلغي في ليلةِ الإسراءِ مَن بالمسجدِ الأقصى يُصَلّي
من نبيٍّ أو إمامْ
اسمعوا يا من عليهم صلواتُ الله سربٌ من حَمامْ
وأذانٌ في الأعالي يتردَّدْ
بينكم مَن كلَّم الله جهاراً
والذي لم يَصْلَ ناراً
والذي عن أمرهِ عَمَّرتِ الجِنانُ داراً
والذي يحيا مدى الدهر سِراراً
حاضراً أو غائباً يبدو ويستخفي مراراً
والذي قد أتْعَبَ الناس انتظاراً

---

(1)[الزمر:[73].

(2) البرغوثي، ديوان مقام عراق، (ص27).

(3)[البقرة: [114].

ليلةَ المعراج في المحراب من خلف محمدْ

اسمعوا مِنّا الكلامْ:

أعذرونا لو دَخَلْنا في صفوفِ الخاشعينْ

بالتوابيت وبالإعلامِ فَوْضى!

نحن لسنا أولياءً أو عباداً صالحينْ[1]

وهنا يخاطب تميم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وجميع الأنبياء الذين أمّ بهم في المسجد الأقصى خلفه موسى وإبراهيم وعيسى وإسماعيل عليهم السلام أجمعين، ثم يعتذر لهم لما وصل إليه حال الناس من ضياع للقيم وموت للضمائر.

- **آدم عليه السلام**

وفي ديوان في القدس يستحضر الشاعر شخصية آدم عليه السلام ورفض إبليس السجود له في قصيدة (أنا لي سماء كالسماء) حيث يقول[2]:

فما تاريخنا إلا مرافعة أمام الله

والشيطان ليس كما توقعناه في قفص الإدانة واقفا

لكن ممثل الادعاء

ويحضر الناس الأدلة والشهود

ليثبتوا منها جدارة آدم بالسجدة الأولى

استوحى البرغوثي القصة القرآنية، وفيها إبليس ممثل الادعاء، ويرمز له الشاعر بالحكام العرب، فهو ليس متهما، بينما آدم (الإنسان العربي) له أحقية بالسجود(الاحترام والكرامة)، فهذه المعاني أودعها البرغوثي في متناصاته من أجل إيصال دلالاته التي تجيش بها نفسه.

- **نوح عليه السلام**

وظف البرغوثي في قصيدته (لا شيء جذرياً) فنجد أن الشاعر قد استدعى شخصية نوح عليه السلام، متحدثاً عن الحمامة والغراب، وقد وردت القصة في كتاب (قصص الأنبياء لابن كثير) حيث جاء "كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت. قال: ثم بعث الحمامة فجاءت بورق

(1) البرغوثي، ديوان في القدس، (ص 77).

(2) المرجع السابق، (ص 27).

زيتون بمنقارها وطين برجلها، فعلم أن البلاد قد غرقت فطوقها الخضرة التي في عنقها، ودعا لها أن تكون في أنس وأمان، فمن ثم تألف البيوت"[1]

فالحمامة رمز سلام في كل الدنيا إلا عند الشاعر تميم فهي ليست كذلك، حيث تحدث عن الطوفان واصفاً الحمامة بالكذب وهي ليست رمزاً للسلام وإنما رمز للعدو الصهيوني الذي يدعي حبه للسلام، أما الغراب فهو أمريكا، محذراً من الطوفان وهو الحرب إذا لم يتحقق السلام على الأرض ويقام العدل حيث يقول:

لا شيء جذرياً
يواصل الحمام كذبه على أسطول نوح
ويواصل الغراب تحذيره
وتواصل السفن رحلتها من محيط لمحيط
أصبح الطوفان روتيناً
كالمذهب في الموشح
وكذلك النجاة[2]

- **عيسى عليه السلام**

أما شخصية المسيح عيسى بن مريم فقد ظهرت واضحة في قصيدته (الجليل) حيث تنتظر البشرية جمعاء نزول المسيح عليه السلام لتخليص البشرية من الشرور والظلم والاضطهاد، فهو المخلص وهو الأمل في النجاة حيث يقول:

جليل هو الولد الناصري الذي
يرتقي كل يوم صليبا
فيحمله لا أحدد من منهما يحمل الآن صاحبه
ويسير إلى القدس مستشهدا حافيا
ويحسبه الناس جغرافيا[3]

(1) ابن كثير، قصص الأنبياء، (ص113).
(2) البرغوثي، ديوان في القدس، (ص 134).
(3) المرجع السابق، (ص 21).

والمتتبع للقصيدة يلحظ أن الولد الناصري الذي يتحدث عنه الشاعر هو الفلسطيني الذي يقدم دمه فداء لوطنه شهيداً، فاستحضار الصورة الدينية بالتناص الشعري يعمل على تقريب الفكرة وتوضيح الصورة الشعرية المستوحاة من عبق التراث ووحي الواقع في حالة تشي بالقدرة الفنية المتفاعلة.

كما يتضح تناص الشاعر مع الإنجيل في قصيدته (قَبِّلي ما بين عينينا اعتذاراً يا سماء) فنجده يقول:

لم نكن ندعو لدِينٍ أو إمامَة
أو كتابٍ يزعج الكهّان يوم السبتِ
لم نطرد من الهيكل تجّارَ الفضيلةْ
نحن لسنا مُسّحاءْ
نحن كنا ليلةَ الّصَلبِ ندقُّ الكفَّ فوق الكفِّ
ما زِدْنا على ذلك شَيّا
نحن من صاح عليه الديك أَلفاً
لم نقل للرّوم حَرْفاً
وبكينا في مَسيحِ اللهِ إلْفاً
لا نَبِيّا
غير أنّا في بطون الأُسْدِ بِتْنا
لم نحد عن دينهِ حين امتُحِنّا
وعرفنا دقَّةَ المسمارِ في الكفَّيْنِ مثلَهْ
ثم لا نطلب أن يأتي إلينا مَلَكٌ
يخرجنا من ظلمة القبر بهالات الضياء
بين نجمٍ وغمامةْ
قد عرفنا قبل هذا
أن فُرِزنا
نحن للصَّلْبِ وأنتم للقيامةْ،
لم نُؤَلَّهْ

لم يُسَجَّلْ في الأناجيل اسمُ أبْلّهْ
ماتَ مِنّا[1]

فالمسيح عليه السلام يتخلى عنه طلابه ويصلب ويدفن بحسب الإنجيل، دون ذنب يقترفه، وهنا يكون التشابه بينه وبين الشعب الفلسطيني حيث يجمع بينهما تعرضهما للظلم والقتل.

"وقال لهم يسوع: في هذه الليلة ستتركوني كلكم...فقال بطرس: لو تركوك كلهم فأنا لن أتركك. فقال له يسوع: الحق أقول لك: في هذه الليلة قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات. فأجابه بطرس: لا أنكرك وإن كان عليّ أن أموت معك."[2]

ثم تصدق نبوءة الإنجيل ويصلب ويقتل ويتخلى عنه أصحابه.

كما نجد الشاعر في الأسطر السابقة يستخدم الضمير (نحن) إشارة إلى الشعب الفلسطيني متحدثا عن آلامه ومعاناته، موضحا بأنه لم يأت بدين جديد ولم يتطاول على الكهنة ويزعجهم يوم السبت، ولم يطرد التجار الذين كانوا يبتاعون ويشترون داخل الهيكل كما فعل المسيح بهم، فلماذا يستحق هذا الشعب الصلب والقتل دون ذنب اقترفه؟

وهو لا يلغي بذلك الاستنكار على الكهنة موقفه الإيجابي من المسيح، بقدر ما يبين حجم المفارقة بين الموقفين: موقف المسيح عليه السلام الداعي لدينٍ جديد قد يواجه بسببه العنت، وموقف الفلسطيني الذي كان إنساناً بسيطاً تم الاعتداء عليه وصلبه، دون أن يمتلكوا من أجل فعل ذلك به أي مبررٍ منطقي.

ثم نراه يؤكد المعنى نفسه في قصيدته التي بعنوان (ابن مريم) فيقول:

لقد صلبوه فماذا بربك تنتظرين
لقد صلبوه وليس مسيحا ولا ابن إله
لقد صلبوه لسرقته المال أو قوله الزور
أو سفكه الدم أو أي ذنب جناه
ولم يصلبوه لدعوى ودين
فماذا بربك تنتظرين؟

---

(1) البرغوثي، ديوان في القدس، (ص 75).
(2)المغلوث. أطلس الأديان. (ص 207).

ويا أُمُه لم يكن يُبرِئُ الصُمَ والبُكمَ والعُميَ

لم يخرج الجن من رأس مصروعة مؤمنةٍ

وما رف من بين كفيه طيرٌ

ولم يتحدَّ المرائين والكهنة

ولم يأته في لياليه روحٌ أمين

فماذا بربك تنتظرين

ويا أمه لم يكن فيه أي اختلاف عن الآخرين[1]

فالخطاب في بداية الأبيات موجه إلى مريم (الأمة العربية)، أما المصلوب فهو(الفلسطيني)، الذي لم يكن نبياً ولم يشهد المعجزات ولم يبرئ الأكمه والأبرص والأعمى، ولم يصنع من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيصير طيراً بإذن الله، ولم يتحد المرائين وكهنة الهيكل كما فعل المسيح عليه السلام، كما لم ينزل عليه الوحي، ولم يرتكب الجرائم التي يستحق لأجلها العقاب، ورغم ذلك يصلب ويقتل. فماذا تنتظرين يا أمته العربية؟ فالتناص مع المسيح وما تعرضه له يوحي بحيوية النص المنجز وتفاعلاته المختلفة في صلب القصيدة.

- **إسماعيل عليه السلام**

استحضر تميم في قصيدته (حديث الكساء) قصة إسماعيل عليه السلام وأمه حيث فجر الله عين الماء من تحت قدم إسماعيل عليه السلام بعد أن أرهقه العطش وأمه، وليس هذا فقط بل وإنما حادثة رؤيا إبراهيم عليه السلام وهو يذبح ابنه لولا أن تداركته نعمة الله وفضله حيث فداه الله بذبح عظيم.

يقول الشاعر في قصيدته (نثر موزون وشعر منثور في حديث الكساء ووحدة الأمة):

يا كساء النبي ارتفع راية عالية

لبني الجارية

للذين إذا تركوا في المنافي وشقر الموانى

فلا ماء يخرج من تحت أقدامهم

لا ولا وفد يأتي إليهم

وإن أخذوا ليضحّى بهم

---

(1) البرغوثي، ديوان في القدس، (ص 126).

لا فداء لهم يتنزل من جنة ما

ولا بيت تعلو قواعده فوقهم

فيجيء الحجيج اليهم بفاكهة الأربع النائية[1]

فالحديث هنا عن المقاومة اللبنانية والحرب على لبنان في العام 2006 والتي خاضتها المقاومة اللبنانية وحيدة دون معين أو سند، وهم ليسوا كإسماعيل عليه السلام عندما عطش فتفجرت الماء من تحت أقدامه، أو فداه الله بكبش عظيم عندما رأى إبراهيم عليه السلام أنه يذبحه، فهم دون معين رغم المعاناة وهدم البيوت وقتل البشر وموت الأطفال، فما من أحد يأتي إليهم بالمعونة كما جاء الحجيج بالفواكه والرزق الوفير.

يأتي الحديث الشريف في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم من حيث جمال العبارة، وقوة اللفظ، وفصاحة القول، إلا أنه لم يرد بكثرة في ديواني الشاعر، ربما لأن القرآن أثبت وأقوى في ذاكرة السامع والمتلقي، حيث نجد التناص في موضعين فقط حيث يقول في ديوانه مقام عراق:

اذهبوا أنتم الطلقاء

ودون جميع الذين أحبوك من أمم الأرض

أهديت نفسك للمسلمين[2]

وأصل القصة ان الرسول صلى الله عليه وسلم عندما دخل مكة فاتحاً قال وهو واقف على باب الكعبة: "يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء."[3]

كما يوظف حديثاً آخراً من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول تميم:

إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول

"أكرموا عماتكم النخل"[4]

---

(1) البرغوثي، ديوان في القدس، (ص 44).

(2) البرغوثي، ديوان مقام عراق، (ص12).

(3) قاسم، منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري،(ج371/4).

(4) البرغوثي، ديوان مقام عراق، (ص40).

وهو تناص مع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في باب صلاة الجنازة: "أكرموا عماتكم النخل المطعمات في المحل فوصف بعماتنا؛ لأنه خلق من فضلة طينة آدم فقدم عليه وثمره مثله وفي رواية "أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من فضلة طينة أبيكم آدم"[1]

استحضر البرغوثي قول الرسول في صلب أشعاره ففتح آفاقاً مرجعية في صلب نصوصه التي أبدعها، مما أصل للفكر والعاطفة المطروحة وشحنها بالدلالات المطلوبة.

2-التناص مع السيرة النبوية:

إن المتتبع لديوان تميم يجد بأن الشاعر لا يتناص مع القرآن فقط في آياته وإنما في قصصه، فنجده يستلهم شخصية الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم جاعلاً منها رمزاً للأمل والانتصار، ويجري الحديث على لسان الحمامة، فترثي حال المسلمين في عصرنا الحديث، مع الاستمرار في سرد أحداث الهجرة بألم وحسرة حيث نجده يقول في قصيدة له بعنوان (تقول الحمامة للعنكبوت):

تقـــول الحمامـــة للعنكبـــوت ... أُخُـــيَّ تذكرتِـــني أم نســـيتِ ؟
لقـــد طُفْـــت كالشـــكِّ كـــلَّ ... الـبلاد وأنـتِ هنـا كـاليقين بقيـتِ
فلـــم أوْتَ علمـــك مهمـــا علِمـــتُ ... ولـــم أرْقَ يومـــاً إلـــى مـــا رقيـــتِ
فأنـــــتِ لبُنيانِنَـــــا كالثبـــــات ... وأنـــــت لبُرهانِنَـــــا كـــــالثبوتِ
أتيتُـــكِ أســـأل عـــن صـــاحبينا ... فـــلا تَقْتُلينـــي بهـــذا الســـكوتِ
أراك أخيـــــــةُ لا تنطقـــــــين ... بـــأيِّ الـــدواهي الإنـــاث دهيـــتِ
ولـــود عنـــودٍ تعـــود وتفنيـــك ... وهـــي تُـــخلَّد إمّـــا فنيـــتِ
وأعـــرف مـــا ضـــرَّك المشـــركون ... ولكـــن مـــن المـــؤمنين أتيـــتِ
تقـــول الحمامـــة للعنكبـــوت ... بربِّـــك يـــا هـــذه لا تمـــوتي[2]

وظف الشاعر حمامة النبي صلى الله عليه وسلم والعنكبوت في حادثة غار حراء ليبين حال العرب والمسلمين وما يتعرضون له، وليبرهن على عمق الأصالة للنص الشعري المطروح ويعزز من المعاني التي يريد البرغوثي إيصالها للمتلقين، ولم يقف الأمر على ذلك فقد أضفى حواراً درامياً مع الحمامة أدى إلى تفاعلات نصية مع البنية الأسلوبية المطروحة، فيقول:

---

(1) الشافعي، الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، (ج1/ 214).
(2) البرغوثي، ديوان في القدس، (ص 52).

تقول الحمامة لما رأت روح حارسة الغار فاضت

وقد أصبح الغار من بعدها طللا

يا أخية ضيفاك ما فعلا؟

ثم قالت تعزَّيْ قليلاً

وخلِّ من الدمع ما همل

ثم ميلي إلى كلِّ طفلٍ وليدٍ

وقصِّي عليه الحكاية،

قولي له:

في زمانٍ مضى

حلَّ في غارنا عربيان

وارتحلا...[1]

واصل البرغوثي حواره التناصي انطلاقاً من بنية درامية متفاعلة؛ حيث استحضر الحمامة والغار الذي اختفى فيه عن المشركين، فهذه الحادثة من صلب التناص الديني الذي عايشه النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام، فالتعبير عن الوقائع والأحداث يقود إلى منجزات متنوعة على صعيد الكلمات والصور والألفاظ التي يستقطبها البرغوثي في صلب أشعاره.

وعلى الرغم من أن حكاية الحمامة والعنكبوت لم تثبت حديثياً، إلا أن لها صداها الواسع في فهم السيرة النبوية ولها دلالاتها في التأييد الإلهي، الذي يحاول الشاعر أن يبعث من خلاله رسائل للأجيال تؤكد على إمكانية النصر وإمكانية تحقق الآمال في تحريضٍ واضحٍ ضد اليأس.

كما أننا نجد للشاعر قصيدة أخرى بعنوان (أمر طبيعي) يتحدث فيها عن أحداث الهجرة النبوية الشريفة، رابطاً بين الحدث في ذلك الوقت وما كانت تعنيه الهجرة، وبين ما تشهده الأمة العربية والإسلامية في هذه الأيام من الخوف والقتل والتشريد والخيانة حيث يقول:

أَرَى أُمَّـــةً فـــي الغَـــارِ بَعْـــدَ مُحَمَّـــدٍ ... تَعُـــودُ إليـــهِ حِـــينَ يَفْـــدَحُهَا الأَمْـــرُ

دخلـــتِ إليـــه اثنـــين أول مـــرة ... نبيـــاً وصِـــدِّيقاً وشـــى بهمـــا الـــوعر

أيـــا أمـــة فـــي الغـــار تبغـــي حمايـــةً ... مـــن الطيـــر معـــذور إذا خانـــك الطيـــر

وجبريـــل يـــأتي الغـــار كـــل عشـــية ... ويـذهب والغـافون فـي الغـار لـم يـدروا[2]

---

(1) البرغوثي، ديوان في القدس (ص 52).

(2) المرجع السابق (ص 54)

والمتتبع لشعر تميم البرغوثي يلحظ بأن الشاعر لا يكتفي بالتناص مع الآيات القرآنية فقط وإنما نجده يتناص مع القصص التي وردت في السنة النبوية فنجده في قصيدته التي بعنوان (في حديث الكساء ووحدة الأمة) يقول: "حديث كساء النبي الذي سوف أكتب عنه حديث عن الوحدة العربية...حديث الكساء حديث قصير مؤداه أن النبي دعا حسنا وحسينا وفاطمة وعليا وضم عليهم كساء من الشَّعر ثم دعا الله أن يذهب الرجز عنهم فأنزل ربك آية تطهيرهم"(1)

يقول الشاعر:

يا كساء النبي
ارتفع راية عالية
لبني الجارية
قم وأعطهمو الدرع والسيف والرمح
واتل عليهم من الذكر شيئاً
وصلّ صلاة الجماعة فيهم
وقل: حاربوا كل باغٍ قوي
يا كساء النبي(2)

والكساء الذي يتحدث عنه تميم في القصيدة هو كساء المقاومة حيث يقول: "أقول، وأجري على الله فيما أقول، باني سأُدخِل الذين أبوا أن يذلوا لغازٍ أتاهم ، وأُخرِج منه الذين على العكس منهم أباحوا لحاهم، فمن رد كيد اليهود عن المسلمين بلبنان عندي سيدخل تحت هذا الكساء ومن رد كيد التحالف عن شارع في العراق سيدخل تحت الكساء"(3)

3-التناص التاريخي:

البرغوثي شاعر سياسي تتضح القضية الفلسطينية في شعره، وفلسطين لها خصوصية المكانة والمنزلة حيث ذكر القرآن الكريم ذلك، وبين خصوصية مسجدها، وأنها مباركة، وما حولها، ولكننا عند تتبع شعر تميم نجد فيه التناص التاريخي، ففي ديوانه (في القدس) نجد تناصاً في القصيدة الأولى من الديوان وهي قصيدة (في القدس) حيث يقول:

---

(1) البرغوثي، ديوان في القدس، (ص35- 36).
(2) المرجع السابق،(ص 45).
(3)البرغوثي، ديوان في القدس، (ص 36).

في القدس مدرسة لمملوك أتى مما وراء النهر،

باعوه بسوق نخاسة في أصفهان

لتاجر من أهل بغداد أتى حلبا

فخاف أميرها من زرقة في عينه اليسرى،

فأعطاه لقافلة أتت مصرا،

فأصبح بعد بضع سنين غلاب المغول

وصاحب السلطان[1]

في إشارة من الشاعر إلى (الظاهر بيبرس) الذي أكمل انتصارات القائد (قطز) على المغول في معركة عين جالوت، حيث أتى مصراً عبداً ضعيفاً، ثم صار قائداً عظيماً منتصراً، وربما كان في شعر تميم ما يبعث الأمل هنا في نفوس الفلسطينيين، ويبشرهم بأن النصر قادم لا محالة.

كما نجده في موقع آخر يقول في ديوانه (مقام عراق):

أنا من أذن في غير الأوان

كنت سكران ولكن

أنا من مات فداء للأذان

أنا بشار بن برد[2]

والقصة هنا لها جذور تاريخية حيث يورد الشاعر في ديوانه قوله:" كان بشار سكران يغني على أحد الأسطح حين مر موكب الخليفة المهدي فلما سمع بشار طبول الموكب أذّن أن "الله أكبر الله أكبر" ليستر سكره، فالتفت المهدي قائلا: من ذاك الذي يؤذن في غير وقت الصلاة؟ فقيل له يا أمير المؤمنين إنه الأعمى بشار، فأقام عليه حد الخمر فمات"[3]

كما ذكر لنا التاريخ أيضا في قصة مقتل الحسين "فقد التقى الفرزدق الشاعر بقافلة الحسين فسلم عليه وقال له: بأبي وأمي يا ابن رسول الله وما أعجلك عن الحج؟ فقال: لو لم

---

(1) البرغوثي، ديوان في القدس، (ص 8).

(2) البرغوثي، ديوان مقام عراق، (ص 31)

(3) المرجع السابق، (ص 31).

أعجل لأخذت...ثم سأله أبو عبد الله عن الناس، فقال (أي الفرزدق): قلوبهم معك وأسيافهم عليك. فقال عليه السلام: "صدقت لله الأمر وكل يوم هو في شأن" فإن نزل القضاء بما نحب ونرضى فنحمد الله على نعمائه، وهو المستعان على أداء الشكر، وإن حال القضاء دون الرجاء، فلم يبعد من كان الحق نيته، والتقوى سريرته"[1]

فنرى الشاعر يقول في ديوانه (مقام عراق):

قال الراوي:

قدم الفرزدق همام بن غالب في صباه

من الكوفة إلى المدينة

فدخل على أبي عبد الله الحسين بن علي

فقال له الإمام:

يا همام، كيف تركت الناس؟

قال يا ابن رسول الله

قلوبهم معك

وسيوفهم عليك

والنصر من عند الله[2]

كما نجد أن الشاعر يتناص مع قول الخليفة عمر بن الخطاب" لو عثرت دابة في العراق لخفت أن يسألني الله عنها: لم لم تصلح لها الطريق يا عمر؟ فالتناص الديني في بينة القصيدة فيه إيحاءات ودلالات تعبر عن الواقع المأساوي للحياة المعيشية للشعب الفلسطيني، يقول البرغوثي في ديوانه مقام عراق:

عنزة تتعثر بين الخرائب

وكانت إذا عنزة عثرت بالعراق

يظل لها عمر لا ينام

---

(1) عبد العزيز، من قتل الحسين، (ص 34).

(2) البرغوثي، ديوان مقام عراق، (ص 74).

فكم عثرت فيه من أمة

وكم من أميم وكم من إمام[1]

كما يتطرق إلى الخوارج الذين ثاروا على الإمام علي رضي الله عنه حيث يقول:

وأعيد تركيب التواريخ القديمة

ربما أدخلت فيها بعض تزوير حميد

فيصحح التاريخ سيرته كأحسن ما يريد

فيه الخوارج لا تثور على علي

ويثور فيه المسلمون على يزيد

ويطاف في الأسواق بابن العلقمي

وبكل من جعل الغزاة ولاته

في مصر أو في الشام

أو في ذلك البلد المخضب والمجيد[2]

كما نجد له في ديوانه (مقام عراق) تناصاً تاريخياً آخراً حيث يقول على نظام التخميس:

يا من بكوا ظلم من في كربلا ظلموا هاتوا المرايا فأنتم يا رجال همو

ماذا أعلمكم والعلم عندكمو أعمى يقود بصيرا لا أبا لكمو

قد ضل من كانت العميان تهديه[3]

فالشطر الرابع والخامس هو بيت لبشار بن برد، "قاله حين استدله رجل بصير على بيت في بغداد، فدله عليه بالكلام، وعجز البصير أن يصل، فقام بشار آخذاً بيده وقاده إلى البيت حتى أوصله"[4] هذه أمثلة على التناص الخارجي الذي وظفه الشاعر البرغوثي في ثنايا أشعاره ففتحت هذه المتناصات اتصالات مع جوهر النصالذي استحضره البرغوثي وأضفى على النص

(1) البرغوثي، ديوان مقام عراق، (ص45-46).

(2) البرغوثي، ديوان في القدس، (ص 31).

(3) البرغوثي، مقام عراق، (ص30).

(4)المرجع السابق، (ص30).

المتأخر دلالات بصورة مباشرة أو غير مباشرة على مستوى التشكيل الشعري ومضامينه وعلى معماراته الفنية التي سنحاول استقرائها فيما بعد.

ينطلق التناص عند البرغوثي من مقدرته الفائقة على الإبداع المتعلق بذاته وشخصيته المتأصلة في عمق الحضارة العربية والإسلامية، فاستحضر الدين والتاريخ والأدب وكلها مكونات رئيسة في صقل هوية البرغوثي ورسم ملامحها، فالنصوص التي أبدعها جاءت نصوص متحاورة فيها تفاعل وحيوية لها مدلولاتها العميقة والسطحية التي بثها في قصائد ديوانه.

إن التناص التاريخي يتعلق بصورة أو بأخرى بطبيعة الأحداث ومجريات الوقائع التي يحياها الشعب الفلسطيني، مما أسهم في إنتاج نصوص متفاعلة مع طبيعة الحدث الذي يعبر عنه البرغوثي في ثنايا أشعاره.

4- التناص الأدبي:

أشرت سابقا إلى تعريف التناص بشكل عام، وأشرت إلى أن أول من تطرق لتعريف هذا المفهوم البلغارية "جوليا كريستيفا" والتي قالت بأن التناص هو تداخل النصوص، بمعنى أن النص الأدبي القديم يدخل مع النص الجديد، فينتج بذلك نص أدبي جديد بصورة فنية تجمع ما بين القديم والجديد، فالقارئ لديوان تميم البرغوثي يجد قصيدته التي بعنوان (معين الدمع) والتي يعارض فيها معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي والتي يقول في مطلعها:

ألا هبي بصحنـــك فاصبحينا ولا تبقــي خمــور الأندرينــا[1]

"كان عمرو بن كلثوم شجاعًا مظفرًا مقدامًا فتّاكًا. وبه يضرب المثل في الفتك، فيقال: أفتك من عمرو بن كلثوم لفتكه بعمرو بن هند".[2] وهو في معلقته يطلب الخمر احتفالاً بانتصاره على عمرو بن كلثوم مفتخراً بنفسه وقومه. وأصل القصة أن: "عمرو بن هند أرسل إلى عمرو بن كلثوم يستزيره، ويسأله أن يزير أمه أمه، فأقبل عمرو... في جماعة بني تغلب، وأقبلت ليلى بنت مهلهل...وقد كان عمرو بن هند أمر أمه أن تنحي الخدم،... وتستخدم ليلى... فقالت هند: ناوليني يا ليلى ذلك الطبق. فقالت ليلى: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فأعادت عليها، وألحت، فصاحت ليلى: واذلاه! يا لتغلب! فسمعها عمرو بن كلثوم، فثار الدم

(1) الزوزني، شرح المعلقات السبع، (ص 215).

(2) المرجع السابق، (ص 203).

في وجهه، ... فوثب عمرو بن كلثوم إلى سيف لعمرو بن هند معلقا بالرواق ليس هناك سيف غيره، فضرب به رأس عمرو بن هند"[1]

أما تميم البرغوثي فقد نظم قصيدته في عشر أبيات واصفاً فيها معاناة الشعب الفلسطيني، وما ذاقه من الويلات على أيدي الطغاة، داعياً إلى المقاومة وإذلال المحتل، حيث يقول:

معين الدمع لن يبقى معينا فمن أي المصائب تدمعينا[2]

والملاحظ للأبيات يرى أن عمرو بن كلثوم قد نظم قصيدته وهو في موقع القوة واالفخر بنفسه وبقبيلته تغلب ووحدتها وتماسكها حتى ذل الجميع لسطوتها وقوتها فيقول:

ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا[3]

وهنا يفخر عمرو بن كلثوم بكثرة الأعداد من قومه حتى أن الأرض لم تعد تتسع لهم، وكذللك البحر قد ملأته سفنهم.

بينما تميم يفتخر بتضحيات شعبه الكثيرة وشهدائه الذين يرتقون الى العلا باستمرار، ولا يصبرون على الذل والهوان حيث يقول:

ملأنا البر من قتلى كرام على غير المهانة صابرينا[4]

يتضح من قراءة الأبيات بأن تميم يتواصل تواصلاً تاماً مع عمرو بن كلثوم حيث يتضح التناص وضوحاً قوياً فيقول:

فإن الحق مشتاق إلى أن يرى بعض الجبابر ساجدينا[5]

حيث يقول عمرو بن كلثوم:

إِذَا بَلَغَ الفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ تَخِرُّ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَا

من الملاحظ على كلتا القصيدتين:

---

(1) الزوزني، شرح المعلقات السبع، (ص 209).

(2) البرغوثي، ديوان في القدس (ص 170).

(3) المرجع السابق (ص 235).

(4)المرجع نفسه (ص 170).

(5) البرغوثي، ديوان في القدس (ص 170)،

- أن التناص في شعر تميم قد جاء بصورة مخالفة لقصيدة عمرو بن كلثوم حيث يتحدث الأول عن النكبات والمعاناة التي يمر بها أبناء فلسطين، بينما يتحدث الثاني عن الفرح والانتقام والانتصار وأخذ الثأر ممن أذل أمه داعياً لها بأن تفرح وتسعد.
- استخدم تميم القافية نفسها التي استخدمها عمرو بن كلثوم (ينا)، وهنا نلمس الإيقاع الموسيقي الجميل.
- كلا الشاعرين قد استخدما البحر الشعري نفسه وهو الوافر لإيقاعه الجميل ومناسبته للفخر.

ثم يتواصل تميم مع أبي الطيب المتنبي في قصيدته (تخميس "على قدر أهل العزم").

ويوضح لنا تميم في مقدمة القصيدة معنى التخميس حيث يقول: " وقد يخمس شاعر لاحق قصيدة عادية لشاعر سابق بأن يضيف لكل بيت من أبياتها المكونة من شطرين اثنين ثلاثة أشطر أخرى، قافية كل منها تتفق مع نهاية الشطر الأول من البيت الأصلي. فتصبح وحدة البناء في القصيدة مكونة من خمسة أشطر، الثلاثة الأولى منها للشاعر اللاحق والاثنان الأخيران منها للشاعر السابق. وتكون القصيدة القديمة مقتبسة بكاملها ومضمنة بنصها في القصيدة الجديدة وكأنه تركيب قصيدة على قصيدة"[1]

كقول المتنبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم[2]

فقد نظم تميم قصيدته بثلاثة أشطر وأضاف عليها البيت لأبي الطيب ليشكل المخمس حيث يقول:

أقول لدار دهرها لا يسالم وموت بأسواق النفوس يساوم
وأوجه قتلى زيّنتها المباسم على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم[3]

وهنا أيضا يأتي تناص تميم مخالفاً لمعنى القصيدة الأصلي كما في تناصه مع عمرو بن كلثوم حيث يقول تميم في ديوانه:

" وقد كانت العادة من قبل، أن يكون التخميس كالمعارضة، أي تأكيداً لمعنى القصيدة الأصلية القديمة، وألا يخرج بها عن سياقها وأنا حاولت، على غير العادة، في تخميسي لقصيدة

(1) البرغوثي، ديوان في القدس (ص 143).
(2) ديوان المتنبي، (ص385).
(3) البرغوثي، ديوان في القدس، (ص147).

أبي الطيب المتنبي "على قدر أهل العزم" أن أغير معناها تماما وأقلبه عمداً رأسا على عقب... متعمداً قلب معانيها لانقلاب زمانها...فبدلا من أن يكون موضوع قصيدة أبي الطيب موقعة بين سيف الدولة والروم عند قلعة الحدث، يكون موضوعها بعد التخميس وصفا لذاتنا جمعاً وأفراداً في هذا الزمان فأنا بصراحة أسرق أبا الطيب، لكنه جدٌ سمح وذو كف ندية ونحن ناسه شئنا أم أبينا، بل شاء هو أم أبى"[1]، وقد جاء كل ذلك ليعبر عما تجيش به نفسه وما يخطر بباله من رؤية لواقع أمته وحال شعبه الذي يعاني الويلات والآلام والمآسي التي يتعرض لها على يد الطغاة المستعمرين.

(1)البرغوثي، ديوان في القدس، (ص 146).

المبحث الثاني: التناص الداخلي

عندما نتحدث عن التناص الداخلي فإننا نقصد الحديث عن الفترة ما بين 1917-2017، فكما تحدثنا سابقا عن التناص الخارجي للشاعر، حيث التناص مع العصور السابقة للشاعر والتي كانت إلى ما قبل عام 1917، فإننا هنا نكمل امتداد الشاعر إلى عصرنا الحديث، أي بداية عصر الدول والإمارات الثاني كما يسميه بعض الكتاب.

- **الشعر:**

إن القارئ لديوان في القدس يجد بأن سبب تسمية الديوان بهذا الاسم هو القصيدة في بداية الديوان والتي باسمها سمي الديوان، كما نجد بأنها قد تكررت في مطلع كل مقطع من مقاطع القصيدة، وربما كانت هذه القصيدة سبباً في ذيوع شعر الشاعر وانتشاره، وقد بدأ الشاعر قصيدته بأبيات منظومة ومقفاة على نظام القصيدة التقليدية العمودية ذات الوزن والقافية، بينما باقي أجزاء القصيدة تندرج ضمن إطار قصيدة التفعيلة. وقد استهلها الشاعر بعبارته الشهيرة (في القدس) حيث يقول الشاعر في مطلع قصيدته على شكل القصيدة التقليدي:

مررنـــا علـــى دار الحبيـــب فردنـــا عـن الـدار قـانون الأعـادي وسـورها
فقلـــت لنفســـي ربمـــا هـــي نعمـــة فمـاذا تـرى فـي القـدس حـين تزورهـا
تـــرى كـــل مـــا لا تســـتطيع احتمالـــه إذا مـا بـدت مـن جانـب الـدرب دورهـا
ومـا كـل نفـس حـين تلقـى حبيبهـا تســـر ولا كـــل الغيـــاب يضـــيرها[1]

أما الجزء الثاني من القصيدة فقد جاء على شكل التفعيلة حيث يقول الشاعر:

في القدس، بائع خضرة من جورجيا برم بزوجته

يفكر في قضاء إجازة أو في طلاء البيت

في القدس توراة وكهل جاء من منهاتن العليا

يفقه فتية البولون في أحكامها

في القدس شرطي من الأحباش

يغلق شارعا في السوق،

(1) البرغوثي، ديوان في القدس، (ص 3).

رشاش على مستوطن لم يبلغ العشرين،

قبعة تحيي حائط المبكى

وسياح من الإفرنج شقر لا يرون القدس إطلاقا

تراهم يأخذون لبعضهم صورا

مع امرأة تبيع الفجل في الساحات طول اليوم

في القدس أسوار من الريحان

في القدس متراس من الأسمنت

في القدس دب الجند منتعلين فوق الغيم

في القدس صلينا على الأسفلت

في القدس من في القدس إلا أنت[1]

إن المتأمل لديوان الشاعر يجد بأن الشاعر قد تناص تناصاً متطابقاً مع قصيدة للشاعر محمود درويش عنوانها " في القدس" وردت في ديوانه " لا تعتذر عما فعلت" حيث يقول فيها:

في القدس، أعني داخل السور القديم،

أسير من زمن إلى زمن بلا ذكرى

تصوبني. فإن الأنبياء هناك يقتسمون

تاريخ المقدس... يصعدون إلى السماء

ويرجعون أقل إحباطا وحزنا، فالمحبة

والسلام مقدسان وقادمان إلى المدينة[2]

"كتب درويش قصيدته بعد زيارة المدينة وعبّر فيها عن شعوره الذي انتابه، عن فرحه الكبير، عن نسيانه كل شيء، وأثار أسئلة عن الحروب التي يخوضها أصحاب الديانات من أجل حجر عتيق، وأتى في نهايتها على سؤال شرطية له: ألم أقتلك؟ وكتب تميم قصيدته،

---

(1) البرغوثي، ديوان في القدس، (ص 4).

(2) درويش، لا تعتذر عما فعلت. (ص47).

أيضاً، إثر زيارة للمدينة، فأتى فيها عما في القدس، على الناس وعلى الحجر والتاريخ، وعلى الشرطي أيضاً.[1]"

وفي ديوان الشاعر تميم البرغوثي نجد قصيدته التي بعنوان (قبلي ما بين عينينا اعتذارا يا سماء) حيث يقول:

فاضطراراً يصبح المرء نبيا

لعنة الله عليهم

جعلونا أنبياء

قبلي ما بين عينينا اعتذاراً يا سماء[2]

وهنا نجده يتواصل تواصلاً مباشراً مع الشاعر محمود درويش في قصيدته (أغنية ساذجة عن الصليب الأحمر) والتي نظمها في ديوانه (آخر الليل) عام 1967، ويقول فيها:

نحن أدرى بالشياطين التي تجعل من طفل نبيا

قل مع القائل:...لم أسألك عبئا هينا

يا إلهي أعطني ظهرا قويا[3]

فالشياطين هم الاحتلال، والنبي هو الطفل الفلسطيني، حيث يواجه الإرهاب والقتل والتشريد، فهو في صبره وعزمه كالأنبياء صموداً واحتمالاً، وهذا هو حال الإنسان الفلسطيني حيث يصبح نبياً مضطراً فيصبر ويعاني أو يرتقي شهيداً.

وهذا الطفل قد نال من الظلم ما نال تشبيها له بظلم اليهود والكفار للأنبياء وهنا يبرز لنا جمال الصورة الفنية التي رسمها لنا تميم وكأنه قد أعطانا نموذجاً حياً شاهداً على معاناة الطفل الفلسطيني.

في كل ما سبق نجد الشاعر من خلال تناصه مع السابقين قد اكتسب تجربة فنية لها طابعها المميز والفريد، فرسم لنا بريشته الشعرية وكلماته المشحونة بالأمل والثقة لوحة فنية جميلة، ترى بالعين، وتلمس بالمشاعر.

---

(1) الأسطة، قراءة في قصيدة محمود درويش "في القدس" (موقع الكتروني).

(2) البرغوثي، ديوان في القدس (ص79).

(3)درويش، ديوان آخر الليل (ص60).

إن التناص الذي وظفه البرغوثي في إبداعه المتميز من خلال قصائد دواوينه يعبر عن مدى اللباقة الأدبية في صناعة النص وإثراء محاوره وصقل بنيته بالمرجعيات الدلالية التي تعزز من مضمونه وشكله وتسهم في حيويته وفاعليته.

- **النثر**

يعد النثر الأدبي من الفنون العربية والأشكال الأدبية الكتابية للغة العربية وهنا يظهر ما يعرف بالنثر الفني، فيقول د. شوقي ضيف:" حين نتحدث عن النثر ننحّي النثر العاديَّ الذي يتخاطب به الناس في شئون حياتهم اليومية؛ فإن هذا الضرب من النثر لا يعد شيء منه أدبًا إلا ما قد يجري فيه من أمثال؛ إنما الذي يعد أدبًا حقًّا هو النثر الذي يقصد به صاحبه إلى التأثير في نفوس السامعين والذي يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء، وهو أنواع، منه ما يكون قصصًا وما يكون خطابة وما يكون رسائل أدبية محبرة، ويسمي بعض الباحثين النوع الأخير باسم النثر الفني"[1]، فالنثر الفني يختلف عن غيره من الفنون الأدبية الأخرى، وخاصة الشعر المنظوم، على أنهما قد يتفاعلان داخل العمل الأدبي الواحد، وهنا نرى البرغوثي قد مزج بين هذين الفنين في قصائده التي سكب فيها إبداعاته الفنية، فعمد إلى بث كلماته الشاعرة في صورة نثرية فنية جميلة في دواوينه الشعرية التي تعتمد عليها هذه الدراسة.

وقد وصف البرغوثي الأحداث والوقائع والمعاني التي تجيش بها نفسه، معتمداً على النثر في معالجة الواقع ورسم صورته وما يجيش في عقله ووجدانه تجاه معظم القضايا التي تهم المجتمعات العربية التي هو منها أو تطلعاته التي يؤمن بها، فيقول:[2]

"هذا الاستهلال، والاستهلال استهلال الدمع واستدعاء الهلال، والهلال مقياس الزمان وسجل المسلمين، قلامة الأظفر، وقارب الفضة، مهد الليل وطريد النهار فيه ...

يا هلال

علم المؤمنين

أيها القارب المتأرجح ذات اليمين وذات الشمال

شمالك معتلة واليمين[3]

(1) ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي. (ص398).

(2) البرغوثي، مقام عراق. (ص9-10).

(3)المرجع السابق، (ص10).

يعد الاستهلال من المسائل المهمة في العمل الأدبي وعليه يعتمد التشويق والمواصلة في قراءة الجنس الأدبي أو التوقف عن متابعة العمل الأدبي وقد أحسن البرغوثي حيث وفق في استهلاله ومطالع قصائده التي افتتح بها دواوينه وخاصة ديوانه " مقام عراق" و"الاستهلال في اللغة أول صوت المولود حين الولادة، وبذلك يستدل على حياته، فسمّي به الكلام الذي يدلّ أوله على المقصود...؛ وبذلك يحسن الابتداء في الإتقان، من ذلك سورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن فإنها مشتملة على جميع مقاصده،[1] فالاستهلال في قصيدته "كفوا لسان المراثي" يبين ما تعرض له العراق من هجمات حاقدة على يد البغي والطغيان في ظل صمت مهيب، لقد بني ديوانه على أحداث العراق وأسهم في توظيفها، وأبدع البرغوثي في استهلاله وحقق البراعة فيه وهي: "كون ابتداء الكلام مناسباً للمقصود، وهي تقع في ديباجات الكتب كثيراً، هي أن يشير المصنف في ابتداء تأليفه، قبل الشروع في المسائل، بعبارة تدل على المرتب عليه إجمالاً" [2].

إن حسن الطليعة في الكلام والابتداء به من المميزات التي يبنى عليها الجنس الأدبي، فالبرغوثي شاعر أجاد في حياكة عناوين موضوعاته وافتتاحياتها، فقال ابن حجة الحموي:" براعة المطلع عبارة عن طلوع أهلّة المعاني واضحة في استهلالها، وأن لا يتجافى بجنوب الألفاظ عن مضاجع الرقة، وأن يكون التشبيب بنسبها مرقصا عند السماع، وطرق السهولة متكفلة لها بالسلامة من تجشم الحزن ومطلعها، مع اجتناب الحشو"[3] مما يدلل على أن البرغوثي استطاع أن يرسم صور قصائده بكلامه المنثور الذي يشكل مفاتيح رئيسة في أطروحته النثرية الشعرية التي أخذ يسكب فيها المعاني التي تجيش بها نفسه، فالهلال لم يعد هلالاً عادياً، إنه هلال الألم والمآسي التي يعبر عنها الشاعر فالهلال تهلهل الدمع من شدة الوجع والآهات، والهلال مقياس الزمن للمسلمين فمتى كان هناك مظلمة هب إليها المسلمون لرفعها عن إخوانهم في الدين والعقيدة، فالمعتصم انتصر للمرأة العربية التي استغاثت به، هذا الهلال برمزيته أثبت أنه يسير على خطى متقلبة فهو ليس في حالة طبيعية إنما التذبذب سيد الموقف؛ لأن العواصف التي ألمت بالأمة جعلتها تفقد مركزيتها في التعامل مع المستجدات الطارئة التي تقف حائلاً أمام قوتها ووحدتها، فتأرجح القارب بين اليمين والشمال يوحي بضبابية الموقف وخطورته نتيجة التقلبات غير الطبيعية التي تعيشها المجتمعات العربية والإسلامية، وما

(1) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم.(ج319/1).

(2) الجرجاني، التعريفات.(ص45).

(3) ابن حجة، خزانة الأب وغاية الأرب، (ج19/1).

زالت قضية فلسطين التاريخية كما هي ولا أحد يتحرك لنصرتها، ورفع الظلم عن شعوب العرب والمسلمين، وقال:

يا هلال

أيها القارب المتأرجح تمحو وتكتب كيف تميل مصائرنا

في الحروب المقيمة أو في السلام السجال

يا هلال[1]

عبر الشاعر عن الحالة المأساوية التي يعيشها أبناء الشعبين العراقي والفلسطيني، وينادي فلا مغيث فقد تعرضوا لأبشع أنواع العذاب ونراه يضفي أدوات النثر على الجمادات فالقارب المتأرجح كيف له أن يكتب وهو في حالة اضطراب من شدة الرياح وكأنها عذابات كتبت عليه، ويتساءل عن المصير المجهول في حالة الحرب التي يتعرض لها الأبرياء التي لا تعرف الشفقة أو الرحمة حتى السلام المزعوم الذي تتغنى به الدول الكبرى وتسوقه على الشعوب المستضعفة لم يلبي رغباتها في التحرر والاستقلال.

ويتحدث الشاعر عن الهلال الذي أصبح كالريشة تتقاذفها الرياح، فكتابته النثرية الشعرية تأثرت بذلك، فيقول:

يا هلال

يا مشابك شعر الصبايا وقوس الرموش

يا قلامة ظفر الوحوش

تحولها من زئير الصحاري إلى رسمة في ثياب المدارس

يا قلامة ظفر الرجال

تقيدهم بالبلاغة في السور البينات فلا يعتدون على الذات والآخرين[2]

وصف الشاعر حالات الجمال النسوي فأقحم الهلال في مشابك شعر الصبايا الملاح اللواتي تمتلك رموش محبة ذات تقوس هلالي يناجي عنان السماء في عليائه تلك الرومانسية اللبقة التي تتلون بألوان شتى في الروح الشاعرة المجروحة التي تحمل هموم أمتها، ويصف الهلال بأنه كقلامة ظفر فئة الوحوش الذين يسومون الناس سوء العذابات والآهات، ويجرعونهم الويلات تحقيقاً لرغباتهم الشيطانية مصالحهم الاستعمارية.

---

(1) البرغوثي، مقام عراق. (ص10).

(2)المرجع السابق. (ص10).

وأفاد الشاعر بأن الهلال يكون كقلامة ظفر الرجال الأحرار الأبطال الذين يحمون تراب أوطانهم ويدافعون عنها، فهم كلامهم قليل بليغ تدل عليه أفعالهم في ساحات القتال، وترتبط أرواحهم بالسور القرآنية التي تتسم بالبيان والوضوح، ويحفظونها جيداً في إدارة الصراع ومنازلة المستعمرين.

إن تناص الكتابة استخدمه البرغوثي ليبين العمق التاريخي لمجتمعه وأمته التي ينتمي إليها، فعرف الإنسان "الكتابة من القديم وعمل على تطويرها حتى وصلت إلى هذا الشكل، "شعر الإنسان منذ البداية بعجزه عن تذكر الأحداث، والأعداد، والتواريخ، فعمل على تدوينها في صورة ثابتة يمكن الاحتفاظ بها والرجوع إليها كلما دعت الحاجة"[1]، إنه أجرى تناصاً أدبياً مع ذكره للبلاغة التي هي "وضع الكلام في موضعه من طول وإيجاز، وتأدية المعنى أداءً واضحاً بعبارة صحيحة فصيحة، لها في النفس أثر خلاب، مع ملاءمة كل كلام للمقام الذي يقال فيه، وللمخاطبين به"[2] كل هذه المتناصات تتعلق بالنثر العربي، وكذلك وظف السور التي هي "إحدى سُور القرآن الكريم، وعددها مائة وأربع عشرة سورة، وأسماء السُّوَر كلّها مؤنَّثة"[3]، والتي تتسم بالبيان؛ لقوله تعالى:﴿**وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ**﴾[4]، كل هذه التناصات في النثر ومتعلقاته تعمل على توضيح المعنى وربطه بمقومات الهوية العربية، وقال:

يا صباحاً تأجل

شهدت تفرع تاريخنا كقرون الغزال

وتحملت صحبتنا ما استطعت

رغيفاً يغمس بالزيت فجراً

دنانير يرمي بها الشعراء لخمارهم

لا لتبذيرهم بل لأن الدنانير ليست تليق بشعر يقال

ووجهاً لجارية تتقن العربية لكنها خلطت بين زاي وذال

---

(1) حسين، التحرير الأدبي. (ص11).

(2) عتيق. علم المعاني. (ص10).

(3) عمر وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة. (ج1133/2).

(4) [البقرة: 99].

وترساً عتيقاً توارثه بائع الخز عن جده البدوي

يفاجئه كلما احتاجه أنه لم يزل صالحاً للقتال

وتحملت صحبتنا ما استطعت

ترى ما ترى من قبيح فتغضب منا

إلى أن ترى ما ترى من جمال[1]

أجرى الشاعر تناصاً مع التاريخ الذي هو أحد أنواع الكتابة النثرية وأحد صورها ويهتم بتوثيق الأحداث والوقائع ورصدها وتسجيل تاريخ الأمة، وتاريخ الأمة العربية في عصرنا الحديث يتسم بالتذبذب والضياع والانقسام.

كما تحدث عن الدخلاء ومثل لهم بالجارية التي تغنى بها الشعراء وشياطينهم، وهذه الجارية أعجمية تخلط في كلامها المنثور بين الزاي والذال وهذا يقدح في نسبها وأصلها وفصلها، وهنا يرسل الشاعر رسالة مفادها أن الأمة العربية لا يمكن أن ترتقي من خلال الدخلاء والعبيد والجواري.

إن عالم الجماليات المرسوم ينبع مما خلفه الأجداد من كتابات منثورة تحمل في طياتها الأمجاد والتاريخ الحقيقي لأمة العرب والمسلمين، تلك الصورة البهية التي نقشها أبطال الشعوب العربية على مر الحقب التاريخية، تلك الحقيقة الغائبة عن الزعامات المعاصرة التي فقدت بوصلتها بسبب تبعيتها، فالشاعر في تناصه النثري رفع من حيوية قصائده التي تؤثر في نفسية القارئ وتؤصل لمعنى جديد أودعه في ثنايا نصوصه الإبداعية.

ووظف البرغوثي النثر في صلب قصائده ليوصل رسائله للعالم المحيط به ولجمهوره الذي يتابعه، فيقول:

أيها الصفحة المستديرة

ليست بياضاً تماماً

وليست سواداً تماماً

وليس يضيع عليها الكلام

وليس يسجل[2]

---

(1) البرغوثي، مقام عراق. (ص12-13).

(2) المرجع السابق. (ص14).

استخدم البرغوثي لفظة الصفحة وهي من أدوات الكتابة التي ينثر عليها الكلام، والبياض في الصفحة يدل على الفراغ، والسواد يدل على امتلاء الورقة بالكلام، كما استخدم التسجيل الذي يفيد تقييد الكلام المنثور وتحويله إلى رموز كتابية متعارف عليها، كما نلحظ أن البرغوثي أكثر من المعاني المنفية غير المنطقية التي لا توصل إلى معنى "لا شيء"، ، فكيف تكون الصفحة مستديرة وليس ببيضاء ولا سوداء، ولا يضيع ولا يسجل، كل ذلك يوحي بحالة من التيه وعدم الانضباط في تناثر الجهود وفقدان البوصلة في تنظيم الأمور وترتيبها في ظل ما تشهده الساحة العربية من أوجه متعددة للغزو والاستعمار المعلن والمخفي، ففلسطين تئن والعراق تفرّق وأصبح شيعاً، وسوريا فيها معارك طاحنة على السلطة، واليمن فيها نزاعات، والعالم العربي في سبات عميق وفي حيرة من أمره، فالأخ يتآمر على أخيه، والدول تتقاطع فيما بينها، إن الاستعمار لم يترك بصماته على البلدان العربية حتى تفتت عضدها، وهذا ما دفع البرغوثي للتمرد على مستوى كلماته التي أصدرها بكل قوة وعناد لتبرهن عمّا يجيش في قلبه من مواقف وآراء حيال طبيعة الحياة التي يعيشها الإنسان في العالم العربي، فالبرغوثي شاعر مثقف وسياسي له آراؤه وكتاباته التي يؤمن بها وله وجهة نظره التي يحتفظ بها في موضوعات كثيرة تتعلق بالواقع العربي، فمن الطبيعي جداً أن نجده يكثر من استخدام المنثورات الكتابية.

ووظف البرغوثي شخصية المسيح المنتظر كرمز للخلاص من النجاسة والتطهر من الأدران التي أضفتها الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المتسلطة على شعوبها، فقال:

إن المسيح المنتظر

مستقبل في ظله نمت التواريخ السوالف كالشجر

والله أعلم ما يكون إذا ظهر[1]

يؤكد البرغوثي على قضية المسيح المنتظر ويؤمن بالخلاص والتطهير من خلال ظهور المسيح الذي سيزيل الظلم وينشر العدل، وهذا الحديث عليه كلام منثور كثير، ويبين البرغوثي أن المسيح المنتظر كثر عليه الكلام ودارت حوله كثير من الروايات، ولكن يبقى ذلك في علم الغيب ولكنه كالأحلام التي يتمناها كثير من الناس البسطاء العاجزين الذين يحلمون بتغيير الواقع بأقوالهم وليس بأفعالهم، أن ظهور المسيح عليه السلام مرتبط بالله علام الغيوب.

(1) البرغوثي، في القدس. (ص84).

ووظف البرغوثي الوصف في صورة نثرية متصلة على لسان الهلال، "فيلعب الوصف إلى جانب السرد والحوار دوراً أساسياً وفعّالاً في إكمال بنيان العمل وتشييده بطريقة فنية، صحيح أن الوصف قد يبلغ من الأهمية والمهارة ما به يغني عن سائر الأدوات القصصية، عندما يمكن من تقديم قصة في شكل صورة أدبية، أو حتى في شكل رسوم أو لوحات"[1]، فرمز البرغوثي بالهلال للحاكم العربي، فيقول:

فقال الهلال

أنا الاحتمال

أنا الزعم أن اللإضاءة في الليل ممكنة دون أن تظلم النار زيتاً

ودون افتخار الدخان بلا وجه حق على العالمين

أنا الليل حين يخالف فطرته ويضيء

أنا الاحتمال الضئيل

أقول لكم إن شمساً، وإن فارقت، ما تزال هنا

في زوايا السماء

ووجهي عليها الدليل

أن الاحتمال الخفيف الثقيل

أنا كلما أضعف الله ضوئي طالبتكم أن تروني أكثر

هاتوا مناظيركم واستعدوا

أنا الأمل المستغل الذي دائماً يطلب المستحيل[2]

يرمز البرغوثي بالهلال للزعيم العربي المتعالي ويبرهن على ذلك من خلال الكشف عن الذاتية المقلقة التي يتمتع بها الحكام والسلاطين، ويكشف عن حالة التموج والتخبط التي تشهدها الساحات العربية نتيجة المشاكل الاجتماعية التي يعاني منها الإنسان العربي، وتبعية أنظمة الحكم وعدم استقلالها، كما أكثر البرغوثي من استخدام الضمير (أنا) ليدلل على الذات المتعالية

(1) مشعل، الوصف في تجربة إبراهيم نصر الله الروائية. (ص327).

(2) البرغوثي، مقام عراق. (ص16-17).

للحاكم العربي والتي يحاول صاحبها أن يغطي على عجزها فيعوضها بالكلام. وهذه النظرة المتعالية للحاكم العربي جعلت البرغوثي يثور ويتمرد بكل هدوء على هذا الحاكم الذي يرتهن حياة الناس ويسلب حرياتهم في تبعيتهم له وانطوائهم تحت تعليماته وإرشاداته التي يطلقها. ويجري الشاعر حواراً بين نوار والتاريخ، فوظف التناص مع الوقائع التاريخية وأحداثها التي وثقتها كتب التاريخ بكلام منثور، فيقول:

"أتظنين تركيا ستعلن دخول الحرب مع ألمانيا"

"هل يدخلون دمشق؟"

هل سترد أنطاكية الإفرنج أم يصلون حتى القدس؟

ما قال الخليفة للمبلغ أنهم وصلوا؟

أيبقى من بني مروان من أحد؟

علام تظن أن قريشاً اجتمعت بدار الندوة؟

صبي لعمك يا نوار القهوة

يا بنت كفي عن إثارته

فعمك مجرم

الله يعلم كم من الأقوام أفنى

غير منتبه لما صنعت يداه

غير مكترث بهم

لا تغضبيه فإنه رجل بطيء الرد

لكن ليس بالرجل الحليم[1]

أجرى الشاعر حواراً مع التاريخ وأضفى عليه الحياة، والحوار يعد من خصائص القصص التي تنتمي إلى جنس النثر، لكن هذا الحوار حمل دلالات كثيرة وأسئلة مفتوحة لحوادث تاريخية لها نتائجها في الماضي ودلالاتها في الواقع الذي يعيشه البرغوثي وما ستؤول إليه الأمور في العالم العربي.

---

(1) البرغوثي. في القدس. (ص63).

فتطرق إلى أحداث تاريخية منثورة في كتب التاريخ كدخول تركيا في تحالف مع ألمانيا في إحدى الحروب العالمية، فيتساءل الشاعر عن الظن بعودة التحالفات، ويعرج على الدول العربية ويتساءل عن حال دمشق التي أوجعتها آلام النعرات التي تحياها الآن، ويسأل عن نخوة العثمانيين وخلافتهم الراحلة التي كانت تحمي بيت المقدس، إنه يجري حواراً وتساؤلات محورية تتعلق بأحداث وحقائق تاريخية تكشف زيف الواقع ومرارته بين أبناء الشعوب العربية وانعكاساته السلبية على وضع مدينة القدس وما تتعرض له من أعمال عدوانية وهمجية من قبل الاحتلال الصهيوني.

وتعرض للأحداث التاريخية المتعلقة بقبيلة قريش وفيه إشارة إلى بعض الأسر الحاكمة ذات النظام الملكي في العالم العربي، ويكشف عن اجتماع قريش في دار الندوة أي الِاجْتِمَاع للمشورة والرأي، وَكَانَت الدَّار الَّتِي اتخذها قصي لذَلِك يُقَال لَهَا دَار الندوة، وَهَذِه الدَّار صَارَت بعد بني عبد الدَّار إِلَى حَكِيم بن حزَام بن خويلد بن أَسد بن عبد الْعُزَّى بن قصي، فَبَاعَهَا فِي الْإِسْلَام بِمِائَة ألف دِرْهَم. وَذَلِكَ فِي زمن مُعَاوِيَة، فلامه مُعَاوِيَة فِي ذَلِك. وَقَالَ: أبعت مكرمَة آبَائِك وشرفهم؟ فَقَالَ حَكِيم: ذهبت المكارم إِلَّا التَّقْوَى، وَالله لقد اشْتَرَيْتهَا فِي الْجَاهِلِيَّة بزق خمر، وَقد بعتها بِمِائَة ألف دِرْهَم، وأشهدكم أَن ثمنهَا فِي سَبِيل الله، فأيّنا المغبون؟"[1]، ويستمر الشاعر في كشف الحقائق التاريخية وطبيعة التاريخ وكتاباته التي تتسم بأنها تسجل ما يدور في الزمان من أحداث ووقائع فالتاريخ لا يرحم، وكم من القبائل والأقوام قد أفناهم، وكم من الأشخاص طواهم بيده الطائلة إنه لا يرحم في إحقاق الحق وقول العدل غير مكترث بالنتائج تاركاً ذلك للزمن.

وواصل البرغوثي استكمال المشهد في حواره التناصي بين التاريخ ونوار؛ فيقول:

أعلمت فيم أتي إلينا اليوم؟

صبي قهوة أخرى

نوار أتذكرين بحرب لبنان الأخيرة

كنت ترمين البذور على الجبال

وكنت حين سألت:" ماذا تصنعين؟"

أجبتني:

(1) السهيلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، (ج36/2).

"أن السماء إذا الطيور ملأنها

قد لا ترانا الطائرات خلالها"

قد جاء عمك بين أسراب الحمام

وحط عندك

قال إنك كنت طيبةً فجاء يراك

هل ستعيش إسرائيل بين المؤمنين؟

سألت نوار عمها

وفضول عينيها جميل كالطفولةفكرةً

وحياتها في لحظتين تعلقت بجوابه

ورأيته للمرة الأولى تبسم منذ آلاف السنين

هذا سؤال تعرفين جوابه يا حلوة

صبي لعمك يا نوار القهوة[1]

يخاطب البرغوثي التاريخ من خلال التناص الذي استحضر من خلاله الوقائع التي شهدتها المنطقة من صراعات وحروب شنتها قوى الظلم والطغيان على الشعوب العربية البريئة التي لا تمتلك إلا العزيمة والإرادة الثورية، فوظف الحدث التاريخي المعاصر الذي انتصرت فيه المقاومة الإسلامية في لبنان عام 2006م على العدو الصهيوني، ووظف القول المأثور النثري عن عمر بن عبد العزيز(ﷺ): "انثروا القمح على رؤوس الجبال، حتى لا يقال جاع طير في بلاد المسلمين"، فيدل التناص النثري على معاني النصر التي تحتاجها الأمة العربية والإسلامية؛ لتتحرر من الظلم والطغيان وكأن هذه الانتصارات نثرت معاني العزة والكرامة والصمود والثبات أمام آلات البطش الاستعمارية في بلاد العرب والمسلمين، ويتعرض البرغوثي لمسألة الحدث التاريخي المتعلق بالكيان الصهيوني المسخ الذي ضرب أطنابه بين المؤمنين ذلك السرطان الخبيث في جسد الأمة العربية والإسلامية.

ووظف البرغوثي السرد النثري في استحضار شخصية أبي الطيب المتنبي وفتح معها حواراً شعرياً، فيقول:

---

(1)البرغوثي، في القدس. (ص64-65).

"أرى العراق طويل الليل"

يا أبا الطيب، قد كنا أخذنا عليك عهداً أن لا يجوز الشعر بعدك

كان الشعر سراً وأذعته،قمرأ أنزلته وفرقته على التلاميذ

فأعطيت كلاً منهم قطعة عليها اسمك

لا يجاور شعرك بعدها إلا نثر وإن اتزن

فكيف سمحت لذلك الهاوي المبتدئ المسمى بالتاريخ

أن يكتب كل هذه المراثي إذن

كيف سمحت له أن يلزم أبياتك معنى لم يكن فيها

كيف كان له أن يحول كلامك إلى ركائب خيش يملؤها بما يشاء

ليس التاريخ شاعراً يا جدي، لكنه يغشش الشعراء

قاتل يطعم العصافير، ومثله لا يؤتمن

فكيف سمحت إذن[1]

نثر الشاعر التناص الشعري وطوعه لقصيدته النثرية في إحدى مقطوعاته الشعرية السابقة، فبدأها بتناص من بيت أبي الطيب المتنبي الذي يقول فيه:

أَرى العِراقَ طَويلَ اللَّيْلِ مُذْ نُعِيَتْ فكَيْفَ لَيْلُ فَتى الفِتْيانِ في حَلَبِ[2]

ويفتح البرغوثي مع المتنبي حواراً نثرياً شعرياً يتطرق من خلاله إلى تحول الشعر إلى نثر موزون كما فعل هو نفسه بشعر أبي الطيب، ويتحدث الشاعر عن الجوانب النثرية التاريخية التي غشش بها التاريخ الشعراء ليوردها في ثنايا قصائدهم الشعرية التي في دواوينهم، تلك الأجناس تتحول إلى نثر شعري تتفاعل من خلاله مشاعر البرغوثي وأحاسيسه للتعبير عن حال العراق وما آلت إليه الأمور فيها من خراب ودمار على يد الغزاة الطاغين الذين نشروا القتل وألوان الموت للشجر والحجر والبشر.

(1) البرغوثي، مقام عراق. (ص23).

(2) المتنبي، ديوانه (ص434)

ووظف البرغوثي الآذان ذلك الكلام المنثور الذي يخبر عن موعد الصلوات وميقاتها، ليبين حالة الغضب والتمرد والثورة التي يمر بها؛ فيقول:

أنا من أذن تحت القصف فجراً

أفتل الصوت حبالاً

أربط الأفق بها أن يتهاوى

مثل إعصار وبحار وقارب

كل من أذن في بغداد مثلي

ألف بحار وبحار يشدون سماء كالمراكب

تتهاوى ونشد

أنا بشار بن برد[1]

من الملاحظ أن البرغوثي شاعر استطاع أن يستقرئ التاريخ النثري لأمته العربية والإسلامية، فمن الطبيعي أن نجده قد أبدع في حياكة قصائده وسبكها واستطاع أن يؤثر في سامعيه فعبر عما تجيش به نفسه في ظل توالي الأحداث والوقائع التي نجد لها صدى في قصائده الشعرية.

مما سبق يتضح لنا أن المتناصات الشعرية التي استخدمها البرغوثي من الحوادث والأقوال تدلل على قدرة البرغوثي الشعرية سواء تعلقت بالجانب الديني أو التاريخي وهي في حقيقتها إسقاطات للواقع والأوضاع التي يحياها الشاعر، فالأحداث والوقائع التاريخية لها أدواتها النثرية وتقنياتها الكتابية التي استطاع الشاعر توظيفها بشكل ملموس من خلال الإشارات المتوفرة في النصوص؛ ليدلل على مدى الثقافة التي يكتنزها في ذاته المبدعة والتي يحملها في عقليته الفذة التي أبدعت في مجال الفن نصوصاً فيها كثير من الدلالات والمعاني التي تجيش بها نفس الشاعر.

(1) البرغوثي، مقام عراق. (ص33).

المبحث الثالث: التناص الذاتي

التناص تشكيل نص جديدمن نصوص سابقة أو معاصرة تشكيلاً وظيفياً، فيغدو النص المتناص "خلاصة لعدد من النصوص التي أمحت الحدود بينها"[1]، فهي تتداخل فيما بينها لتصبح نصاً متكاملاً يشكل في جوهره القصائد المتناثرة التي أنتجها الأديب في دواوينه التي تنتمي لجنس الشعر، فالتناص الداخلي يبرز عندما" تكون الخلفية النصية التي يتفاعل الكاتبمعها مشتركة"[2]، ويلاحظ أن البرغوثي وظف خلفيات ثقافية كثيرة مزجها في نصوصه الشعرية؛ لتشكل متناصات متفاعلة فيما بينها، ومن الأمثلة على التناص الذاتي في قصائد البرغوثي:

- **الشعر الفصيح**

وظف البرغوثي الشعر الفصيح في قصائده المختلفة التي حملت في داخلها تناصات شعرية مختلفة، وكما هو معروف فالنص القديم يختلف عن النص الجديد وتركيبه ومعانيه، فافتتح ديوانه " مقام عراق" بشعر عربي فصيح على نظام الشطرين، ومن ثم عدل إلى الشعر المنثور في القصيدة نفسها، وكذلك الحال في ديوان في القدس، فيقول في أولى قصائده:

مررنـــا علـــى دار الحبيـــب فردنـــا عـن الـدار قـانون الأعـادي وسـورها
فقلـــت لنفســـي ربمـــا هـــي نعمـــة فمـاذا تـرى فـي القـدس حـين تزورهـا
تـــرى كـــل مـــا لا تســـتطيع احتمالـــه إذا مـا بـدت مـن جانـب الـدرب دورهـا
ومـــا كـــل نفـــس حـــين تلقـــى حبيبهـــا تســـــر ولا كـــــل الغيـــــاب يضـــــيرها
فـــإن ســـــرها قبـــل الفـــراق لقـــاؤه فلـــيس بمـــأمون عليهـــا ســـــرورها

في القدس بائع خضرة من جورجيا برم بزوجته
يفكر في قضاء إجازة أو في طلاء البيت
في القدس توراة وكهل جاء من منهاتن العليا
يفقه فتية البولون في أحكامها
في القدس شرطي من الأحباش
يغلق شارعاً في السوق[3]

---

(1) البادي،التناص في الشعر العربي الحديث "البرغوثي نموذجاً".(ص29).
(2) يقطين. انفتاح النص الروائي.(ص123).
(3) البرغوثي. في القدس. (ص7).

إن ما يجمع بين الشعر العمودي والحر هو التفعيلة التي ترد في صلب البيت، فالوزن مرتكز أساسي في عملية نظم الشعر عند البرغوثي، فمهما تعدد الشكل الخارجي للقصيدة فإن الجذر يوحد بينهما ويخرجهما نصاً متكاملاً ببنيته العميقة ، فإذا كان الوزن هو الجذر فإن الإيقاع "الشجرة: غصونها وأوراقها التي تتغذى من الجذر، ولا تستغني عنه، ولكنها مع ذلك شيء إضافي مختلف عنه، والجذر وحده لا يكفي لنمتلك شجرة وارفة، ففي الأغصان تداخل وفي الأوراق تنوع وظلال"[1]، فيرتبط الوزن بالإيقاع في الأسطر الشعرية من الشعر الحر المبني على شكل منثور؛ ليمنح البرغوثي مزيداً من الحرية في طرح فكره داخل شكل القصيدة المنجز.

وافتتح مطلع قصيدته "في القدس" التي سمى بها ديوانه، بمقدمة طللية وهي البكاء على الديار والأطلال والأماكن التي تسكن في الفكر والوجدان، وهذا من طبائع شعراء الجاهلية، ونلمسه كسمة بارزة في شعر المعلقات، فهو يتذكر القدس ومكانتها في ذاته المبدعة ويستطلع مكانتها في الوجدان العربي والمسلم، فهذه العادة الفنية والموضوعية التي ركن إليها البرغوثي تعد من صميم التناص الأدبي الذي وظفه في شعره الفصيح المنجز الذي نوع فيه من أدواته التعبيرية على مستوى الشكل والموضوعات الشعرية والأفكار التي أراد أن يعبر عنها.

وقال من الشعر الفصيح على شكل عمودي، قصيدته التي عبر بها عن فخره واعتزازه بأصالة شعره وما يطرحه من خلال قصائده، فوجه خطابه العام للجمهور، فيقول:

أيهـــا النـــاس أنـــتم الأمـــراء ... بكـــم الأرض والســـماء ســـواء
يـــا نجومـــاً تمشـــي علـــى قـــدميها ... كلمـــا أظلـــم الزمـــان أضـــاؤوا
قـــد عـــلا فـــي كـــل الأمـــاكن صـــوتي ... مـــا بـــي المـــال لا ولا الأســـماء
بغيتـــي أمـــركم يـــرد إلـــيكم ... فلكـــم فيـــه بيعـــة وبـــراءُ
لا يكـــن بيـــنكم وبـــين هـــواكم ... عنـــد إبـــرام أمـــركم وكـــلاء
ثـــم إنـــي أحكـــي حكايـــة قـــوم ... لغـــة الله خبـــزهم والمـــاء
وخطـــاهم فـــي الأرض تســـطر شـــعراً ... هذبتـــه الســـراء والضـــراء
فـــإذا مـــا قلنـــا القصـــيد فإنـــا ... للـــذي يكتبونـــه قـــراء
وإذا مـــا سُـــئلت مـــن شـــاعر القـــوم ... غـــدا قلـــت أنـــتم الشـــعراء
وأرى أبلـــغ القصـــائد طـــرا ... أننـــا فـــي زماننـــا أحيـــاء[2]

(1)عبيد الله. النثر في الشعر: صور من التفاعل في تجربة محمود درويش، (ص100).
(2)البرغوثي. في القدس. (ص169).

يتحدث البرغوثي عن سبب نظمه لقصيدته التي أراد من خلالها أن يعبر عن واقع أمته وحال شعبه، فهو يعتز ويفتخر بولائه لأبناء شعبه الفلسطيني العربي المسلم، ذلك الحس الوطني الذي أضفى على الشعر الفصيح رونقه الخاص مع المحافظة على ديباجة الفصحى في البناء الفني للقصائد، فالجمهور هو حكم للقصيدة البرغوثية المعاصرة التي سطرها من سراء شعبه وضرائه، وطور في متناصاته من أدواته الفنية المستخدمة، فعمد إلى التخميس الذي يُسمى في الشعر العربي القديم بالمسمط " وقالوا فيه هو أن يبتدئ الشاعر ببيت مصرع –ذي قافيتين– ثم يأتي بأربعة أقسمة على غير قافيته، ثم يعيد قسيماً واحدًا من جنس ما ابتدأ به، وهكذا إلى آخر القصيدة، والقافية اللازمة في القصيدة التي تكرر في التسميط تسمى عمود القصيدة، ويقال للقصيدة من ذلك النوع مسمطة وسمطية"[1]، وقد خمّس البرغوثي قصيدة أبي الطيب المتنبي التي امتدح فيها سيف الدولة الحمداني، فيقول:" وأن أكتب تخميسي للقصيدة الجليلة السابقة في هذا الزمان غير الجليل، معتمداً على قلب معانيها لانقلاب زمانها، وأن أغير ما تعود عليه ضمائر أبي الطيب، فبدلاً من أن يكون موضوع قصيدة أبي الطيب موقعة بين سيف الدولة والروم عند قلعة الحدث، يكون موضوعها بعد التخميس وصفاً لذاتنا جمعاً وأفراداً في هذا الزمان، فأنا بصراحة أسرق أبا الطيب، لكنه جد سمح وذو كف ندية، ونحن ناسه شئنا أم أبينا، بل شاء هو أم أبى، والله المستعان"[2]، فيقول:

أقـــول لـــدار دهرهـــا لا يســـالم ومـــوت بأســـواق النفـــوس يســـاوم

وأوجـــه قتلـــى زينتهـــا المباســـم علـــى قـــدر أهـــل العـــزم تـــأتي العـــزائم

وتأتي على قدر الكرام المكارم

أتتنـــا ليـــالٍ لـــيس يحفـــظ جارهـــا ونـــار أســـى نـــار الجحـــيم شـــرارها

يفـــرق مـــا بـــين الرجـــال اختبارهـــا وتعظـــم فـــي عـــين الصـــغير صـــغارها

وتعظم في عين العظيم العظائم

وطـــاف أبونـــا الخضـــر ينـــذر قومـــه فمـــا كـــان أقســـى قلبـــه فأصـــمه

وقـــالوا لـــه هـــزءاً يريـــدون ذمـــه يكلـــف ســـيف الدولـــة الجـــيش همـــه

وتعجز عن ذاك الجيوش الخضارم[3]

---

(1) الرافعي، تاريخ آداب العرب.(ج3/254).

(2) البرغوثي. في القدس. (ص145–146).

(3) المرجع السابق. (ص147).

وظف البرغوثي شعر بشار بن برد الفصيح في ثنايا قصائده التي أبدعها، فاستدعى التناصات التي تعبر عن الواقع الذي يحياه الشاعر والرؤية التي يؤمن بها، فوقع التناص مع قول بشار:

كـــأنّ مثـــار النّقـــعِ فـــوق رؤوســـنا وأســـيافَنا ليـــلٌ تهـــاوى كواكبُـــه[1]

وقوله:

إبلـــيس أفضـــل مـــن أبـــيكم آدمٍ فتبيَّنـــوا يـــا معشـــر الفجـــار
النّـــار عنصـــره، وآدم طينـــةٌ والطِّـــين لا يســـمو ســـموَّ النّـــار[2]

إن استدعاء البرغوثي لهذه الأبيات الشعرية الفصيحة يؤكد ما يذهب إليه الشاعر من ضرورة الثورة والتجديد على صعيد المفاهيم التقليدية التي لم تثبت جدواها في تغيير الواقع وإصلاح حال المجتمعات العربية، إن روح التمرد ترسم الحياة الكريمة وتحقق قدراً كافياً من الحرية المغتصبة في المجتمعات العربية والإسلامية.

ووظف الشاعر الإيقاع الموسيقي في أشعاره الحرة التي ولدت نغمة موسيقية من خلال الحفاظ على التفعيلة التي يُبنى عليها البيت، فيقول:

قبلي ما بين عينيا اعتذاراً يا سماء
قد حملنا منك ما لا يحتمل
إن من أثقل ما يحمله المرء الهواء
حين يحوي كل ما تحوينه
أنت لوح حجري كتبت فيه وصايا الميتين
كاد يمحي من عليه من جمل
من توالي البرق والرعد على مر السنين
لم يدع إلا سطوراً معجمات كخطوط في جبين
أنت لوح حجري في بهاء
أنت لوح حجري من حنين
يخضع الأعناق ما بين كتوف الحاملين[3]

---

(1) ابن برد، ديوانه. (ج1/335).
(2) المرجع السابق (ج1/ 36).
(3) البرغوثي. في القدس. (ص70).

اهتم الشاعر في هذه المقطوعة بالإيقاع الموسيقي الذي يحافظ على غنائية الشعر المنجز وموسيقيته المنجزة في بناءات القصيدة التي يعبر من خلالها عن المضامين التي تدور في ذاته المبدعة التي لها رؤيتها ومشاعرها وأحاسيسها تجاه مختلف القضايا، إن الجرس الموسيقي في الأسطر الشعرية يسهم في حيوية النص الشعري لأنه يلفت انتباه جمهور المخاطبين، ويلاحظ أن كلمة (سماء، والهواء) و(الميتين، والسنين، وجبين، وحنين، والحاملين)، كلها كلمات لها نغمتها الموسيقية في تفعيلات الأسطر الشعرية التي أنتجها البرغوثي، وهذا يعزز أواصر التناص مع التراث العربي القديم الذي يركز على عنصري الموسيقي والغناء في الشعر؛ لأنه كان يُقال على سبيل الإنشاد والتغني.

- **الشعر العامي.**

وظف البرغوثي الشعر العامي في قصائده والذي يقول فيه الرافعي "إن ظهوره كان في أواخر القرن الأول للهجرة، بعد ظهور الغناء وانتشاره؛ لأن طبقات كثيرة من العامة –ومن حكمهم ممن لا أدب لهم–لا يطربون للغناء في الشعر الفصيح، وخاصة عامة أهل الشام، ولعلهم أصل الشعر العامي في العربية؛ لأن الفصيح استبحر في بلادهم، وهم مع ذلك أسقم الناس ألسنة، فكان لا بد لعامتهم من هذا الشعر"[1]، فنراه يقول:

طائفة من الحدادين المكفوفين نحن

ندق معادن لا نعلم أصولها

ونصبر أنفسنا على النار

حاسبين أننا نصنع شمساً من ذهب

والدهر يمشي على إيقاع مطارقنا[2]

يلاحظ أن الشاعر تحدث عن نشأة الشعر العامي وعفويته التي يمتاز بها، وهذا الشعر العامي لا يعرف قائله كالألحان الموسيقية التي ينتجها من يقرع الأواني الحديدية التي قيل أن النحاسين في العراق هم سبب نشأة فن العروض والقافية الذي ابتكره الخليل بن أحمد الفراهيدي، ويكشف لنا عن أثر الشعر العامي في التأثير في مشاعر الآخرين وتوجيههم، فيقول:

---

(1) الرافعي. تاريخ آداب العرب. (ج112/3).

(2) البرغوثي، مقام عراق. (ص27– 28).

وعلى الباب ينتظر الناس أن نخبز الشمس لهم

أتوا بالدراهم والدعوات[1]

يغنون لنا ولها:

يا شمس كوني لنفس المرء مطهرها ... يا شمس ولتجعلينا بعض داراتك

ويا بن آدم صم لله إن ترها ... وصل كي يغفر الرحمان زلاتك

هي التي كتبت في الكف أسطرها ... فأصبحت طرقاً تقتاد خطواتك

يا شيخ طائفة العميان كن عجلاً ... متى بربك هذا الأمر تنهيه[2]

إن سمة الغناء في الشعر العامي والموسيقا التي يتميز بها تعمل على جذب السامعين، فالشاعر هنا وظف الغناء العامي الذي في أشعاره، الذي يعد من المتناصات الواضحة في ديوانه "مقام عراق" الذي فيه نصوص متنوعة ترتبط بفن الشعر العامي ومتعلقاته، فنظم على فن المواليا الذي هو أحد أنواع الشعر العامي؛ وهو "شعر ينظم من بحر البسيط بعبارة عامية ملحونة وتقفَّى شطوره أربعة أربعة، ويقولون إن مولاة للبرامكة هي التي بدأت هذا الضرب، وهو الذي يعرف عندنا الآن بالموّال"[3]، فيقول:

بالله صبراً علينا يا موالينا ... في صنع شمسكم طالت لياليا

عميان نعمل في سوق الحديد ونجلوه ... إلى أن جلا شيب نواصينا

نصنع ما يطلب الشاري ونجهله ... ولا نرى كم من الأموال يعطينا

نقترض العيش من دنيا مرابية ... تسرقنا لا هدى الله المرابينا

قال الرجال اطرقوا شمساً لتهدينا ... تهدي البصير ولكن كيف تهدينا

عميان نطرق شمساً لم نكن أبداً ... عشاقها لا ولا كنا مباليا

ولا نرى أين ما تهوي مطارقنا ... ولا نبالي بما تأتيه أيدينا

لكننا رغم هذا العجز أرفع قدراً ... منك يا شمسنا إن كنت تدرينا

إن كنت طالعةً أو كنت غائبةً ... مهما فعلت فأمر ليس يعنينا

والشمس تاريخنا إذ لا مجاز هنا ... وإن عمينا فما تعمي معانينا

---

(1) البرغوثي، مقام عراق. (ص28).

(2) المرجع السابق. (ص28).

(3) ضيف. الفن ومذاهبه في الشعر العربي، (ص76).

نصـــنع تاريخنـــا عفـــواً ويصـــنعنا شـيخ وأعمـى وفيـه كـل مـا فينـا
ومنـــذ ألـــف مـــن الأعـــوام ينتظـــر الرجـال شمسـاً بهـا ظلـوا مجانينـا
شـــمس تعيـــد لهـــم أمـــواتهم زمـــراً ثـــم تقـــيم علـــى العـــدل الموازينـــا
وتـــرحم النـــاس مـــن دنيـــا معاويـــة وتنجـــز الأمـــر لـــم ينجـــز بصـــفينا
يـــا أهلنـــا اســـتمعوا عنـــدي لكـــم خبـــر يضـــنيكمو لـــو أداريـــه ويضـــنينا
لا شـمس بـل كـرة مـن معـدن طليـت ولـــــيس إشـــــراقها إلا تلاوينـــــا
يـــا مـــن نـــذرتم إذا عـــاد الأولـــى ذهبـــوا ســـتبذرون إلـــى الطـــف الرياحينـــا
لا لـــن يعـــودوا لكـــم قطعـــاً لأنهمـــوا مـــا بـــين أضـــلعكم ظلـــوا مســـاجينا[1]

لقد عزز فن المواليا الألحان الموسيقية التي وظفها الشاعر تميم البرغوثي في التعبير عن الحالة الشعورية التي يمر بها، مما كثف من وجود التناصات الموسيقية التي أنتجت نغمات موسيقية ترتاح إليها الأذن البشرية وتستطيع أن تؤثر في المخاطبين وتعمل على حيوية النص الشعري في القصائد التي أنتجها البرغوثي، فقال:

لـــــذكرهم لا للعـــــذل إطراقـــــي يـــا عـــاذلي والســـراب آمـــاقي
مـــن كـــان ذا شـــوق واحـــد فأنـــا أقمـــت فـــي الصـــدر عيـــد أشـــواق
بـــــلا إلهـــــي قيســـــاً بواحـــــدةٍ مـــن المهـــا وابتليـــت بالبـــاقي

أنا سليمان وأحبابي بلا قيس

عشر أذرع جدايلهن بلا قيس

إلهي بواحدة منهن بلا "قيس"

وأنا ربي بلاني بالبقية[2]

فن الأبوذية في الشعر العامي العراقي، تقرأ بالعامية العراقية فلا بد من مراعاة التشكيل، "والأبوذية من أشكال المواويل العراقية، تتكون من أربعة أشطر من البحر الوافر(مفاعلتن، مفاعلتن، فعول)[3]، ينتهي كل شطر من الأشطر الثلاثة الأولى بجناسٍ تام، وينتهي الشطر

(1) البرغوثي، مقام عراق. (ص28-91).
(2) المرجع السابق، (ص69).
(3) ويكبيديا، "ما هي الأبوذية؟" (موقع الكتروني).

الرابع بياء مشددة وهاء، ومن عادة مغنّي المقامات أن يغنوا الشعر الفصيح أولاً ثم يعيدوا صياغته في قالب الأبوذية بالدارجة لتقريبه، ولا يتغير معنى الأبوذية في هذا السياق عن معنى الأبيات الفصيحة، "بلا قيس" الأولى جمع بلقيس ملكة سبأ، و"بلا قيس" الثانية مركبةمن كلمتين فالمقصود "بلا" و"قيس" أي بلا قياس، والمعنى أن جدائل أحبابي طولها عشر أذرع بدون قياس، فالقائل لم يلمس شعر أحبته للبعد أو للحرمة، "بلا قيس" الثالثة مركبة من كلمتين "بلا" الفعل الماضي أي امتحن و"قيس": أي قيس بن الملوح مجنون بني عامر،والمعنى أن الله بلا قيساً بواحدة من الأحباب، أما أنا فابتلاني الله بالبقية، مطابقاً لمعنى البيت الفصيح"[1].

وقال البرغوثي:

أقـــول لدمعـــة بـــالعين حـــارت عليـــك العـــار مالـــك لـــم تراقـــي

إذا مـــا كنـــت عالمـــة فقـــولي ألا كـــم كـــربلاء بـــالعراق

هواكم سار مع دمي بالعراق

نخل سارح واكو منجل بالعراق

وكم حسين داست خيل أمية[2]

تقرأ كلمة "بالعراق" بكسر الباء وحذف الألف وكسر اللام ثم تسكين العين، أي جذوره، و"سارح" أي باسق، و"أكو" كلمة معجمة باللهجة العراقية تعني "يوجد" والمعنى أن النخل باسق إلى الأعلى إلا أن ثمة منجلاً موضوعاً عند الجذور يهدده "بالعراق" الثالثة مقصودة بها البلد والبيت تكرار للبيت الفصيح، وقال البرغوثي أيضاً:

أميـــــر المـــــؤمنين خـــــلاك ذم أتـــدري مـــا أصـــاب المؤمنينـــا

زمـــان هـــون الأحـــرار منـــا فـــديت وحكـــم الأنـــذال فينـــا

فمـــا زلنـــا نلـــوم علـــى ذوينـــا ونهـــدي الاعتـــذار إلـــى بنينـــا

فلـــو متنـــا وقيـــل لنـــا اســـتعيدوا حيـــاتكم القديمـــة مـــا رضـــينا

كأنـــا عـــابرون علـــى ســـراط إذ جزنـــا فلســـنا عائـــدينا

(1) البرغوثي، مقام عراق (ص 67-70).

(2) المرجع السابق (ص 71).

أمير المؤمنين وإنت عدنا

كريم الكف توفي إن تعدنا

سل الأرواح ترضن أن تعدنه

يجاوبنك: عبرنا وهاي هيَّه[1]

يقصد البرغوثي بلفظة "إنت عدنا" الأولى أي أنت عندنا؛ حيثُ إن نون "عند" تحذف في الدارجة العراقية عند إضافتها لضمير الجماعة، وبقية المعنى في البيت اللاحق "إن تعدنا" الثانية أي عندما تعدنا وعدا، ومعنى النداء في البيتين، يا أمير المؤمنين وأنت عندنا، أي في اعتقادنا، كريم الكف توفي بوعودك إذا وعدتنا، اسأل أرواحنا إن كن يردن العودة إلى الأبدان، "ترضن" لهجة في"ترضين" بخطاب جمع المؤنث، و"أن تعدنه" في البيت الثالث خطاب للأرواح، و"هاي هيه" تعبير بالدارجة العراقية معناه الحرفي "هذه هي" والتعبير يفيد عدم التكرار ونهائية الرأي والحكم، والمعنى يا أمير المؤمنين، سل الأرواح إن كن يرضين أن يعدن إلى الأبدان بعد الموت، فإنك إن سألتهن سيجبنك قائلات قد عبرنا في تلك الحياة مرة ولا نريد تكرارها، إن الشعر العامي من شأنه أن يخدم الشعر الفصيح ويتماشى معه من خلال التناص مع الشعر العامي، مما يزيد من فاعلية النص الشعري المنجز.

- **الدراسات**

يتسم الشاعر تميم البرغوثي بأنه شاعر متنوع الثقافات؛ ولديه مخزون معلوماتي كبير، ولديه ذاكرة موسوعية يحفظ من خلالها كثير من المعارف من شتى العلوم والآداب والفنون للحضارات المختلفة، فمن الطبيعي أن يورد في شعره متناصات لها علاقة بالدراسات والكتب والأبحاث التي ترتبط بالعلوم المختلفة، فوظف الأحاديث والأخبار وسند رواياتها وقواميس اللغة والمغازي والفتوحات، فيقول:

فخبر جزاك الله خيراً عن العميان كل حديث واحفظ السندا

يا نخل واختصر الأخبار في خبر كما يقطر أهل الطب غابة أعشاب

بنقطة ماء

أو كما حزم البدو البيوت على أكتافهم ومضوا

---

(1)البرغوثي، مقام عراق (ص 72).

أو مثلما اختصرت "الله أكبر" إن تحسب تلاوينها

رف قواميس من مثل كتاب ابن منظور

وذاك إذا ما الدارس اقتصدا

لا يسمح الفاتح الغازي لمن هزموا أن يأخذوا معهم أخبارهم[1]

وظف علم الحديث الذي يهتم بحفظ الرواة واتصال سندهم حتى تكون أحاديثَ صحيحة معتبرة، وتعرض لمسألة كتب الأخبار والعلوم التي تعبر عن ثقافات المجتمعات في عصر من العصور، وتطرق إلى الاختصارات التي تتعلق بالدراسات والعلوم، وتحدث عن القواميس التي تشكل نواة رئيسة للدراسات المعقودة، فهي ذات حجم كبير يحوي مزيداً من المعلومات، وأشهرها بين الدارسين معجم "لسان العرب" لابن منظور الإفريقي (ت711هـ)، وبين حقيقة أخبار المغازي والفتوحات في إشارته للهزائم والانتصارات وما يتعلق بها من أخبار.

ووظف الشاعر الدراسات المتعلقة بعلم الجغرافيا في الكشف عن المصائب التي جلبتها التقسيمات الاستعمارية في العالم العربي، فيقول[2]:

أكنت تعلم بهذا الويل المتقن والقتل العمومي؟

والطائرات تعيد تعريف السماء لنا، والخطوط الحمر تعيد تعريف الأرض

جعلت الخريطة عجوزا متصابية طاعنة في ألوانها الاصطناعية

أي عدوان على جدتك الوقور أشد من أن يلون لها صبية الحي وجهها بهذه الحدود الدولية!

"أرى العراق طويل اللّيل مذ نعيت فكيف ليل فتى الفتيان في حلب"

صح اللسان، الليل نقيض هذه الألوان، يهبط عل الخريطة كالحجاب

يستر العجوز والصبية، ويضمهما معاً

في المصيبة

يوظف الشاعر مصطلحات وألفاظ تتعلق بالدراسات الجغرافية وعلومها؛ ليدلل على حالة التشرذم والفرقة والنزاعات الطائفية التي حلت بالوطن العربي، فكلمات (تعريف السماء والخطوط

(1)البرغوثي، مقام عراق. (ص37).

(2)المرجع السابق. (ص26).

الحمر والأرض والحدود الدولية والعراق وحلب والخريطة)، كلها ترتبط بالحيز الجغرافي الموجود في الوطن العربي.

وظف البرغوثي الدراسات التي تتعلق بالمنطق والحساب وتفسير الرؤيا والنبوءة؛ ليبين حالة التخبط وعدم الاستقرار التي هي نتاج الخروج عن المألوف والتفكير بشكل غير معقول، فيقول:

"أرى العراق طويل الليل"

أكنت تعني رأي العين،

ليلاً حسياً طويلاً،

تزيده حرارة الجو

وغلاظة رقاب الأمراء،

يجفل من حولها الهواء

تاركاً فراغاً خانقاً لأي حي يقترب؟

أم كنت تعني رأي أهل الحساب والمنطق،

أن من يملك الجنة يعش بين نارين،

نار الدفاع عنها إن بقيت،

ونار الندم على خسرانها إن ضاعت؟

أم كنت تعني رأي الرؤيا؟

كأنك أصبت من النبوة بعضها،

في أي بلورة نظرت؟[1]

استخدم البرغوثي الجانب الفلسفي المبني على الحساب والمنطق الذي يخاطب العقل ويبث الحكمة في استكشاف الأشياء وتفسير الرؤى والنبوءات التي تتعلق بالأحلام والأماني التي يفكر بها الإنسان العربي، ويحاول تفسير أحداث الواقع المزري في الوطن العربي وما يتعرض له من مآسٍ وآهات.

---

(1)البرغوثي، مقام عراق. (ص24-25).

وتحدث البرغوثي عن دراسات الفلك من خلال التعبير عن الموضوعات الشعرية التي تجيش بها نفسه، فيقول:

أي بلورة تحملت أن تمر عليها مشاهد تاريخنا بعدك،

دون أن تنفجر؟

أي كتاب من كتب الفلك

لم يحترق من الأحداث المتوقعة في طالعنا؟

في أي كف أو جبين رأيتنا يا جد،

وأي شيء رأيت؟[1]

يدخل البرغوثي الفكر الفلكي وحساباته المنطقية في تعليل الظواهر السياسية التي أنتجها الواقع القهري في العالم العربي، ويبين مسببات الأشياء ومكونات الأزمات التي تستنبت بين المجتمعات العربية، ويتحدث عن الانفجار الثوري الذي يشابه نظرية الانفجار العظيم التي يتممن خلالها التعليل لسبب نشأة الكون؛ كل ذلك ليتنبأ بمصير الأحداث ويتوقع مجرياتها من خلال الارتكاز على القضايا التي تخاطب المنطق في دراسات علم الفلك، والتي بدورها شكلت متناصات لها دلالاتها في القصائد الشعرية التي أنتجها البرغوثي.

ووظف البرغوثي الدراسات المتعلقة بعلم الطب من خلال الإشارات اللغوية لذلك في المضامين الشعرية المطروحة في القصائد؛ فيقول:

هل رأيت علبة الأسبرين وحدها تماماً في مركز الأورام؟
هل رأيت ذلك الإيمان العصبي عند الأمهات أن موت الأطفال قضاء وقدر؟
هل رأيت الشيب في مفارق السعف، وخشونة الجذوع تسكن أصوات البنات؟
هل رأيت وقفة الجندي يطلب مرتبه من عدوه ثم لا يعطيه؟
هل رأيت بعد ذلك استشهاده؟[2]

استخدم البرغوثي التناص من الدراسات الطبية ومتعلقاتها في التعبير عن حالته الشعرية ورسم صورها وترجمة انفعالاتها الوجدانية، فوظف الأسبرين الذي يعد من العقاقير الطبية التي تسكن الآلام وتخفضها ولكنها لا تقضي عليها في آنية، وكأن ذلك تشبيه بالمقترحات التي

(1)البرغوثي، مقام عراق. (ص 25).
(2) المرجع السابق (ص25).

تستهدف قتل كرامة الإنسان العربي ووأد ثورته ومطالبه العادلة في مواجهته للظلم والثورة على الطغيان، واستخدم مركز الأورام لبيان المؤامرات الخبيثة التي تشبه الداء السرطاني الذي يستشري في جسد الأمة العربية، ويستعرض حال الضحايا الذين يقضون نحبهم جراء الممارسات الاستعمارية الطاغية، والكشف عن تعليلات المرض بعد العجز عن كشف العلة الأساسية بأن ذلك قضاء وقدر فكل أمر المؤمن قضاء من عند الله وقدره، ولكن المسببات القاتلة واضحة في ظل تعدد أوجه الاستعمار للعالم العربي.

إن البرغوثي قد وظف التناص ضمن قصائده الشعرية التي توحي بالمعين الذي تتمتع به شاعريته، التي برهن من خلالها على مقدرة الشاعر الفلسطيني من إنشاء نصوص شعرية تنبض بالأصالة في بنيتها الفنية وموضوعاتها التي يسكب من خلالها الشاعر ما يدور في تفكيره ووجدانه؛ ليرسم صورة شعرية وشعورية متفاعلة تنطلق من الإيمان بالمبادئ والقيم والأصول التي تمثل ثقافة المجتمعات العربية والإسلامية في مواجهة الظلم والطغيان الذي تتعرض له.

الفصل الثالث

معمارية التناص

الفصل الثالث

معمارية التناص

يمثل الشعر قوالب فنية قائمة بذاتها لها خواصها التركيبية التي تتكون منها في ظل تعدد الأجناس الأدبية، وهذه الأجناس لها معمارها الذي تمتاز به، بمعنى أن العملية الإبداعية تتمركز في مكوناتها على المعمار الفني الذي يسكب من خلاله الأديب إبداعاته التي لها أساليبها وأدواتها في التعبير عن مشاعره وأحاسيسه التي يقدمها لنا من خلال نصوصه.

ويتفاعل المبدع مع نصوصه ويصب فيها مشاعره التي ينقلها للمتلقي الذي يستقرئ هذه المشاعر ويحاول فهمها وتمثلها أمام حضرة النص الذي أنتجه المبدع، فكلما كان المبدع ماهراً في بناء فنه الأدبي كان أثره أكثر عمقاً في نفسية المخاطب الذي يتولى تحليل النص الأدبي الذي ينتمي لجنس فني أبدعه الأديب، فجنس الشعر يمثل قالب فني يحمل في مكوناته التعابير والمضامين التي تدور في خلد المبدع لينقلها إلى المخاطبين؛ لكي يقفوا على رسائلها وجماليات أساليبها وتراكيبها التي تحمل أبعاداً ذات معانٍ نابعة من خيال الشاعر ورؤيته البيانية التي يرسم من خلالها الصورة التي يسكب فيها كل مشاعره؛ ليلامس شغاف قلوب المخاطبين ويؤثر فيهم؛ للتفاعل مع نصه الشعري الذي أنتجه، فالجنس الأدبي فن معماري، "فكل جنس يتميز تميزاً واضحاً عن غيره من الأجناس الأدبية، كما أنه يخضع لقواعد خاصة به لا بد للأديب أن يتقيد بها"[1]، بمعنى أن المعمار الفني يتخذ قوالب معيارية يمكن من خلالها بناء وإنتاج كثير من الإبداعات في مضمار الشعر، ومع تطور البناءات الفنية وأجناسها في العصر الحديث برز اتجاه يرمي إلى" عدم التمسك بهذه التفرقة الشكلية لفنون الأدب، كما يدعو إلى الاهتمام بتمييز أغراض الأدب في أجناسه المختلفة"[2]، ونجد أن تميم البرغوثي في معمارية التناص وتجلياته في البناء الفني يتمثل بهذا الاتجاه من حيث قراءته المتعمقة التي تتسم بشمولية المعرفة وعمومها في العملية الإبداعية لديه، فيكتنز في ذاته المبدعة ألواناً شتى من الأساليب والأدوات النابعة من مشاعره وأحاسيسه الأدبية، التي تنبع من أعماق نفسه وذاته التي لها رؤيتها في عالم الأدب والفن، ولها مكنوزاتها في الفكر والثقافة، حيث الاتجاهات والآراء التي تحدد وجهة نظر البرغوثي؛ لذلك نجده يكتنز تناصات متنوعة الألوان ومختلفة الأساليب في نسجها داخل نصوص قصائده التي تتمحور حول موضوعات ومضامين متنوعة، تمثل مصادر تجربته الشعرية التي سبق أن تحدثنا عنها في الفصل الأول من هذا البحث.

---

(1) وهبة والمهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، (ص141).

(2) المرجع السابق، (ص141).

المبحث الأول: الدراما

تعود كلمة الدراما في اشتقاقاتها إلى كلمة يونانية تعني يفعل أو يسلك[1]، وتم تعريب هذه الكلمة وتداولها في الثقافة العربية وانتشارها بين أوساط المتعلمين والباحثين والدارسين، وينطوي تحت لواء هذا المصطلح كثير من الأجناس الأدبية التي ترجع أصولها إلى الدراما، كالقصة والمسرحية، وترتبط الدراما في التعبير عن الحالة الشعورية التي يمر بها المبدع عند صناعة النص الأدبي وتشكيل بناءاته الفنية والمسرحية "وضع حياتي ما أو تتابع إحداث في الحياة الحقيقية ذو تعاقب مسرحي، أو له ميزات المضمون المسرحي"[2]، فالدراما تتعلق بتصوير طبيعة الأشياء أو تفاصيلها الواقعية التي يطرحها المبدع في بناءات نصوصه التي يريد التعبير عنها وعن تفاصيلها، ولقد أكثر البرغوثي من استخدام ذلك في صلب قصائده، ومن الأمثلة على ذلك قول البرغوثي:

أَمْسَكَتْ بيدِ الصَّباحِ تُرِيهِ كيفَ النقشُ بالألوانِ،

وَهْوَ يقول: "لا بل هكذا"،

فَتَقُولُ: "لا بل هكذا"[3]

وظف البرغوثي الدراما في شعره السابق وذلك من خلال تشكيل بنائه الفني انطلاقاً من التعبير الدرامي المتفاعل على مستوى بنية القصيدة الفنية، ولعل النفس الشعري والشعوري الذي يمتلكه الشاعر جعله ينتج أدباً متفاعلاً ينبع من وحي القلب ويبث لواعجه، فوظف الدراما في تشبيهه للصباح بأنه إنسان قد أمسك بيده وأخذ يقوده وفتح حواراً درامياً له أبعاده على مستوى المضمون والشكل فهو يضفي معاني ودلالات تبين مكانة الموضوع الذي يتحدث عنه الشاعر ويحاول إبرازه في الشكل الفني المطروح والموجه لجمهور المخاطبين، فهو يمثل حالة نفسية لها ارتباطاتها في التعبير عن مكوناتها أمام تقلبات الدهر الذي يحياه البرغوثي، ويُعلم بأن الأديب ابن بيئته فهو استطاع أن يبلور الأسلوب الدرامي المبني على أسلوب الحوار الخارجي الذي يلفت انتباه المخاطبين ويستهوي مشاعرهم ويستنهضها من أجل التعرف على مكامن القصيدة والكشف عن خيوط الإبداع الفني المتراكم في أبنية النصوص ومرجعياتها، فهذا التناص وتوظيفه في هيكلية البنية النصية لقصائد البرغوثي يسهم بصورة متفاعلة في تشكيل الجنس الأدبي الذي

---

(1)فتحي، إبراهيم. معجم المصطلحات الأدبية، (ص159).

(2) نصار، معجم المصطلحات الأدبية(عربي – إنجليزي)،(ص118)

(3) البرغوثي، في القدس، (ص8).

تنتمي إليه إبداعات البرغوثي في شتى المواضيع والمضامين، ولم يقتصر البرغوثي على توظيف جماليات التعبير والوقوف عندها وتوسيع أبعادها الدلالية لإثارة النوازع النفسية عند المخاطبين، بمعنى أن الدراما مع وجود التناص في أجزاء من مكوناتها تعمل على إثراء النصوص وحيويتها، فأضفى البرغوثي الحياة على الصباح بطريقة مجازية، بمعنى أنه استطاع أن يضيف الحياة على الصباح ذلك الكائن الذي يبلور طبيعة الحياة ونشاطاتها، فإجراء الكلام على لسان الصباح يسهم في حيوية المشهد الشعري المطروح وطبيعة التصوير الفني في بناء القصيدة وطبيعة موضوعها المتكامل، ويسري الحوار بين خلجات النفس، ليظهر برسومه وحدوده في البنية الفنية التي يتعامل معها المخاطبين ويحاولون فهم طبيعتها والتعرف على رسالتها التي أودعها فيها المبدع، فالناظر في المقطوعة السابقة يرى أن البرغوثي أجرى الحوار بطريقة مجازية مع الأنثى التي فتحت حوارات تنم عن رسائل تتعلق بطبيعة الجدل في إثبات النفس والتعبير عن تفاصيلها، فاستخدم في ذلك أسلوب الاستفهام، وبرزت ظاهرة التكرار في البنية الفنية التي أنتج من خلالها الشاعر إبداعاته، فالبنية الأسلوبية للدراما ساهمت في حيويتها عند المخاطبين لأن أسلوب الاستفهام يفيد طلب الفهم في كيفية النقش والرسم بالألوان، وعلاوة على ذلك برزت ظاهرة التكرار بطريقة مجازية لها دلالاتها النفسية العميقة التي تعبر عن محاولة إثبات الذات بين الوجود والعدم، فكرر الشاعر لفظة (يقول) و(تقول) وكلاهما يعود لجذر واحد، وكرر كذلك الأسلوب " لا بل هكذا"، الذي يعبر عن حالة الصراع والجدلية بين الواقع والمأمول، واستخدم تقنية علامة التنصيص ليبرز طبيعة الكلام المتداول ويلفت الانتباه إليه في تشكيل طبيعة الصراع الذي وقع بين الصباح والأنثى المجازية ونفس الشاعر وهذا في حد ذاته له تفاعلاته وإنتاجاته على مستوى مضمون وشكل القصيدة، فاستخدام الشاعر لتقنية الاستفهام والتكرار وعلامة التنصيص يعمل على حيوية الحوار الدرامي ويزيد من درجة تأثيره على إبداعات النص المنجز الذي أودعه البرغوثي كثيراً من المعاني في البنية الكلية للنص والتي تعد المقطوعة السابقة جزءاً لا يتجزأ منها، فكلما كانت التقنيات متنوعة داخل بينة درامية متفاعلة يرفع من درجات التأثير على المبدع والنص والمُخاطب، بمعنى أن التنويع في البنية الأسلوبية للدراما يعمل على زيادة الفهم وتوسيع المدارك حول النص وبناءاته الفنية المتنوعة.

ويلاحظ أن البرغوثي أجرى التناص مع الدراما في إجراء الحوار مع الجمادات وإضفاء روح الحياة عليها، وأنسنة المكان بطريقة درامية متفاعلة لها معطياتها على صعيد مضامين النص ومحاوره المختلفة، وأكثر ما أجرى معه البرغوثي التناص مدينة القدس التي لها مكانة

وجدانية خاصة في إبداعات البرغوثي وأقواله، فقداسة المكان لها ظلالها في إبداعات الفلسطينيين، خاصة وأنت تتحدث عن القدس، فيقول:

في القدس رائحةٌ تُلَخِّصُ بابلاً والهندَ في دكانِ عطارٍ

بخانِ الزيتْ

واللهِ رائحةٌ لها لغةٌ سَتَفْهَمُها إذا أصْغَيتْ

وتقولُ لي

إذ يطلقونَ قنابل الغاز المسيِّلِ للدموعِ عَلَيَّ:

"لا تحفل بهم"

وتفوحُ من بعدِ انحسارِ الغازِ، وَهْيَ تقولُ لي:[1]

عبر البرغوثي بحواره الدرامي عن التتابع التاريخي للحضارات على ثرى فلسطين التاريخية، وتعاقب الثقافات ومعالمها في مدينة القدس، فتجد في القدس التناص التاريخي البارز في أخاديد المدينة وأصالة عمقها العربي والإسلامي، فرائحة أسواق العطارة تجمع روائح من عادات الأمم وتقاليد الشعوب فهي ماثلة في مدينة القدس يدل على عبق أصالتها وقوة روابطها وصلاتها مع حضارات الأرض، فسوق خان الزيت الذي له معالمه التاريخية ذلك المكان الذي له مكانته ودلالته في ذهن البرغوثي والمخاطبين، ويؤكد الشاعر بأسلوبه الدرامي الوصفي المجازي بأن القدس مدينة تفهم اللغات وتفقهها وتعلم جيداً مرامي الحديث ومغازي القول.

فتح البرغوثي حواراً درامياً يعبر فيه عن تقنية الحلم والأمل بالتحرر من الواقع المزري الذي تحياه مدينة القدس، فأثبت هذا الحوار الحالة الشعورية التي انتابت الشاعر وهزت كيانه في إصباغ مشاعره بها والذود عن حياضها ونقل آلامها وآمالها، يبين حالة الضياع والمآسي التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني حتى الحجارة لانت لحالهم والأمة العربية لم تحرك ساكناً لنصرة الشعب الفلسطيني والقدس الشريف الأرض العربية الإسلامية، تحدث الشاعر بحواره الرامي عن حالات الفوضى والشغب والاعتداءات التي ينفذها الطغاة من بني يهود على أرض القدس المبارك.

---

(1)البرغوثي، في القدس (ص9).

إن الجواب الدرامي المتمرد يرسم روح الأمل وحالة الصمود والثبات في وجه العدو الغاصب، فعزز التناص الدرامي تيار الثورة على مستوى الأبيات الشعرية والمعاني التي وظفها الشاعر، وأراد إيصالها لجمهور المخاطبين، فوظف الشاعر تقنية التناص في بنية درامية لها أساليبها وأدواتها في إثارة انتباه المخاطبين وشد أذهانهم من أجل بيان الحقيقة المتعلقة بقضية القدس، لقد أصبحت قضية القدس محورية في بنية الحوار الدرامي المطروح في النص الشعري الذي أبدعه البرغوثي، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعداه إلى إضفاء روح التفاعل والحيوية على بنية النص ومضامينه داخل الأسلوب الحواري المستخدم في قصائد البرغوثي، مما جعل بنية النص لها دلالاتها التي تتكون منها ومعانيها التي تنطلق منها.

ووظف الدراما في قصيدتة حديث الكساء ووحدة الأمة، فيقول:

أقول

دخان كثيف

يوزن بالأطنان

يعبر الخرائط

إن ترفع يدك لا تراها

والناس يصدم بعضهم بعضاً كسيارات الملاهي

فان تتبّعتَ الدخان إلى مصدره

وصلت إلى غليون القيصر[1]

يكشف البرغوثي بطريقة تعبيره وأسلوبه الدرامي عن حال الأمة، وواقعها المزري وما تتعرض له من مآسٍ ونكبات على مر الدهور والأزمان، تلك الحروب الحارقات وألوان العدوان السري والمعلن الذي جلب الخراب والدمار لأمة العرب والمسلمين، ذلك الدخان الكثيف الذي يوحي بمدى عِظم المآسي والآهات التي تعرض لها الشعب العربي على يد الاستعمار وقوى الاستكبار العالمية، تلك الأطنان من الأسلحة وآلات القتل المختلفة التي زج بها الطغاة على جسد الأمة المسلمة، والتي طالت كلبلدان العالم العربي والإسلامي وكل أماكنه الجغرافية، فعم

(1) البرغوثي، في القدس (ص37).

الظلام الدامس وانحصر الأفق حتى أنك تخرج يدك لم تكد تراها، وهذا تناص ديني ضمن التناص الدرامي أضاف هالات دلالية على بنية النص وإثراء تصويره الفني وتفاعلاته.

ويصور البرغوثي بأسلوب السرد والوصف حالة الهلع والتشرد والخوف في مشهد دراماتيكي تراجيدي يعبر عن عمق المأساة التي راح ضحيتها آلاف الأبرياء من العزل، وشبه حالة الفزع والروع التي تعرض لها الناس كسيارات الملاهي التي تعد ألعوبة للترفيه والتنزه، ويكشف البرغوثي بتصويره الدرامي بأن مصدر الدخان الكثيف وسببه يعود إلى غليون القيصر، أي يعود إلى الجهة الحاكمة الفاسدة التي تقتل شعبها، فاستخدم لفظة غليون التراثية التي يقصد بها أداة يوضع بها التبغ، وكذلك لفظة القيصر التي يقصد بها حاكم الشعب في قصوره الشاهقة، فأراد البرغوثي أن يكشف عن سبب النكبات بأنه يتمثل في القصور وسكانها من أهل البغي والظلم الذين جروا الويلات على الشعب العربي وأبطاله الأحرار.

جاءت الصورة الدرامية متفاعلة في تصوير طبيعة الظلم وسرد أجزائه ووصفه بطريقة شاملة رسمت الحدود والرسوم لطبيعة القصيدة المنجزة ومستوياتها الفنية التي ارتكزت على تقنية الدراما في توصيل رسائل نصوص بناءاتها التي من شأنها أن تسهم في سمو النص المنجز وقصائده عند البرغوثي، مما يرفع من درجة شاعريته في البوح بمشاعره وأحاسيسه وبلورة أفكاره بطريقة أدبية لها مراميها المباشرة وغير المباشرة التي تنبع من النص الذي أبدع حياكته البرغوثي.

واستخدم البرغوثي الأسلوب الأدبي فيتجسيد المشاعر ونقل الأفكار إلى المخاطبين، فيقول:

على هامش الصورة

جموع المشجعين

يضرب بعضهم بعضاً بالأحذية

شيوخ الدين

يبنون مساجد في الفضاء الخارجي

شيوخ السياسة،

يحملون الكراسيّ على رؤوسهم

كآلهة المصريين القدامى

شيوخ الكلام،

والكلام أمر عظيم،[1]

يبين الشاعر الصورة الدرامية التي رسمها لطبيعة الموقف القصصي الذي يعبر عنه ويبين حال الأمة التي تتنازع وتتقاتل كجمهور مشجعي الرياضة الذي سرعان ما تثور ثائرتهم

(1)البرغوثي، في القدس، (ص42-43).

لأتفه الأسباب وأدناها، ذلك المشهد التراجيدي يعبر عن حالة التمزق والتشتت التي تحياها الأمة العربية والإسلامية، ويرسم صورة لشيوخ الدين ومكانتهم المقدسة التي يتمركزون فيها وما يمارسونه من طقوس دينية في بناء معابدهم ومساجدهم ويطلقون لأنفسهم العنان في الفضاء الخارجي وآفاقه ومتخيلاته المترامية، ذلك الفضاء الدرامي الذي يبلور الطبيعة الأدبية للمشهد المرسوم، وتحدث عن شيوخ السياسة وباعة الكلام ويبين جشعهم في حب الحكم والرياسة وهم يحملون على رؤوسهم هم الدنيا وعذاباتها وشبههم كآلهة المصريين في صورة تناصية استندت إلى التاريخ؛ لتدلل على سيطرة السياسيين على مقدرات الشعوب ومتاجرتهم بها بحجج وذرائع مختلفة، إنهم باعة كلام لا أفعال، والكلام مبجل وعظيم له مكانته بينهم وهم يخطون ويرسمون، تلك الصورة الدرامية التي بلورها البرغوثي بتقنية التصوير الدرامي وحياكة المشاهد؛ ليتذوقها المخاطب بطريقة متفاعلة يفهم من خلاله رسائل النص ويستطيع أن يستكشف البناءات الفنية للقصيدة التي طرحها البرغوثي وأنجزها من خلال شاعريته، فقال البرغوثي:

رَغِيفاً يُغَمَّسُ بالزيت فجراً

دنانيرَ يرمي بها الشعراءُ لخَمَّارِهم

لا لتبذيرِهم بل لأنَّ الدنانيرَ ليست تليقُ بشعرٍ يقالْ

ووجهاً لجاريةٍ تتقنُ العَرَبِيَّةَ لكنَّها خلطت بين زايٍ وذالْ

وترساً عتيقاً توارَثَهُ بائعُ الخَزِّ عن جَدِّهِ البَدَوِيُّ[1]

تحدث الشاعر بطريقة درامية تصف الواقع الذي يحياه الإنسان العربي والفلسطيني في ظل تعدد أوجه الظلم والطغيان، فلم يعد صاحب الكلمة الحرة في مأمن من طغيان الحكام وأنصارهم، ويعبر الحدث الدرامي عن حالة الاختلاط والضعف والهوان في تولي الأعاجم من الجواري والقيان مسيرة الحياة عند بني يعرب، وما زال الإنسان العربي محافظاً على ترسه القديم وما توارثه عن أجداده في ظل تنوع ألوان الباعة المفرطين بالثوابت والمبادئ، فهذه الصورة الدرامية الوصفية تعبر عن الحالة الشعورية التي في نفس البرغوثي، فالتناص مع الدراما يسهم في حيوية نصوص الشعر المنجز في البنية الكلية لقصائد الديوان، وقال البرغوثي:

(1)البرغوثي، مقام عراق (ص13).

فصبراً زماني

ستدري، إذا أَذِنَ اللهُ لي فِيكَ،

أيَّ عَدُوٍّ كريمٍ تُعانِدْ[1]

يتحدث البرغوثي مع الزمن ليبث له مكامن نفسه وما يريد أن يعبر عنه، وفي ذلك دلالة على حالة القمع ومصادرة الحريات التي يتعرض لها أصحاب الكلمات الأبية، ويعبر البرغوثي عن المستقبل في قوله (ستدري) بأن العاقبة لمن ضحى وقدّم من أجل نيل الحرية والاستقلال، فالزمن مجهول غير واضح الأحداث والمجريات، مما يدلل على الحالة الشعورية المنتفضة التي تعاند وتواجه وتتصادم مع الوقائع والأحداث التي يحياها الإنسان العربي الفلسطيني.

وتحدث البرغوثي بصور درامية متنوعة المصادر والمشاهد، فاستحضر الظلام والنور والحق والزور والطفل والمارد والليل والجزء والكل، ووظفها بوصف درامي، فيقول:

ظلامٌ ونورٌ وحقٌّ وزورٌ وطفلٌ ومارِدْ

أنا الليلُ في النُّورِ والنُّورُ في الليلِ

والكُلُّ في الجزءِ والجزءُ في الكُلِّ

أعني المعاني جميعاً

ومعنايَ واحدْ[2]

رسم الشاعر صورة درامية متعددة الأقطاب، واستخدم لغة منطقية فيها متناصات مختلفة؛ مما يدلل على الحالة الشعورية التي يترجمها الشاعر من خلال إبداعات قصائده،

والتي عبر عنها بضمير المتكلم في وصفه الدرامي، وفي ذلك دلالة على إثبات نفسه وذاته في بنية أشعاره والمتناصات التي يستحضرها علاوة على الأسلوب الدرامي الوصفي، وقال أيضاً:

على قصفِ الطائراتِ الأميركية لبغدادْ

وقامَ جَدِّي، على أصواتِ المؤَذِّنين

يقيمونَ صلاةَ الفجرْ

حي المآذنَ تحتَ القصفِ تَبْتَهِلُ الشِّعرُ أنتِ وباقي الشِّعرِ مُنْتَحَلُ[3]

---

(1)البرغوثي، مقام عراق، (ص19).

(2) المرجع السابق (ص20).

(3)البرغوثي، مقام عراق، (ص27).

يرسم الشاعر صورة درامية للقصف والدمار وآلات الحقد الأمريكية التي تنفث الموت في أرجاء بغداد البلد العربي الأصيل، ويستحضر جده في الحدث الدرامي والطقوس الدينية التي تعبر عن العقيدة الراسخة في قلوب المؤمنين بها، والتي تتمثل في صلاة الفجر التي تنطلق من المآذن وتبث حياة القلوب وتؤنس البشر بنداء الرحمن، الذي يتغلب على صوت القصف وعنجهية آلات الموت، فتنوع المشاهد الدرامية يدعم فاعلية النص، فاستحضر البرغوثي القصف، والجد، والمؤذنين، وصلاة الفجر، والابتهالات، والشعر، والانتحال، كلها مشاهد تدلل على الحالة النفسية التي يمر بها الإنسان العربي والأحقاد التي تحيط به من كل جانب، وقال:

ووزعت قوات الاحتلال مناشيرَ فيها صورة مفترضةٌ لَه

في زيّ شيخ عربي

طالبٍ جامعي

أو امرأة مُنقبة[1]

يتحدث الشاعر من خلال تصوير درامي يجمع مواقف مختلفة ومشاهد متنوعة، يبين حقيقة المحتل المجرم وأوهامه الحاقدة على الأبرياء والمسالمين، وذلك من خلال الإرهاب النفسي الذي تمارسه قوى البغي والظلم، والتنكر بثياب العزل كالشيخ العربي أو الطالب الجامعي أو امرأة منقبة، تلك حالات الخداع والوهم المتجذّر في عقول الغزاة الظالمين، الذين انتهكوا أعراض المسلمين والأبرياء المساكين أمام كل العالم ومجالس حقوق الإنسان التي تندب حظ العيش ليل نهار في بلاد العرب والمسلمين من أجل السيطرة والتحكم بخيرات الشعوب وتحديد مصير حياتها وفق أطماعهم النازية ورؤاهم الشريرة الحبلى بالنوائب والمكائد، لتوزع أنواع الحزن والأسى بين أبناء الشعوب والأمم، فقال البرغوثي:

مأتمٌ في البلادْ

سُرادقةُ الليلُ

زخرفة مثل حالاتِ نفسٍ يبدل ربك ألوانها

فثم بكاءٌ رجاء وثم بكاءٌ عناد[2]

---

(1)البرغوثي، مقام عراق (ص65).

(2) المرجع السابق (ص76).

يتحدث الشاعر بصورة درامية ومشاهد تراجيدية تبعث الحزن والأسى من النفس المقموعة في هذه الحياة وأحوالها المتقلبة، ذلك إرهاب متنوع الأطراف ومختلف الغايات، ينشر أماكن الحزن والبلاء بين الأرجاء والأركان، في ظل وحشة العيش وظلام الليل الدامس، إن البكاء الرجاء والعناد يوحي بتنوع المصائب والمآسي وتعدد مآلاتها.

ووظف البرغوثي تقنية الاستباق في بنية نصوصه، وتنتمي هذه التقنية إلى عالم الدراما ومتعلقاته، فأجاد البرغوثي في استخدام المتناصات التي اقتبسها من وحي عالم الدراما، فيقول في قصيدة يا هيبة العرش الخلي من الملوك:

وكأن غيما ما

سيمطر للأنام خليفة

ومعلما[1]

لقد ساق البرغوثي الاستباق الدرامي في تصوير المشهد في استخدامه للفظة "غيم" التي تدل على قدوم المطر الذي ينزل خليفة ومعلم للبشرية، فأورد ذلك بطريقة درامية متفاعلة تبرز

مقدرة الكاتب على حياكة المشهد الدرامي والتصوير الفني الذي يترك آثاراً بارزة في نفوس المخاطبين، مما يشي بأن البرغوثي استطاع أن يبرز العمل الدرامي في نصوص قائدة، ويعزز من المعاني والدلالات والتعابير التي يريد إيصالها، والتي تمثل مشاعره وأحاسيسه وأفكاره التي بثها في إبداعه الشعري، فمكّن التناص البرغوثي من أداء رسالته في ظل احتدام موجات الصراع وتداخلها، فهو يتحدث في الأبيات الشعرية السابقة عن الحكام والولاة الذين اعتلوا سدة الرياسة ويبين حالة التعاقب الأزلي وتقلبات الدهر والحياة التي لا تبقى على حال وتتبدل بين الفينة والأخرى، كل ذلك يتعلق بالمشهد السياسي القائم في بلدان العالم العربي والإسلامي والنزاعات التي تسوقها الأهواء والأنواء في حب الرياسة والمناصب التي تطمع إليها السرائر التي تلهث خلف المتاع وتحقيق الرغبات، فمثّل التناص الدرامي محوراً رئيساً في بلورة وجدان البرغوثي وأفكاره، وانعكس ذلك على مضمون النص وبنائه الفني في طريقة العرض وأسلوب التعبير؛ فقال قصيدة "خط على القبر المؤقت":

(1) البرغوثي، مقام عراق (ص81).

أبو جهاد،

أبو إياد،

يدخلون من بوابات الله،

الباقون، كلا

فليبقوا خارجاً،

لم يموتوا بعد،[1]

وظف البرغوثي المشهد الدرامي في بنية أبياته السابقة، والتي تتمثل في تصويره لشخصية أبي جهاد وأبي إياد، تلك الشخصيات الوازنة في التاريخ الفلسطيني المعاصر، وهذا تناص متفاعل مع طبيعة الحدث، ويعزز من مضمون القصيدة، فقد أراد البرغوثي أن يؤكد من خلال تناصه على المكانة الرفيعة التي تبوأها الشهداء في رسم خُطى المجد والرفعة، ويبين مكانة المرجفين الذين لم يجودوا بدمائهم في سبيل رفعة الوطن والذود عن حياضه، تلك الحالة الدرامية التي فتح آفاقها البرغوثي مع شخصية أبي جهاد وأبي إياد تسهم في رسم صورة فنية متفاعلة وتوصل الرسالة بطريقة حيوية لجمهور المخاطبين، وتعمل على إثراء النص الشعري المنجز في دواوين البرغوثي، فالتناص من المرجعيات الرئيسة التي تعالج قضايا مختلفة يريد الشاعر الحديث عنها وتبليغ مقاصدها ومراميها في ظل تعدد الأفكار والأيدلوجيات التي يُشيد عليها المبدعون أفكارهم ومضامين نصوصهم المتنوعة التي تنتمي لأجناس أدبية مختلفة، وتبقى الدراما محك أساس في رسم الصورة الأدبية وضمان تفاعلاتها بين دوائر الإبداع، وقال في قصيدة أمير المؤمنين:

شَفَّت الصفحاتُ الباقيةُ عن كلامٍ ما:

ألا تَرَى النبوءة

سلاحهم يَهوِي

وسلاحنا يَصعدْ

نما لبلابٌ على الصاروخ،

والتفَّ عليه حتى كَسَاه

---

(1)البرغوثي، في القدس، (ص100).

ثم أزهرْ

صاح وَلَدٌ، الله أكبر

وهوى سقفُ إسرائيلْ

دخلوا إلى الملاجئ،

كالترابِ تحتَ البساط[1]

يفتح البرغوثي حواراً درامياً في الكشف عن زيف الحكام و فسادهم وحالة القداسة التي يحيطون بها أنفسهم وحاشيتهم، "ويتمثل نسيج القصة في اللغة والوصف والحوار والسرد وهو الذي يبرز الحدث، فلا بد من تنوع اللغة وفقًا لمستوياتها المختلفة، وليس المقصود بذلك التفاضل بين الفصحى والعامية بل هي مسألة أبعد من ذلك بكثير، والتقرير من الأمور التي تخل بنسيج القصة فهو يخبر بالحدث بدلا من أن يصوره، والنسيج والبناء وحدة واحدة لا يمكن الفصل بينهما، فالحدث والشخصيات والمعنى ولحظة التنوير والنسيج كلها تشكل قوام القصة القصيرة([2])، واستخدم تقنية المفارقات التصويرية في الحوار الدرامي من أجل إيصال رسالة الصمود والتحدي وحالة في مجابهة المحتل الغازي وأعوانه الأشرار الحاقدين على الأبطال، ويبين حالة الأمل في تحقيق الحرية والاستقلال، ويتحدث في وصفه الدرامي لطبيعة المشهد المطروح المتعلق بحالة مقاومة المحتل وزلزلة أركانه، ويذكر صرخات حناجر الأطفال الأحرار الذي يهز أركان إسرائيل الدولة المارقة؛ ليهوي سقفها وبنيانها، ويدب الرعب في نفوس اليهود ويصور هروبهم من الخوف والاختفاء في الملاجئ بالتراب تحت البساط، كل ما سبق يمثل الوصف الدرامي وتقنية الحوار والمفارقات التصويرية التي تخدم بنية النص وتضمن فاعليته من خلال التعالقات التناصية.

(1)البرغوثي، في القدس، (ص112).

(2) الشنطي. فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه (ص186).

المبحث الثاني: القصة

إن العمل القصصي لا يستوي حتى تتوافر له عناصر بذاتها. فهناك حوادث وأفعال تقع لأناس أو تحدث منهم، وبذلك يوجد العنصر الثاني وهو عنصر الشخصية. ووقوع الحادثة لا بد أن يكون في مكان وزمان، وهذا هو العنصر الثالث. ثم هناك الأسلوب الذي تسرد به الحادثة، والحديث الذي يقع بين الشخصيات، والعنصر الأخير هو الفكرة أو وجهة النظر، فكل قصة تعرض بالضرورة وجهة نظر في الحياة وبعض مشكلاتها. وكل العناصر السابقة ليست سوى أدوات تكشف لنا بها القصة عن طريقة المؤلف في النظر إلى الحياة، وفهمه لها، وموقفه العام منها[1].

و"يعتمد البناء الدرامي على المزاوجة التفاعلية بين ذات الشاعر ومحيطه الواقعي فلا يحصر الشاعر نفسه في الغنائية الذاتية بل يلجأ إلى الانصهار في بوتقة الأحداث ليتقاطع معها بشكل درامي حركي"[2].

فتمثل القصة بنية فنية لها معالمها وبناءاتها، ولها مكوناتها الرئيسة التي تمتاز بها عن غيرها، وارتكز البرغوثي على استعمال مكونات القصة، مما يدلل على الثقافة العالية التي يتمتع بها، فيقول البرغوثي في قصيدة خط على القبر المؤقت:

جـــمـــوع كـــل مـــن فيهـــا وحيـــدُ ووحشتـــــها تزيـــــد إذا تزيـــــدُ

وكـــــل فـوقـــه غيـــمٌ بخيـــلٌ وكـــلٌّ تحـــته أرضٌ تميـــــدُ
وكـــــل قـلـبـــه طيـــرٌ ملـــولٌ يـريـــد العيـــش بعـد ولا يريـــدُ
وكـــــل لابـــسٌ ثـوب المنايـــــا شـــهيدٌ فـــي جنازتـــه شـهيـــدُ
غريـب النـاس مـن يحيـا شـريداً وفـي المـوتـى لـه قبـرٌ شـريدُ
وللقبـر المؤقـت ألـف معنـى يضـيقُ بِهَـا علـى السِّـعة النشـيدُ
ومـا تبيـض بـالقمر الليـالـي ولـكـن هـنَّ حـين يغيـبُ سـودُ[3]

---

(1) إسماعيل، الأدب وفنونه–دراسة ونقد، (ص103).
(2) غنيم والهشيم، جماليات الشعر الإسلامي الفلسطيني المعاصر (ص81).
(3)البرغوثي، في القدس (ص94).

وظف البرغوثي القصة في بنية فنية تناصية ضمن النص المنجز، فتحدث عن حالة المعاناة وبدأ يسرد قصتها التي تمتاز بالاضطراب وعدم الاستقرار نتيجة ممارسات المحتل وجبروته الظالم، يبين طبيعة الموقف والحياة التي يحياها أهل فلسطين، فاستخدم كلمة كل التي تحمل دلالات من السرد والوصف، يعبر عن حالة الصمود الأسطوري وطبيعة مقاومة المحتل وما يتعرض له الأحرار وما يدفعونه من ثمن باهظ من أجل النيل من قوى الظلم والطغيان، ويتحدث عن حالة الموت وألوان الناس ودرجاتهم في القبور، وفي ذلك إشارة إلى المكانة التي تقدر بالبذل والتضحية والفداء في سبيل رفعة الوطن، ووظف الشاعر تقنية الترميز في استخدامه للفظة القمر التي يقصد بها الشهيد، ووظف تقنية المفارقة التصويرية في بيان مكانة الشهيد بوجوده وفنائه، وقال أيضاً:

نظرت إلى الأسئلةِ والإجابات،

قُلت: " هذا أنا"،

أتعبني الامتحان جدا

الحمد لله، انتهي[1]

وظف البرغوثي تقانة المونولوج (الحوار الداخلي) في الحديث عن الإثارات ومتعلقاتها التي يتعرض لها في حياته اليومية، فاستخدم الضمير أنا في حديثه مع نفسه وليعبر عن ذاته المقموعة التي تتعرض للتمحيص والاختبار الذي أرهقها على مر السنين والأزمان، فهو يحمد الله بأن الاختبار انتهي ولم يعد هناك ما يثير الهواجس والأوهام، وعلاوة على ذلك كوّن قصة متكاملة بناها على قضية الامتحان التي تثير التساؤلات والمخاوف في الذات من أجل الإيفاء بالمطلوب وإنتاج الحلول التي قد تكون صائبة أو خاطئة إنها حالة غير مستقرة تشهد فيها النفسية عذابات كثيرة، مما يبرهن على أن البرغوثي أسهم في دمج الحس الدرامي في بنية نصوصه وتفاعلاتها؛ وقال في قصيدة أمير المؤمنين:

في انقطاعِ الكهرباءْ

تحتَ القصفْ

وحدي في البيتْ

كنتُ ما أزالُ أحاولُ وصفَ الديارْ

(1)البرغوثي، في القدس (ص 102).

خط الأفق متعرج من حطام المباني

والدخان دعاء عابسْ[1]

أنتج البرغوثي قصة في بنية النص السابق تنطلق من وصف الحالة التي يحياها ويعيش فيها، يصور الحالة المأساوية المريرة التي يمر بها، والمعاناة التي يعيشها تحت وطأة الويلات القاتلة التي لا تميز بين شجر أو بشر أو حجر، إنها وحدة الذات في الساحة وافتقارها لما يسندها في الساحات والميادين، يشير إلى وصف الحالة الشعورية التي يمر بها بتقنية القصة التي وظفها في بنية نصه، ويبلور محاولاته في الوصف القصصي ويسترجع قواه من خلال تقنية الاسترجاع التي أراد أن يصور من خلالها الحالة المضطربة التي يعيشها في ظل انعدام الأفق وانتشار ألوان الدمار والموت التي لا تبقي ولا تذر.

"إن اختيار المشكلة أو المأزق تحرك باتجاه النهاية في عملية تنمية مقصودة صوب النهاية، وعلى الكاتب أن يتنبه إلى أهمية البداية فلا بد أن يختار من جمل الاستهلال ما يشد اهتمام القارئ ويثيره، كذلك فإنه ينبغي أن تتوفر في القصة عناصر التشويق والمفاجأة[2]، ويرسم البرغوثي صورته الشعرية من خلال التناص القصصي في بلورة الموضوع الذي يريد الحديث عنه ويكشف عن مشاعره وأحاسيسه وأفكاره، فيقول في قصيدة الأمر:

الخيلُ تركضُ في الشوارعِ

أوقفَ الشرطيّ سيلَ المركباتِ وفرَّ منها هارباً

خيلٌ رمت أوزارها في الريحِ

ثم تراكبت موجاتها بيضاً ذراها

الخيل تركض في الشوارعِ لا ترى إلا هواها

ركضا إلى الموت الحصين تحاصره

الموت مات لأنها لم تخشه[3]

---

(1)البرغوثي، في القدس، (ص108).

(2) الشنطي، فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه (ص191).

(3)البرغوثي، في القدس (ص128).

استطاع البرغوثي أن يوظف قصة قصيرة في صلب نصوصه فتحدث عن الحصان الهمجي الذي يركض في الشارع مع غياب كامل للوعي، في صورة متمردة لها آفاقها الدرامية في عالم القصة، تلك الخيول التي تصول وتجول في حالة من العبث والتصادم وكأن في ذلك إشارة لحالة الغليان والثوران الذي تحياه الشعوب المحتلة، فأثبتت القصة مغازي البرغوثي التي يرمي إلى إيصالها لجمهور المخاطبين. ثم يقول في قصيدة حصافة:

في ذات يومٍ حارق،

جلست لترضعَ طفلها تحت السماءِ

ناغي بخمس أصابع تهدي لثدي الأم شيئا من خدر

لم تبتسم[1]

يستخدم البرغوثي أسلوب القصة في استعراض الموضوعات التي يتحدث عنها، وهذا يذكرنا في البعد الوصفي الذي تنطلق منه القصة مما يوفر للكاتب مساحة كافية للتعبير عن جوهر ذاته المبدعة، فتقنية الزمن ارتكز عليها أدباء العربية في السرد القصصي ووصف الأحداث المترتبة عليه على لسان الشخصيات التي يدور بينها الحديث، ويلاحظ أن البرغوثي مزج تقنية التناص من القصة في بنية نصوصه الشعرية، حتى برز تيار المأساة والتراجيديا في نهاية قصته المؤلمة التي لم تبد فيها الابتسامة، إنما عقد الحزن على محيا الأم المقهورة التي ترضع طفلها وتواصل شق طريق الحياة.

استخدم البرغوثي تقنية الحوار القصصي مع تعبير مجازي يشعر بحالة التمرد التي يحياها المبدع والتي أراد أن يعبر عنها من خلال لغة خطابه الشعري، فقال في قصيدة سفينة نوح:

يطرق الموتُ أبوابهم مثل جيش احتلالْ

ويقول أنا الموتُ

جئت، افتحوا

كلما جئتكم قيلَ لي نائمونَ، افتحوا

يفتح الباب طفلٌ ويسأله وهو يفرك عينيهِ

---

(1)البرغوثي، في القدس، (ص137).

ماذا تريدْ؟
ويتركه حائراً في جواب السؤالْ[1]

نسج البرغوثي تقنية القصة في قصيدته الشعرية على الصراع بين الموت والحياة التي يمثلها الطفل البريء الذي لم يدرك مآلات الأمور وأجوبة التساؤلات والأطروحات، فحياكة الخطاب الشعري من خلال تقنية التناص القصصي يضفي على النص الشعري دلالات ومعاني تثري نصوص القصائد من خلال التقنيات والأساليب المستخدمة في صلب القصائد التي ترفع من درجة التناصات وتفاعلاتها بين الشعر والقصة، وتعدى الأمر ذلك إلى أن أصبحت تقنية القصة الدرامية لها آثارها العميقة في استجلاء معالم النصوص وملامحها الرئيسة التي من شأنها أن تسمو بدرجة فهم النصوص وتحليل موضوعاتها وبناءاتها الفنية المتناصة التي لها دلالاتها ومعانيها التي تعبر عنها والتي تمثل في جوهرها موقف البرغوثي من حالة الصراع في الوجود والموت وما يتعرض له الإنسان العربي والفلسطيني من عذابات وآهات أثّرت في طريقة تفكيره وتعبيره؛ لذلك دللت تقنية القصة على لمحات من رحلة العذاب في سبيل العيش بحياة كريمة، فتقنية القصة وأساليبها زادت من فاعلية المتناصات داخل البنية الفنية في الإنتاج الشعري عند البرغوثي كل ذلك يؤثر على دلالة القصائد، "فمن مظاهر الأسلوب القصصي المبالغة أحيانًا للتنبيه إلى النقط الهامة، والمفاجأة وذلك حين تتحقق النتائج قبل أوانها لطارئ من الطوارئ، والرمز حينما يكتفي بأول الحادثة أو الإشارة إليها ثم يترك للخيال مجال التصوير والإتمام[2]، فاستخدم البرغوثي الأسلوب القصصي المبني على وصف الموضوع الذي يريد الحديث عنه والتطرق إليه وتناوله بشيء من التفصيل، فيقول في قصيدته في القدس:

مرَرْنـــا عَلـــى دارِ الحبيـــب فرَدَّنـــا ... عَـنِ الـدارِ قـانونُ الأعـادي وسـورُها
فَقُلْـــتُ لنفســـي رُبمـــا هِـــيَ نِعْمَـــةٌ ... فمـاذا تـرَى فـي القـدسِ حـينَ تَزُورُهـا
تَـــرَى كُـــلَّ مـــا لا تســـتطيعُ احتِمالَـــهُ ... إذا مـا بَـدَتْ مـن جَانِـبِ الـدَّرْبِ دورُهـا
ومـــا كـــلُّ نفـــسٍ حـــينَ تَلْقَـــى حَبِيبَهـــا ... تُسَـــرُّ ولا كُـــلُّ الغِيـــابِ يُضِـــيرُها
فـــإن ســـرَّها قبـــلَ الفِـــراقِ لِقـــاؤُه ... فلـــيسَ بمـــأمونٍ عليهـــا ســـرُورُها
متـــى تُبْصِـــرِ القـــدسَ العتيقـــةَ مَـــرَّةً ... فســـوفَ تراهـــا العَـيْنُ حَيْـثُ تُـدِيرُها[3]

---

(1)البرغوثي، في القدس، (ص120).
(2) الشايب، الأسلوب (ص110).
(3)البرغوثي، في القدس، (ص3-4).

افتتح البرغوثي ديوانه بموضوع قصصي بمروره على الديار واستخدم "تقنية الاسترجاع القصصي في نسيج قصيدته والحديث عن مجرياتها، ويتعلق الأمر بقضية القدس التي لها مكانتها السامقة في الوجدان العربي والإسلامي[1]، والبرغوثي يمثل ظاهرة بارزة في المشهد الشعري الفلسطيني في اكتنازه حس ثقافي فريد يبرهن على شخصيته المتفاعلة التي لها أداؤها الفني والموضوعي والإبداعي في حقول معرفية مختلفة، ويستخدم تيار المناجاة في الحديث عن قضية القدس في قوله "فقلت لنفسي" إنها خلجات نفسية أثارها البرغوثي بتقنية القص الدرامية التي تعبر عن الحالة الشعورية تجاه الموضوع الذي يتحدث عنه، وتناول محاوره في صلب إبداعه الشعري تلك الصبغة الدرامية تضفي روح التفاعل بين أجزاء القصيدة وموضوعاتها التي تدلل على عمق التفكير الإبداعي في حياكة المشهد القصصي، واستخدام أساليبه في المعمار الفني للقصائد التي أنتجها في دواوينه.

استغرق البرغوثي وتعمق في الحديث بصوت مهموس نابع من وحي النفس الشاعرة التي بلورت ما يعتورها بتقنية القصة التي تبرز الموضوع، وتقرب فهمه من ذهن المتلقي، وإعادة تشكيل النص من خلال تقنية التناص مع تقنية القصة ومتعلقاتها، مما ينعكس على الجو العام للقصائد المنتجة وما يدور فيها من معانٍ وصور ودلالات يريد إيصالها لجمهور المتلقين، فالتناص وسيلة متفاعلة في بنية النص الشعري وتعمل على فتح ارتباطات على مستوى البنية والدلالة، مما يضمن تفاعلات داخلية وخارجية مع المنتج الشعري الذي أبدعته قريحة تميم البرغوثي، واستكمل سرده القصصي، فقال:

في القدسِ، بائعُ خضرةٍ من جورجيا برمٌ بزوجته

يفكرُ في قضاءِ إجازةٍ أو في طلاءِ البيتْ

في القدس، توراةٌ وكهلٌ جاءَ من مَنْهاتِنَ العُليا

يُفَقِّهُ فتيةَ البُولُونِ في أحكامها

في القدسِ شرطيٌ من الأحباشِ

يُغْلِقُ شَارِعاً في السوقِ،

رشَّاشٌ على مستوطنٍ لم يبلغِ العشرينَ،

قُبَّعة تُحَيِّي حائطَ المبكَى

(1) انظر: غنيم، كمال. الأدب الفلسطيني أوراق في الأدب والنقد، (ص11).

وسياحٌ من الإفرنجِ شُقْرٌ لا يَرَوْنَ القدسَ إطلاقاً

تَراهُم يأخذونَ لبعضهم صُوَراً

مَعَ امْرَأَةٍ تبيعُ الفِجْلَ في الساحاتِ طُولَ اليَومْ

في القدسِ أَسْوَارٌ مِنَ الريحانْ

في القدسِ مِتْرَاسٌ مِنَ الأَسْمَنْتْ

في القدسِ دَبَّ الجندُ مُنْتَعِلِينَ فوقَ الغَيمْ

في القدسِ صَلَّينا على الأَسْفَلْتْ

في القدسِ مَن في القدسِ إلا أَنْتْ[1]

استخدم الشاعر النبرة الإلقائية الإعلامية في توظيفه لتقنية القصة التي تعالقت مع الحوار الدرامي الإلقائي ومكونات القصة ذلك التداخل بين التقنيات والأساليب بلور صورة متفاعلة على مستوى الموضوع والمعمار الفني في تكوين معاني القصيدة وشكلها الذي يمثل المرتكز الأساس في ترتيب مضامينها، وهنا يبرز دور التناص بمختلف أنواعه، فالبرغوثي استحضر مزيداً من أنواع التناص في بنية نصه المنجز ومزيداً من الدلالات التي تخدم فلسفة قصيدته المتفاعلة كل ذلك يؤثر في صلب الخصائص ومتعلقاتها التي رسمها الشاعر بحسه الإبداعي.

أبدع البرغوثي في إنتاج التناصات في بنية نصه الشعري، فمزج بين التقنيات والأساليب المختلفة التي تخدم الصورة الكلية المتكاملة للنص المنتج، في زمن "تعقدت فيه الأصوات واحتدمت الرؤى والتبس الشعر بتواتر الحياة وصراعاتها"([2])، كل ذلك من شأنه أن يخدم طبيعة النصوص الشعرية ورسائلها ويحدد دلالاتها المختلفة، فالنص الشعري عند البرغوثي في قصيدته السابقة عبارة عن خليط من المتناصات التي تشد انتباه جمهور المخاطبين وتبرز الدلالات والمعاني أمام ناظر أعينهم، وإن كان ذلك من سمات الحداثة الشعرية وهناك تحفظات على ذلك الأمر، ولكن له ما يبرره في ظل ذوبان الهوية العربية وتعرض الذات الفلسطينية للسحق والتدمير، فرسم الشاعر صورة متكاملة تحمل بين جنباتها مزيداً من الدلالات النفسية الكامنة في شخصيته الشاعرة، مما أنتج على ساحة الأدب

(1) البرغوثي، في القدس، (ص3-4).

(2) فضل، أساليب الشعرية المعاصرة(ص122).

الفلسطيني المعاصر كثيراً من المتناصات التي تتسرب إلى عمق الفكر الشعري عند الأدباء والمبدعين.

بلور البرغوثي الحدث القصصي من خلال إبداعاته المتميزة في إنتاج القصائد من خلال دواوينه، التي تحمل شيئاً من حاجاته ورغبات مشاعره وأحاسيسه ورؤاه التي بثها في النص الشعري المتفاعل مع جمهور المخاطبين، فتوفر بنية النص القصصية تفاعلات مختلفة لها آثارها في فهم النص وتحليل رسائله، فيقول البرغوثي:

رأيــتُ المحــرِمَ يمشــي وحيــداً ... ينــادي ألا لا إلــهَ سِــواكْ
ثقــيلاً كــأنَّ السمــاءَ حديــدٌ ... خفيفــاً كــأنَّ الــبلادَ شِــرَاكْ
يُرِيــدُ الرَّحِيــلَ لكــلِّ الجِهــاتِ ... كَــأَنْ لا نجــاةَ لَــهُ أو هَــلاكْ
عَلَــى ظَهــرْهِ كُــلُّ مِيراثــِه ... يجــوبُ الــبِلادَ جَــوابَ المــلاكْ
يَقــُولُ الســلامُ عَلَيكُــم هُنَــا ... وَيَقُــولُ الســلامُ عَلَــيْكُم هُنَــاكْ[1]

نسج البرغوثي قصة تدور أحداثها حول المحرم الذي يطوف بالبيت العتيق وصورة درامية متنوعة الأجزاء ذات تموجات مختلفة توحي بدرامية الصورة وحيوية مشاهدها التصويرية المستوحاة من معالم مختلفة، فكيف يكون ثقيلاً هذا المحرم كالحديد وخفيفاً في الوقت نفسه، يشي ذلك بحالة التقلبات التي يتعايش معها الإنسان في العالم العربي، وتحدث عن الرحيل والهروب إلى عوالم مختلفة لعله يظفر بالمنال والرضا والنعيم.

ويصور الشاعر من خلال تقنية القصة حالة الجشع التي يحياها الإنسان العربي وسيرة الظلم الذي يخطه بيديه ويرسمه في عقليته المتحجرة التي تبطش وتفسد وتأكل حقوق الآخرين، وذلك عندما تحدث البرغوثي عن قضية الميراث التي لها صداها في واقع المجتمعات العربية المعاصرة، وانتهت القصة بكلمات مفتوحة لها سلاستها تتمثل في إلقاء التحية والسلام، وفي ذلك رسائل مفتوحة أراد الشاعر أن يوصلها من خلال هذه الخاتمة وانفتاح دلالاتها أمام جمهور المخاطبين الذين يفهمون رسائل النصوص ومضامينها.

وظف البرغوثي بنية القصة من خلال التناص على مستوى المضمون التاريخي واستدعائه وعلى مستوى التناص نفسه، فيقول البرغوثي:

---

(1)البرغوثي، مقام عراق، (ص62).

تُمسِكُه من يَدَيْهِ لغارِ حِراءٍ

وقلتَ لَهُ:

إنَّهُ هاهُنا فَتَفَضَّلْ[1]

يبن الشاعر الحالة الدرامية التي يرسمها معتمداً على المضمون التاريخي المتفاعل، الذي يوظف الحوار الخارجي في بنية النص المنجز داخل القصائد التي أبدعها من خياله وعواطفه وأفكاره، فاستحضر حادثة غار حراء وفتح معها حواراً تاريخياً متناصاً له أدواته التي تسهم في حيوية رسائله على مستوى مضمون النص وبنيته الفنية، وختم البرغوثي قصته بالنهاية المباشرة حول الفعل المطروح ومتعلقات الحدث، فتأكيد الوجود والتفضل على ذلك حدث نهائي له ما بعده من نتائج مفتوحة يستلهمها المخاطب الذي يفهم مضمون القصة وتناصاتها المتنوعة، وقال البرغوثي:

فقال الهلالْ

أنا الاحتمالْ

أنا الزَّعمُ أن اللاإضاءةَ في الليلِ ممكنةٌ دونَ أن تظلمَ النارُ زيتاً[2]

فتح البرغوثي حواراً خارجياً مع الهلال بصورة غير منطقية في استعراضه لحقيقة الضوء في الليل وإمكانيات حدوثه بناءً على تصور الشاعر ورؤيته للواقع المحيط به، فضمير المتكلم أنا يدل على الذات التي تعاني الويلات وتتعرض للمآسي دوماً، تلك الحالة الشعورية التي يبرهن عليها الشاعر بطريقته المجازية التي تتعالى عن الواقع بحس درامي يرسم خطوط التراجيديا التي تسعى في مضمون قصيدته المنجزة، ويعزز ذلك رسائل التناص الموجود في مضمون النص وبنيته المتفاعلة، وقال البرغوثي:

ويَنْتَحِلُونَ لِيَ العُذْرَ،

إن الظَّلامَ كَثِيرٌ

وإن الهلالَ قليلْ

ولكنَّهُم يُذْهَلُونَ إذا ما أَطَلَّ عليكم بِوَجْهِي صباحٌ جديدْ

---

(1)البرغوثي، مقام عراق، (ص11).

(2) المرجع السابق (ص13).

لم أَغِبْ، كنتُ أحضِرُه من مَكَامِنِهِ،

أَيْ نَعَمْ، مِتُّ حتى أتيتُ بِهِ

فأنا الميّتُ الحيُّ فيهِ

أذكروني أذكروني إذا جاء صبحٌ

ففي كلِّ صبحٍ هلالٌ شهيدْ[1]

يعبر الشاعر من خلال الحدث القصصي عن حالة الثورة التي تجتاح مشاعره في موجهة الظلام الدامس وعشق فجر الحرية الزاهي، يتحدث الشاعر عن صفة الانتحال فصناعة الأعذار بعد الحالة التراجيدية التي طغت معالمها على ساحة الإنسان العربي المقهور، يؤكد الشاعر في مضمونه القصصي على أن الظلام كثير، والنور قليل، تلك حالة التحدي في بث لواعج النفس وممارسة طقوس الحياة بطريقة آدمية تليق بحياة بني البشر، ويبرهن الشاعر على حالة التحدي والثورة التي بداخله، فهو موجود لم يغب ويؤكد على ذاته وحيزها الفيزيائي في مجريات حدثه القصصي الذي ساقه في بنية قصيدته، ويلاحظ التعبير الدرامي غير المنطقي في قوله (الميت الحي) إنها حالة شعورية منتفضة تقدم أهلّة كثيرة وأقماراً متنوعة وزهرات مختلفة في أعمارها، فعبر الشاعر بتقنية الترميز في حواره القصصي الذي أجراه في بنية قصيدته، وقال البرغوثي:

قالَ الهلالُ وبعضُ القَولِ لا يَصِـــــل إلا إذا ماتَ بعضُ القَوْمِ أو قُتِلُـــــــوا

هل يَعْلَمُ المدَّعُونَ العَجْزَ ما فَعَلُـــــوا؟ قَدْ أَثْكَلُوا اللهَ لو من شَأْنِهِ الثَّـــــــكَلُ

بلْ ذاكَ أَهْوَنُ من بعضِ الذي اقْتَرَفُـوا[2]

يعبر الشاعر من خلال حواره القصصي مع الهلال على حالة القمع والظلم التي تستوجب التضحية والفداء والوقوف في وجه الطغيان والعدوان، من أجل ممارسة الحياة الكريمة بعزة وشموخ، ويطرح البرغوثي تساؤلاته المفتوحة في بنية نصوصه ويُؤكد ذلك من خلال نصوصه الشعرية التي أودعها رؤيته التي ينظر من خلالها لطبيعة الحياة وحالة التحدي والتمرد التي تقودها النفس المقهورة في أتون المتغيرات الجسام التي انهالت على الإنسان العربي دون غيره، وقال البرغوثي:

---

(1)البرغوثي، مقام عراق، (ص18).

(2) المرجع السابق، (ص22).

طَائِفَةٌ مِنَ الحَدَّادِينَ المكفُوفِينَ نحنْ
نَدُقُّ معادنَ لا نعلَمُ أُصُولَها
ونُصَبِّرُ أنفسَنا على النار
حاسبينَ أننا نصنعُ شمساً من ذَهَبْ
والدهرُ يمشى على إيقاعِ مطارِقِنا
وعلى الباب ينتظر الناس أن نَخْبِزَ الشمسَ لهم
أَتَوا بالدَّراهِمِ والدَّعَوات[1]

يعبر البرغوثي عن حالة التشرد والضياع في نسجه لقصته حول الحدادين والذين وصفهم بالمكفوفين أي من يصفق للطغاة وأعوانهم، فأبواقهم تملأ الرحب ولا يُعلم ما أصول هذه الأصوات وما مداها، ويتجرع المجتمع العربي الويلات ويصبر نفسه على ذلك أملاً بالحرية والاستقلال، فوقع المطبلون في الأوهام التي رسموها لأنفسهم وكأنهم يصنعون شمساًمن ذهب من خلال طرقهم للمعادن، تلك نغمات الضياع في طرق الدهر وأحواله، وما زال الأمل معقوداً في إيقاع الشعارات والأصوات المتناثرة، هذا حدث قصصي ابتكره الشاعر وضمنه في بنية نصوص قصيدته؛ ليضفي عليها تأويلات ودلالات مختلفة.

يبلور البرغوثي مشاهد قصصية متنوعة في أبنية قصائده المختلفة، فيوظف ذلك من أجل توصيل الرسائل والدلالات التي تجيش بها نفسه، فيقول:

تساوينا في الجريمة
لكن لم نتساوَ في العِقاب
سامحتكم ولم تسامحوني
هاجرتم وتركتموني
هل رأيتم غابة نخلٍ تهاجر عَتَبًا على أهلِها؟
أيها الموتى، أيُّها المدعون الموت،
أنا مذنبةٌ، معترفةٌ بذنبي
فسامحوني
وعودوا[2]

(1) البرغوثي، مقام عراق،(ص27–28).
(2)المرجع السابق (ص40).

يسرد البرغوثي الحدث القصصي المتمثل في الجريمة وما يتعلق بها من مسرح ومشاهد ونتائج مؤلمة أو سعيدة، تلك ثنائية الملهاة والمأساة التي وظفها أهل الإبداع القصصي في كتاباتهم، تحدث الشاعر عن حالة الضياع وذوبان النفس والذات أمام متقلبات الزمن ومتغيرات التاريخ تلك المآسي والآهات التي دبت في أنحاء الواقع العربي، الذي يوحي بجسامة النتائج وكارثيتها على كاهل الإنسان العربي وآماله التي يهفو إلى تحقيقها، فالتعبير القصصي منح البرغوثي مساحة كافية؛ لتوصيل رسائله وتحقيق مغازيها النفسية التي اجتاحت عواطفه وأفكاره، وقال البرغوثي:

فقالَ له الإمام:

يا همامُ، كيفَ تركت النَّاس؟

قال يا ابن رسول الله

قُلوبهمْ معكْ

وَسيوفهمْ عليكْ

والنصر من عند الله[1]

فتح البرغوثي حواراً بين الإمام وهمام، وطرح جملة من التساؤلات متعددة الإجابات في بنية قصصية لها وسائلها وأدواتها وأفكارها التي ترجمها البرغوثي في بنية قصيدته، تلك البنية ذات الدلالات غير المنطقية فكيف قلوبهم معك وسيوفهم عليك إنها شروخ نفسية تجتاح مشاعر الإنسان العربي المغلوب على أمره، ووظف التناص الديني في نهاية الحدث القصصي مما أضفى على النص المنجز مسحة دينية لها آثارها في نفوس المخاطبين.

ويتنوع الأسلوب بين القصص، والوصف، والحوار، وقد تكون خطابة أيضًا ولكن الوصف يقصر ويوجز –لأن مهمته التمهيد وتصوير البيئات–حتى لا يعرقل سياق القصة، والحوار يكون بسيطًا دقيقًا، يخلص القصة من الرتابة، وهو عماد الروايات التمثيلية، وإذا كان لا بد من الخطابة فلتكن قصيرة غير مملة[2]،فاستخدم البرغوثي أسلوب الوصف القصصي في الحديث عن المعاني والدلالات التي أراد أن يبوح بها في أشعاره، فقال في قصيدة "قبّلي ما بين عينينا اعتذاراً يا سماء":

---

(1)البرغوثي، مقام عراق، (ص75).

(2) الشايب، الأسلوب، (ص110).

يا سماءْ

أبلغي في ليلةِ الإسراءِ مَن بالمسجدِ الأقصى يُصَلّي

من نبيٍّ أو إمامْ

اسمعوا يا من عليهم صلواتُ الله سربٌ من حَمامْ

وأذانٌ في الأعالي يتردَّدْ

بينكم مَن كلَّم الله جهاراً

والذي لم يَصْلَ ناراً

والذي عن أمرهِ عَمَّرتِ الجِنانُ داراً

والذي يحيا مدى الدهر سِراراً

حاضراً أو غائباً يبدو ويستخفي مراراً

والذي قد أتْعَبَ الناس انتظاراً

ليلةَ المعراج في المحراب من خلف محمدْ[1]

فتح البرغوثي حواراً قصصياً مباشراً مع السماء فهذه التقنية لها دلالاتها ومحاورها المختلفة في تجسيد المعني الذي يدور في نفسه والوقائع التي حوله، واستحضر مراسم ليلة الإسراء والمكان المقدس والحادثة فيها، فاستلهم الحوادث التاريخية من خلال التناصات التي أنتجها في بنية نصوصه، ووظف تقنية المفارقات التصويرية التي تحمل معانٍ متضادة لها رسائلها ومعانيها التي تعبر عنها، فمحور الحديث استطاع البرغوثي أن ينتجه بتقنية القصة التي تعبر عن صورة المشهد وتحركاته المختلفة التي تخدم الصورة الشعرية المتكاملة للنص الشعري الذي أنتجته قريحة البرغوثي ونسج خيوطه الإبداعية في ذاته المرهفة.

واستخدم الشاعر البرغوثي الموسيقى الصوتية في الحديث عن ألفاظ متناسقة تتمثل في الكلمات الآتية:(جهاراً، ناراً، داراً، سراراً، مراراً، انتظاراً)، فهذه الكلمات ولدت جرساً موسيقياً في المعمار الفني، وهذا يدخل من باب التناص الموسيقي من خلال بنية الألفاظ المنتقاة، فالقصيدة "بناء معماري ذات أنساق جمالية تكاملية فأمامك اللغة وإيحاءاتها اللفظية والصوتية والصورة الشعرية بنوعيها الجزئية والكلية وما تكتنزه من خيالٍ وبناءات ثم الموسيقى الداخلية والخارجية

(1)البرغوثي، في القدس، (ص77-78).

وما تشيعه من أثر عذب في النفس يسهم في تعميق النصوص"([1])، فتوظيف تقنية القصة في المعمار الفني لبنية نصوص القصيدة عند البرغوثي يخدم البنية الكلية والجو العام للقصيدة ودلالاتها ويفتح معها آفاقاً واسعة من شأنها أن تسهم في فاعلية المشهد الشعري المختلف وتعمل على حيوية متعلقاته التناصية التي تقود إلى إنتاج نص حيوي له دلالاته ومعانيه التي أودعها في إبداعات قصائده.

(1) غنيم والهشيم، جماليات الشعر الإسلامي الفلسطيني المعاصر، (ص70).

المبحث الثالث: السيرة

تعد السيرة من التقنيات الرئيسة التي اعتمد عليها البرغوثي في بناء معمارات نصوصه وتناصاتها كون فن السيرة يجسد بؤرة ارتكازية في نسج موضوع القصائد وحياكتها، "كان الحس التاريخي هو الأصل في كتابة السيرة، حيث كانت السير جزءًا من التاريخ، وكانت حياة الفرد تمثل جانبًا هامًا من تصور الناس للتاريخ وإيمانهم بأن الفرد هو الذي يصنع التاريخ، ففي أحضان التاريخ كما يقول الدكتور إحسان عباس –نشأت السير وترعرعت–"[1].

إن الارتباط العميق بالتاريخ يعد من أصول التناص ومقوماته التي يمكن أن تنتج مزيداً من التناصات التي تخدم جوهر القصيدة وبناءاتها، فوظف البرغوثي فن السيرة في بنية نصوصه التي أبدعتها قريحته الشعرية، فقال البرغوثي:

أرى العراق طويل الليل

نام جدي أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي

ليل الأربعاء على الخميس، لسبع عشرة ليلة خلون من المحرم عام أربعة

وعشرين وأربعمائة وألف

على قصف الطائرات الأمريكية لبغداد

وقام جدي، على أصوات المؤذنين

يقيمون صلاة الفجر[2]

استخدم البرغوثي تقنية السيرة في كتابة أبيات نصه الشعري، فاستلهم سيرة المتنبي وبدأ يتطرق إلى نسبه وعلاقته به ويُوصل لروابط القرابة والعلاقة القائمة بين البرغوثي والمتنبي فكل منهما شاعر أبدع في الحديث عن موضوعات مختلفة ومتنوعة، ومن ثم بدأ بسرد السيرة التي تحدث فيها البرغوثي عن حياة المتنبي المتعلقة بمولده في ليل الأربعاء والعام الميلادي الذي وُلد فيه ثم بيان العام الهجري وكلها علامات وحقائق ثابتة لا يمكن تحريفها أو تزويرها، ومن ثم تعرض للمغزى الذي أراد أن يتحدث عنه والمشهد الذي أراد أن يسمه ويزيل عنه الستار في الواقع التاريخي المرير الذي جرّته نوائب الأيام من قوى الاستكبار العالمي الذين اعتدوا على

---

(1) الشنطي، فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه، (ص216).

(2) البرغوثي، مقام عراق، (ص 26–27).

مقدرات الأمة وتاريخها الثابت في حالة من الجنون الاستعماري الذي انتهك الحرمات وسلب المقدرات ونشر رائحة الموت في بقاع العراق الشقيق، ويبين أن الموتى ضجوا من الموت و صوت القصف والمؤذنين الذين يقيمون صلاة الفجر، فتحدث البرغوثي بنوع من الحرقة في استعراض مآلات الأمور ومساراتها الحارقة التي ألحقت الأذى بالعرب والمسلمين في بلاد العراق ذات التاريخ العميق للأمة العربية والإسلامية، فكتابة تقنية السيرة في المجموع العام للنص أسهم في فتح المتناصات للإبداع الشعري الذي استطاع البرغوثي أن يرسم حدوده ورسومه من خلال البنية الفنية للنص المنجز، وقد "يتجه الكاتب في طريقته نحو التحليل، وقد يتجه نحو التركيب، ولكنه سواء سار في هذه الطريق أو تلك، عليه ألا يسخّر الأحكام والأحداث وملابسات الحياة لعاطفته، فإن ازدياد العاطفة ينحرف بالسيرة عن وضعها الطبيعي، بل لا بد له من أن يبني ما يكتبه على أساس متين من الصدق التاريخي"[1]، فأضفى البرغوثي عنصر الصدق الفني في بنية التناص الذي وظفه في نصوص قصيدته، فقال في قصيدة خط على القبر المؤقت:

رعشة يدك وأنت تسلم على عدوك،

ابتسامك له مهزوماً،

افتعالك المتقن للسعادة الغامرة برؤيته،

كذبك عليه،

وكذبك علينا،

كذبك على نفسك،[2]

يسطر البرغوثي جزءاً من تقنية السيرة في الكشف عن طبيعة الجنس البشري وسلوكياته في التعامل مع الآخرين وبناء علاقاته التي يطرحها في بنية نصوصه الشعرية، فاستخدام تقنية السيرة، واستعراض مكوناتها الفنية في بنية التناص يخدم النص الأدبي المنجز الذي يبلور من خلاله الكاتب طبيعة الأسلوب المستخدم في عرض الحقائق والمعلومات والقيم والثوابت التي يؤمن بها والرسائل التي يريد إرسالها البرغوثي من خلال الإبداع الشعري الذي يكشف لنا عن طبيعة رؤيته للحياة ويترجم مشاعره وأحاسيسه وانطباعاته التاريخية الثابتة حول الوقائع

(1) عباس، فن السيرة، دار الثقافة،(ص74).

(2) البرغوثي، في القدس، (ص98-99).

والأحداث التي تمتاز بها طبيعة السيرة ومجرياتها في صلب نصوص الخطاب الشعري ومكوناته التي ينطلق منها، فمقالة السيرة هي صورة حية لإنسان حي، تختلف عن الترجمة في النوع والدرجة الفنية. فكاتب التراجم يعنى بجمع المعلومات وتنسيقها وعرضها عرضاً علمياً واضحاً، ولكنه يتوارى خلف موضوعه، ولا يحاول أن يكشف الغطاء عن شخصيته في كثير أو قليل. أما كاتب السيرة المقالية، فإنه يصور لنا موقفاً إنسانياً خاصاً من شخصية إنسانية، فيعكس لنا تأثره بها وانطباعاته الخاصة عنها ويحاول أن يخطط معالمها الإنسانية تخطيطاً فنياً واضحاً، معتمداً على التنسيق والاختيار، بحيث تتراءى لنا الشخصية الموصوفة، وكأنها حية متحركة تحدثنا ونصغي لها وتروقنا بعض صفاتها فنعجب بها أو تسوؤنا فننفر منها، ومقالة السيرة بالنسبة إلى السيرة الكبيرة، كالأقصوصة بالنسبة إلى القصة[1].

وتجسد تقنية السيرة معلماً واضحاً في التناص وتجلياته في بنية النص الأدبي الذي أبدعه البرغوثي وقام بكتابته، فمن "واجب كاتب السيرة أن يلم بكل الحقائق التي لها صلة مباشرة ببطله، وبالأحداث والمواقف التي كان لها تأثير مباشر في حياته. وعلى هذا الأساس لا يحق له أن يهمل أي مصدر يمكن أن يمده بشيء من هذا"[2]، مما جعل البرغوثي يستعرض جوانب أساسية من الصفات والطبائع عن الشخصيات التي يتحدث عنها ويترجم جانباً من جوانبها.

وتطرق البرغوثي لتقنية السيرة من خلال حديثه عن الشخصيات الإسلامية الرائدة التي لها صورتها وتاريخها في العالم الإسلامي، فيقول في قصيدة أمير المؤمنين:

علامةُ نَسَبِهِ للحُسَينِ بنِ عَليٍّ بنِ أبي طالبْ

ثم إنَّ العربَ إذا طلبت الثأرَ تَعَمَّمَتْ بالسوادْ

ثم إنَّهُ لَفَّ الليلَ عَلَى رأسِهِ وأصبحْ

ثم إنَّهُ ذَكَّرَني،

وكُنْتُ قد نَسِيتُ،[3]

تحدث البرغوثي عن جزء أساس من السير التاريخية الذي أُثير في قضية الخلافة والإمامة والولاية وما تبعها من نعرات لها آثارها في حياة الأمة ومجريات التاريخ العربي

(1) نجم، فن المقالة، (ص93).

(2) إسماعيل، الأدب وفنونه، (ص154).

(3) البرغوثي، في القدس، (ص110).

والإسلامي، تطرق إلى نسب الحسين بن علي بن أبي طالب هذا التسلسل التاريخي والمعلومات الثابتة مرتكز رئيس في كتابة السيرة، وبين حالة الشقاق والاختلاف التي وقع فيها العرب وبدأت خلافاتهم تطفو على الساحة وتنذر بالواقع المؤلم الذي لحق الأمة وأصابها في مقتل جراء التعسف في إدارة سدة الحكم والولاية، حالة من النزاع والشقاق والنعرات الطائفية تبلور طبيعة السيرة وتكشف عن مدى ارتباط ذلك بالحالة التي يمر بها الإنسان العربي والمسلم.

واستخدم الشاعر تقنية السيرة في التعبير عن واقع العراق وما تتعرض له من أحداث تشبه سيرتها التاريخية وما مر بها من أقوام وقبائل عربية، فقال البرغوثي:

"أَرَى العِراقَ طَويلَ الليلْ"

قالها جدُّنا يرثي أميرةً من بني حمدان،

يقولُ إنَّ ليلَهُ طالَ وهو بالعراق بعيدٌ عنها،

فكيف بليلِ أخيها في حلب،

ليس للبيت كبير معنى، لكن أثْقَلَهُ التاريخ[1]

استخدم الشاعر التناص ووضعه بين علامتي تنصيص، ويرتبط هذا التناص بالحالة التي يمر بها العراق، ومن خلال ذلك يستعرض الشاعر السيرة التاريخية للعراق، ويستدعي سيرة جده الذي يبكي في رثائه أميرة من بني حمدان، ويعبر عن ليل العراق وأختها حلب وفي ذلك إشارة إلى سيرة أبي فراس الحمداني الشاعر المعروف، وما أنتجه من أشعار تحاكي الواقع الذي تتعرض له بلاد العرب والمسلمين من قتل وإرهاب وتدمير، ويؤكد الشاعر أنه ليس لبيت الشعر معنى كبير ولكن التاريخ شحنه بالمعاني التي تعبر عن الحقائق التاريخية، فكشفت تقنية السيرة عن دلالات الحوادث والوقائع التي تمر بها الأمة على مر الأزمان، مما جعل الشاعر يبلغ رسالته من خلال التناص مع هذه الحقائق التي يستجلي معالمها في شعره المنظوم.

يتحدث الشاعر من خلال تقنية السيرة على تفاصيل الأيام والليالي التي يستعرض فيها الحقائق التاريخية ويؤطر للحقبة الزمنية ويحدد معالمها وما بها من أحداث ووقائع، في دك بغداد البلد العربي بالطائرات الأميركية التي صبت حمم الموت بقصفها الأراضي العراقية، ونهض الأحرار على أصوات المؤذنين أصحاب العقيدة الصافية يؤدون صلاة الفجر مما يبعث في النفس الطمأنينة.

---

(1) البرغوثي، مقام عراق، (ص22).

واستعرض الشاعر تقنية السيرة من خلال حديثه عن الشخصيات الأدبية التي لها سيرة بارزة في تاريخ الأمة العربية والإسلامية، ففتح البرغوثي معها حواراً مطولاً، فقال:

أنا بَشّارُ بْنُ بُرْدْ

أنا من يحفظُ في كَفَّيْهِ جُدرانَ المكانْ

أصْبَحَتْ من طُولِ جَسّي جَانِبَيْها

طُرُقُ بغدادَ وخَطُّ اللهِ في كَفِّي سِيَانْ

أنا بَشّارُ بْنُ بُرْدْ

أَنَا مَنْ أَذَّنَ في غير الأَوَانْ

كنتُ سكرانَ ولكن

أَنَا من ماتَ فِداءً للأَذَانْ

أَنَا بَشّارُ بْنُ بُرْدْ

قائدُ العميانِ في طرقاتِ بغدادَ إلي أبياتهم والمبصرينْ

أَنَا من أَبْصَرَ ما في السَّيفِ من ليلٍ تهاوَت مِن أَعَالِيهِ الكَواكِبْ

أَنَا من غَرَّبَ طيرَ الشِّعرِ عن أوطانِهِ

أنا من لم يبقَ من ديوانِهِ

إلا اشتباك وارتباك بين أستاذ وطالبْ

أَنَا من دافَعَ عن إبليسَ في عِصيانِهِ

أَنَا من ماتَ على إيمانِهِ

أنا من لا فرق عندي بين محجوب وحاجبْ

وأنا من تسكن الأسرار في إعلانِهِ

وأنا طِفلٌ إذا وَبَّخَهُ الدَّهرُ يَرُدْ

أنا بَشّارُ بْنُ بُرْدْ[1]

(1) البرغوثي، مقام عراق، (ص31-32).

إن الحديث المفصل عن سيرة بشار بن برد في ظل تعدد الأوصاف والأطروحات التي يقوم بها، يشير إلى حالة الأمة العربية والإسلامية، والأوضاع المعيشية التي يحياها الإنسان العربي؛ حيثُ القهر والظلم والبطش والعدوان والسحق، فجاء ضمير المتكلم أنا يحمل دلالات عميقة على حالة القهر والقمع التي يشاهدها الإنسان العربي، فحاول الشاعر أن يعوض ذلك من خلال الإسقاطات التي مارسها في سيرة بشار بن برد صاحب السيرة الغنية بالأحداث والمواقف، التي تعبر عن حالة التمرد على النفس وعلى المجتمع المحيط، فسيرة بشار لها أبعادها في استحضار البرغوثي لها في مضمون أشعاره، فهو متمرد على المبادئ والثوابت التي تغرق المجتمع في الضلال، وكان يعيش في العراق والشاعر يتحدث عن واقع العراق وما به من طبقات ومذاهب واتجاهات، علاوة على العدوان الأمريكي الشرس، لقد أسدلت تقنية السيرة لبشار ابن برد دلالات حضارية لجأ البرغوثي إلى توصيلها من خلال سيرة بشار وما بها من أحداث وقضايا ومواقف.

واستحضر البرغوثي جزءاً من السير التاريخية، مما يضمن تفاعلات نصية بين النص المنظوم والمنثور، فوظف سيرة الرسول وأحاديثه المروية عنه، فقال:

إني سمعت رسول الله صلى الله عليهِ وسلم يقول

"أكرموا عماتكم النخل"[1]

استخدم الشاعر سيرة الرسول ووظف أقواله في الحديث عن أحوال العراق وما تتعرض له من هجمات حاقدة من قبل المحتل الأمريكي الغازي، ووظف الشاعر تقنية الترميز مع تقنية السيرة فالنخلة هي رمز للمقاوم الثابت على ثرى بلاد الرافدين، وفي حديث الرسول تأكيد على ضرورة الاهتمام به وإكرام المجاهدين من أجل طرد المحتل الغازي، ولم يقف الأمر على ذلك فقد وظف البرغوثي شخصيات عراقية لها بصماتها في كتب السير والتراجم والطبقات والتاريخ، فاستحضر شخصية الحلاج العراقية وما تعرض له، فيقول:

قال أبو منصور الحلاج:

حبيبي اختراعٌ لئيم

هو موجود ما كنت خائفًا من أو راغبًا فيه

موجودٌ ما كنت محتاجاً إليه

---

(1)البرغوثي، مقام عراق، (ص40).

فإن غضبتَ عليه

لم يعد موجودًا

و والله لا يكون الحبيبُ إلا هكذا

مجازاً يرام ولا ينال[1]

استحضر البرغوثي شخصية الحلاج وأجرى على لسانها الحديث في التعبير عن مشاعره وأحاسيسه التي تجسد نبض الشارع العربي وما يتعرض له من مآسٍ ونكبات، فتوظيف سيرة الحلاج ربطت النص الحاضر بالماضي وفي ذلك إشارات عميقة حول ضرورة التوحد في مواجهة المحتل الغازي ومجابهته بكل أدوات القوة والوسائل المتاحة من أجل النهوض ونيل الحرية والاستقلال؛ فقال البرغوثي:

مات أبو منصور غير منصور بالحق بين برديه

جنازته عنزة عرجاء

مات كافراً وشاكاً ومؤمناً معاً

تاركاً وجعاً

كالوشم الأخضر في وجه السماء[2]

يعبر الشاعر عن سيرة الحلاج تلك الشخصية التي لها آرائها الجدلية والفلسفية التي لاقى الموت في سبيل إثبات ما يُؤمن به من عقائد، تلك المأساة الحقيقية التي تعرض لها الحلاج المتعصب لرأيه ودفاعه عن فكره الذي يسلم به، فيعبر البرغوثي من خلال سيرة هذه الشخصية عن حالة بلاد العراق وما بها من النزعات والنعرات والفرق والجماعات التي لها وجهات نظرها، فبقيت سيرة الحلاج علامة بارزة في التاريخ وكتب السير كالوشم الأخضر البارز في وجه السماء، يعبر عن حالة القمع والموت لأصحاب الأفكار في بلاد العرب، وقال البرغوثي:

قال الراوي:

قَدِمَ الفرزدق همامُ بنُ غالبٍ في صباهُ

من الكوفةِ إلى المدينة

---

(1)البرغوثي، مقام عراق، (ص54-55).

(2) المرجع السابق (ص60).

فدخل على أبي عبد الله الحسين بن عليّ[1]

استحضر البرغوثي ركناً أساسياً في بنية السيرة وهو عنصر رواية تفاصيل السيرة وسردها، فتعرض لسيرة الفرزدق وشخصية أبي عبد الله الحسين بن علي وفي ذلك ارتباطات تاريخية لحدث تاريخي قام به الفرزدق لشخصية الحسين، مما يعبر عن الحالة الفكرية والخلفية الدينية التي تتجلى بها هذه الشخصيات وما توصله من رسائل ودلالات تعبر عن الواقع وآلامه وآماله التي يسعى البرغوثي إلى التطرق إليها وبيان موقفه ورؤيته لها.

استلهم البرغوثي تقنية السيرة في الحديث عن المكانة المقدسة لمدينة القدس، وتعقب سيرة شخصية المملوك والحديث عنها، في قصيدة في القدس:

في القدس مدرسةٌ لمملوكٍ أتى مما وراءَ النهرِ،

باعوهُ بسوقِ نِخَاسَةٍ في إصفهانَ

لتاجرٍ من أهلِ بغدادٍ أتى حلباً

فخافَ أميرُها من زُرْقَةٍ في عَيْنِهِ اليُسْرَى،

فأعطاهُ لقافلةٍ أتت مصراً،

فأصبحَ بعدَ بضعِ سنينَ غَلاَّبَ المغولِ

وصاحبَ السلطانْ[2]

يستعرض البرغوثي تقنية السيرة من خلال حديثه عن مدينة القدس عن شخصية المملوك الذي أتى من البلاد البعيدة ليمر بالديار المقدسة ويترك بصماته فيها، ويتحدث عن حياته التي بدأت في سوق النخاسة والرقيق بمدينة إصفهان تلك الحقيقة التاريخية التي استعرضها البرغوثي في بنية نصه الشعري الذي بلور من خلاله صفات المملوك الذي اشتراه تاجر من أهل بغداد نقله إلى الشام تلك حركة جغرافية تاريخية في صلب تقنية السيرة التي أضفت على النص أبعاداً دلالية مختلفة لها تجلياتها في سياق معمار التناص الذي وظفه البرغوثي، وحمل مزيداً من المعاني والدلالات التي تثري مضمون النص وبنائه الفني من خلال التوثيق والتسجيل والاستعراض التاريخي لطبيعة الأحداث والوقائع التي عبر عنها البرغوثي، ويتحدث عن حالة الريبة والخوف تلك المكانة الاجتماعية لصاحب السيرة المملوك الذي بّين معالمه البرغوثي في

(1)البرغوثي، مقام عراق، (ص74-75).

(2)البرغوثي، في القدس، (ص 8-9).

نصوص أشعاره، وبّين سماته وموقف الأمير منه حيث الرعب والخوف من عينه الزرقاء التي أثارت الريبة في نفس الأمير فنقل صاحب السيرة لقافلة تلك الرحلة رحلة التشتت والتشرذم التي تجسد سيرة الإنسان العربي حيث الهجرة واللجوء والتشتت بين البر والبحر من أجل لقمة عيش كريمة، فأخذت القافلة صاحب السيرة لمصر، تلك الحركة الجغرافية التي عمت على المشهد التناصي الذي يذكرنا بأدب الرحلات العربي، ومن ثم أصبح هذا المملوك منتصراً لذاته قاهراً لعدوه من المغول الذين عاثوا في الأرض فساداً ودماراً وخراباً كل ذلك يوحي بعمق الحدث التاريخي في نفسية البرغوثي في منازعة المملوك لصاحب السلطة والجاه، لقد رسم البرغوثي صورة درامية متمردة بتقنية السيرة برهن من خلالها على الحالة التي يمر بها الإنسان العربي وتقلبات الدهر والحياة به، فهذه التقنية أثرت النص الشعري بمزيد من الدلالات التي تسهم في تنظيم عملية الإبداع الشعري، وتثري محاور مواضيع القصيدة التي أنتجتها قريحة البرغوثي، وقال:

فيها الزنجُ والإفرنجُ والقِفْجَاقُ والصِّقْلابُ والبُشْنَاقُ

والتاتارُ والأتراكُ، أهلُ الله والهُلَّاك،

والفقراءُ والملاك، والفجارُ والنُّسَّاكُ،

فيها كلُّ من وطئَ الثَّرى[1]

تعقب البرغوثي الأقوام والجماعات التي وطئت الأرض المقدسة من خلال تفاعلاته مع تقنية السيرة التي تستجلي الحقائق التاريخية وأعماقها في الحياة البشرية ذلك التراكم الثقافي والأيدلوجي الذي اكتسى ثوباً من التاريخ يدلل على الأصالة والمكانة التي تتبوأها مدينة القدس في الحضارة الإنسانية التي تعد مهبط السلام وموئله، كل هذه الجماعات والقبائل وسرد البرغوثي المتمرد والمتسارع لها من خلال تقنية السيرة يشي بلوحة تاريخية لها ارتباطاتها وامتداداتها في التاريخ الإنساني.

لقد بلور البرغوثي صورة كلية بلمحة خاطفة من خلال فن كتابة السيرة ومتعلقاته ليثري البناء الفني للنص، ويزيد من فاعلية البنية النصية للتناص في صلب قصائد دواوينه التي جادت بها قريحته، فلعبت تقنية السيرة دوراً بارزاً في إثراء المعني الشعري ودلالاته وشحن البنية بأساليب متنوعة تخدم المعلومة التاريخية المطروحة في البناء وتقنية السيرة التي لجأ البرغوثي

(1)البرغوثي، في القدس، (ص11).

إلى استخدامها من أجل التعبير عن مكنونات ذاته وإبداعات شخصيته المتفتحة التي تحمل مزيدا من الأصول والأحداث التاريخية المختزلة في الذاكرة المبدعة التي يمتلكها البرغوثي.

وتحدث البرغوثي من خلال تقنية السيرة عن وضع القبائل العربية التي طاردت رسول الرحمة والعدل، فيستعرض الشاعر جانباً من سيرة الرسول(ﷺ)؛ لتحمل دلالات في بنية نصوص قصيدته التي تعبر فيها عن حاجة في نفسه، يريد تبليغها لجمهور المخاطبين، فيقول البرغوثي:

وَسُيوفُ قريشٍ بأغمادِها تَتَمَلْمَلْ
ويا من هَدَيْتَ الحَمَامَةَ أن تَضَعَ العُشَّ في باب مخبئِهِ
دونَ أيّ مكانٍ سواهُ على رُقْعَةِ الصَحَراءْ
ويا من تبسَّمَ مِثْلَ الشيوخِ بأعراسِ أحفادِهم،
وكأنَّكِ وحدَكَ تَفْهَمُ أيَّ انتقامٍ أرادَ لهم
حينَ قالَ:
أذْهبوا أنتم الطُلَقَاءْ
ودونَ جميعِ الذينَ أَحَبُّوكَ من أُمَمِ الأرضِ
أَهْدَيتَ نَفْسَكَ للمسلمينَ
إذا ما بَنَوا قُبَّةً يا هلالُ
تجاورُها وتغازِلُها
وتُجَمِّلُها وبها تَتَجَمَّل[1]

استخدم البرغوثي حادثة غار حراء وقصة الحمامة التي باضت على باب الغار، والعنكبوت التي نسجت خيوطها تلك معية الله التي كتبها لعباده الصالحين الطاهرين، ويوظف الشاعر خطاب السيرة النبوية المتمثل في حديث الرسول "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، فتعالق النصوص التاريخية مع الدينية يوحي بالرسائل التي أراد الشاعر أن يوصلها بطريقة متفاعلة، ويستكشف البرغوثي معالم السماحة العطرة التي بثّها الرسول في سيرة حياته ومسيرته الخالدة التي زرع فيها ألوان التسامح والمحبة والخير والسلام، وينسج البرغوثي معالم بنية نصوصه المتناصة بشكل فني يوظف من خلاله المعاني والدلالات اللازمة؛ لتفعيل بنية النص وإيصال

(1)البرغوثي، مقام عراق، (ص12).

مضمون السيرة بكل حيوية من طرف جمهور المخاطبين، مما يسهم في إثراء دلالة النص ومحوريته في ضوء حقائق تقنية السيرة ومضامينها التاريخية وأبعادها في سياق قصائد البرغوثي.

واستخدم البرغوثي تقنية السيرة في استلهامه للوقائع والأحداث التاريخية التي ترتبط بالواقع الذي تحياه الأمة، فهو يعبر من خلال أسلوبه الشعري المتفاعل عمّا تجيش به نفسه وما يدور في فكره من مآلات ودلالات، فيقول في قصيدة تقول الحمامة للعنكبوت:

تقـــول الحمامـــة للعنكبـــوت ... أخـــي تـــذكرتني أم نســـيتِ؟؟
عشـــية ضـــاقت علـــي الســـماء ... فقلـتِ علـى الرحـب فـي الغـار بيتـي
وفـــي الغـــار شـــيخان لا تعلمـــين ... حَميتِهمـــا يومهـــا أم حُميـــتِ
جنينـــان إن ينجـــوا يصـــبحا ... أمـــة ذات شـــمل جميـــع شـــتيت
وقـــوم أتـــوا يطلبونهمـــا ... تقـف الـريح عـنهم مـن الجبـروت
أنقـل عينـي فـي القـوم مـا بـين ... وجـــه مقيـــت ووجـــه مقيـــت
أتـــوا فارتعشـــتُ فقلـــتِ اثبتـــي ... تحـرزي الخيـر يـا هـذه مـا حييـتِ
فلـــيس بأيـــديهمُو أن تعيشـــي ... ولـــيس بأيـــديهمُو أن تمـــوتي
سـنحمي الغـريبين مـن كـل سـيف ... بـــريش الحمـــام وأوهـــى البيـــوت
ســـنبني المـــآذن فـــي المشـــرقين ... بخـــيط رفيـــع وخبـــز فتيـــت
أنـــا مـــن أتيتـــكِ أشـــكو الســـماء ... فصـــرتُ أقاســـمها بعـــض قـــوتي[1]

وظف البرغوثي تقنية السيرة في التعبير عن حادثة غار حراء تلك السيرة العطرة المتعلقة بشخصية الرسول وأصحابه وموقفهم من المجتمع، في إرشاد الناس وهدايتهم تلك شخصية القائد الإنساني العظيم وأصحابه، الذي استوحى البرغوثي قبساً من سيرتهم في تعبيرهالشعري من خلال تقنية السيرة المستخدمة في بنية نصه الشعري، فأجرى حواراً دامياً داخل تقنية السيرة التي وردت في بنية التناص وبنائه الفني؛ ليعبر عن حالة الوعي في بيان طريق الصواب والسداد للناس وإخراجهم من غيهم، تلك السيرة العطرة المتفاعلة التي تلقي بظلالها على المعنى الشعري وتسهم في توسيع دوائره وتنظيم علاقة أقطابه التي تجسد التواصل بطريقة متفاعلة تضمن توصيل الرسائل وفهم النصوص.

---

(1)البرغوثي، في القدس، (ص48-49).

يقول البرغوثي:

تقـــــول الحمامـــــة للعنكبـــــوت أخـــــيّ تـــــذكرتني أم نســـــيت

أخيـــــةُ هـــــل تـــــذكرين الغـــــريبين مـــــا فعـــــلا بعـــــدنا يـــــا قُـــــديتِ؟

أخيّة ماذا جرى لهما ؟

أترى سلما ؟

يا أخيّة هل تعلمين؟

لقد كان في الغار وعد بأن السماء ستنثر

مثل أرزّ العروس على العالمين

لقد كان في الغار دنيا

من الصين حتى بلاد الفرنجة[1]

تمثل الحمامة والعنكبوت رموز دالة داخل تقنية السيرة التي وظفها البرغوثي في بنية التناص الشعري الذي استلهمه من الوقائع والأحداث التي يسير وفقاً لها وعليها، إن الشاعر يمارس عملية نصية واعية في توظيفه للتقنيات والأساليب التي تعبر عن مضمون حادثة غار حراء وما تعرض له الرسول والصحابة من ملاحقات، وما أرسله الله من سكينه وعلامات تتعلق بسيرة الرسول الكريم، حتى مضمون السيرة علاوة على تقنيتها يسهم في إثراء النص من خلال فتح باب الحوار بين الحاضر والماضي مع استعراض الحقائق التاريخية بثوب تعبيري جديد، يحمل دلالات ورسائل موجودة في أبنية النصوص وبنيتها الفنية كذلك يخدم البنية الكلية للنص ويعمل على إيصال رسائلها التي أراد البرغوثي أن يرسلها ويخطها من خلال ذاته المبدعة التي استطاعت أن تنتج أدباً متفاعلاً يستوحي مزيداً من الأدوات والأساليب والدلالات التي أبدعها.

(1)البرغوثي، في القدس، (ص48-49).

المبحث الرابع: الرسالة

تمثل الرسالة الخطاب المكتوب في غرض جزئي، يبعث به صاحبه إلى آخر، وتنقسم إلى الرسائل الديوانية والإخوانية، تحمل في طياتها حاجة في نفس الكاتب يريد إيصالها للطرف الآخر الذي يستقبل النص ويفهم مدلولاته المطروحة في البناء الفني للنص وبنيته المتفاعلة، ومن الأصول الواجب مراعاتها في تقنية الرسالة، ما يلي: "الإطناب والإيجاز والمساواة حسب مقتضيات الأحوال، وتنوع العبارة بين السهولة والجزالة حسب الموضوع، والمكتوب إليه، وملاحظة صور البدء والختام"[1]، فوظف البرغوثي تقنية الرسالة في البنية النصية للتناص واستطاع أن يبلور من خلال هذه التقنية رؤيته الشعرية المبدعة التي تنقل المضامين التي يريد البرغوثي توصيلها لجمهور المتلقين، فقال في قصيدة يا هيبة العرش الخليّ من الملوك:

لا تقبلوا بالقبح يا أهلي مكافأةً

على الصبر الجميلْ

فالصبر طول العمر خيرٌ[2]

استخدم البرغوثي تقنية الرسالة في نصه السابق فبدأ بتوجيه النصح والإرشاد بطريقة استهلالية حانية تحمل الرقة في جنباتها، والتي تتمثل في قوله (يا أهلي) ومن ثم بدأ يسرد الأحداث ويبلورها، فتحدث عن موضوع الصبر على المكائد والمصاعب التي يتعرض لها الإنسان العربي في وطنه، تلك المعاناة التي تفنن الاستعمار الغازي في حياكتها وبلورتها بطريقة مؤلمة تخلو من الحس الإنساني، فيبرهن البرغوثي على أن مصير الصبر الظفر بالمنال وتحقيق الخير وهزيمة قوى الشر والاستكبار، تلك حقيقة أزلية برهن عليها الشاعر بحسه المبدع، لقد تداخلت مغازي هذه الرسالة ودلالاتها مع البنية العامة للجو فمثلت عنصر من التكثيف والإيجاز في عرض الرسالة وتبليغها وإيصالها لجمهور المخاطبين؛ مما يضمن تفاعلهم وحيويتهم مع النصالمنجز.

واستخدم البرغوثي تقنية الرسالة في التعبير عن المضامين التي تكتنف مشاعره وتجوب أرجاء وجدانه فيقول:

---

(1) الشايب، الأسلوب. (ص113).

(2) البرغوثي، في القدس، (ص86).

كُفّوا لسانَ المراثي إنها تَـــــــــــرَفُ عن سائر الموت هذا الموتُ يختلفُ

وضَمّدُوا النخلَ سَبْعاً إنه زمـــــــــنٌ للحرب لا السِّلْمِ فيه يُرْفَعُ السّـعَـــفُ[1]

يتحدث الشاعر عن حالة العراق عند تعرضها للغزو الأمريكي الظالم، وبعث الشاعر رسائل لأمته بطريقة تجمع بين الجد والهزل، تلك أيقونة شعورية اجتاحت الشاعر في ظل الصمت المطبق عمّا يجري في العراق من قتلٍ وذبحٍ وسحق، يأمر الناس بالكف عن البكاء والندب والرثاء، فهذا ترف قياساً بما يحدث على أرض الواقع من موت له أنواع مختلفة ومتعددة، ويتحدث عن نخل العراق وجراحاته تلك تقنية الترميز التي توحي بالمقاومة العراقية الصامدة التي جابهت الغزاة المحتلين وأذاقتهم الويلات فهذا زمن الحرب لا السلم، ورمز بالسعف إلى السلاح المقاوم الذي يستخدمه أبناء العراق في مواجهة العدوان الحاقد، هذه الصورة الشعرية نقلت رسائل مفادها بأن الظلم والطغيان لن يطول ما دام الأحرار يجابهون ثورة الحاقد على بلاد العرب والمسلمين، ومقاومة الدخلاء المنحطين، فيقول البرغوثي:

ألا أيُّها الناسُ لا تَسألوا هل رَفِقْتُ بكم[2]

يبث الشاعر رسائله في نصوصه الشعرية، ينبه من خلالها بني قومه وجلدته عن المصائب والمآسي التي يجرها المحتل وأعوانه، فهو يكشف عن المخططات الخبيثة التي يقف ورائها المحتل وزبانيته، ويستعرض الشاعر جرم المحتل في بلاد الرافدين، وما فعله في مدن العراق من استباحة للدماء وهتك للأعراض وتدمير البيوت فوق رؤوس ساكنيها، فيقول:

اللهُ أكبرُ تحتَ القصـــــفِ تَنْدَفِـــــــعُ وكلَّما ضاقَ عنها الأُفُقُ يَتَّسِـــــــــــعُ

إن القَنَابِلَ تَهوِي وَهْيَ تَرْتَفِـــــــــــعُ نُبُوءَةٌ أَسْمَعَتْكُمْ لَوْ لَكُمْسَمَـــــــــــعُ

لا جِنَّ يَحْضُرُ إلا سَوْفَ يَنْصَـــــرِفُ

عَنِّي خُذُوها وقُولُوا قَالَ بَشَّـــــــــــارُ لا تدَّعُوا العجزَ ما في العجـزِ أعـــــذارُ

تَعَمُّدُ المَـرءِ للنسيانِ تِذْكـــــــــــار وبعضُ من حَزِنُوا في حُزْنِهـــم عـــــارُ

والعارُ في الناسِ بِالإخفاءِ يَنْكَـشِـــفُ

لا تدعوا العجزَ فالأعمَى له بَصَـــــرُ والريــحُ مجتاحةً يجتاحُها الشَّـــــــجَرُ

---

(1)البرغوثي، مقام عراق، (ص9).

(2) المرجع السابق، (ص20).

كما تُكَسِّرُهُ الرِّيحُ تَنْكَسِـــــــــــــــرُ لا يَعذُرُ الموتُ من يأتِيهِ يَعتَـــــــذِرُ

وقُوَّةُ السيفِ فاعلمْ، أصلُها رَهَـــــــفُ

كُفُّوا لســــــــــــــانَ المراثي إنها تَـرَفُ[1]

استخدم الشاعر تقنية الرسالة في الحديث عن العراق وما تتعرض له الأمة من موجات الظلم والطغيان، يطلق صرخات التكبير التي تشير إلى الحياة تحت صوت القصف والمدافع، ويفتح حواراً مع بشار الضرير في صوته المترامي الذي يوثق صوت القصف الذي يعدم الحياة، فلا عذر عن عدم سماع صوت القصف وآلات الموت التي تدك العراق الحزين، وهذه رسالة للأمة العربية بالنهوض وعدم الاكتفاء بالحزن الذي يعد وصمة عار في جبين الزمن، ومصير الخونة وأهل الذل والعار أن ينكشفوا أمام مرأى الأحرار الأبطال، ويبعث إليهم بضرورة الثورة والمقاومة وعدم الاكتفاء بالشجب والاستنكار وبث نصوص المراثي التي تعبر عن حالة الترف والبذخ في ظل مواصلة المحتل جبروته وقتله للأبرياء، فوجب امتشاق السلاح والتنويع في أدوات المواجهة في ظل تنوع الوسائل وتعدد مصادرها، فبثت تقنية الرسالة مضامينها في بنية النص المنظوم؛ لتعبر عن الموقف والحالة الشعورية التي يترجمها الشاعر في إبداعه للقصائد.

وظف البرغوثي تقانة الرسالة ومضامينها وأساليبها، التي بدورها أسهمت في نقل المعنى على مستوى المضمون والشكل مما انعكس على دلالة المعنى والمبنى في النص الشعري وتعالقاته النصية التي استلهمها البرغوثي في بناءات القصيدة التي أبدعها من محض خياله وتجربته الشعرية، فيقول في قصيدة خط على القبر المؤقت:

لكن اعلموا،

أنني لم يكن لي قومٌ سواكم،

أحبكم، لأنني ليسَ لي أحدٌ أحبه غيركم

سلام عليكم،

هذه قدرتي[2]

يستدرك البرغوثي كلامه الشعري ليبدأ بتوظيف تقنية الرسالة التي تعبر عن المضمون وتؤكد ما يذهب إليه البرغوثي من معان يريد إيصالها لجمهور المخاطبين، فينبه في بداية

(1)البرغوثي، مقام عراق، (ص33-34).

(2)البرغوثي، في القدس، (ص104).

رسالته من خلال فعل الأمر(اعلموا) الذي يجسد استهلالاً ومقدمةً رئيسة في استعراض مضامين الخطاب الشعري المتراكم، ويبن فحوى الرسالة في محبته لقومه وتودده إليهم، وينفي حبه ومعاملته لغيرهم من الآخرين، ويجسد ذلك المضمون الأساس الذي طرحه البرغوثي من خلال تقانة الرسالة التي وظفها في صلب قصيدته ونصوصها المتفاعلة، ثم يختتم رسالته بتوجيه السلام لهم على سبيل المجاملة والمحبة النابعة من القلب، ويكشف لهم بتوقيعه في نهاية رسالته عن قدرته التي يستطيع القيام بها، فتركت خاتمة الرسالة التي وظفها البرغوثي" انطباعًا حسنًا في نفس المتلقي، إذ يخلص فيها إلى توثيق الصلة التي مهد لها في المقدمة بعبارة مختصرة مؤكدًا من طَرْفٍ خفي أهمية الرد على الرسالة، وانشغال الكاتب بالموضوع دون استعطاف أو تذلل"[1].

استخدم البرغوثي تقنية الرسالة بطريقة متفاعلة لها آثارها في المعنى الشعري ودلالاته التأويلية التي تسبر أغوار النص المطروح الذي أبدعه البرغوثي في البنية العامة للنص المتداول، مما يعزز من انتقال الرسالة بشكل مكثف ومقتضب ليغطي الموضوع الذي يريد الحديث عنه ويشحن محاوره بمزيد من الدلالات الأدبية التي أنتجها المبدع في سياق أدبي له مكانته وخصوصيته التي يتمتع بها، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أثرت في البنية الفنية لمعمار التناص الذي استطاع أن يقتبس من تقنية الرسالة طريقتها في التنظيم والترتيب والفحوى، فبدأت المقطوعة بمقدمة استهلالية تنبيهية، ومن ثم مضمون له خصوصيته المتعلقة به، ومن ثم خاتمة الرسالة والتوقيع الذي أنهى فيه فحوى رسالته، وهذا يعد من قبيل التناص الذي لجأ فيه المبدع إلى تقنية الرسالة مما أثرى النص ونقله من الرتابة إلى التفاعلية مع مكوناته كافةً ومشكِّلاته الرئيسة، فقال في قصيدة حصافة:

لا تقتلوه بربكم

قد تعلمون بأن أعند خلق خالقهم هم الموتى

وأن القبر لا ينسى ويحفظ ثأرهُ

والدين دينْ

إن حلَّ حلْ[2]

(1) الشنطي. فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه، (ص177).

(2) البرغوثي، في القدس، (ص138).

وظف البرغوثي تقانة الرسالة فاستخدم الاستهلال المتمثل في أسلوب النهي الذي يعبر من خلاله على عدم القتل والسفك، ومن ثم ينتقل إلى مضمون الرسالة الذي استخدم فيه أسلوب التوكيد ليبرهن على حالة الصراع الوجودي بين الحياة والموت، وتحدث عن القبر والنهاية المحتمة لبني البشر في صلب رسالته الشعرية التي استلهمها من فن الرسالة، وختم رسالته بعبارة فلسفية رمزية لها تأويلاتها ودلالاتها التي يبرهن عليها من خلال منجزه الشعري وصورته الكاملة التي تغطي الإبداع المتراكم لديه، فيقول البرغوثي في قصيدة "في حديث الكساء ووحدة الأمة":

يا كساء النبي استمع

يا علي المقام

أنت أكرم ما في مخيّمنا من خيام

فليُقَم فيك مستوصف إن تيسّر

يأوي إليه ضعاف الأنام[1]

بث البرغوثي مضمون شعره من خلال تقنية الرسالة التي وظفها في بنية أسلوبية تعتمد على النداء الذي يمثل الطلب والانتباه لما يحمل من معانٍ ودلالات، واستعرض طبيعة الحياة التي فتح من أجلها حواراً مع كساء النبي ووظفه بطريقة مجازية فالكساء لا يعقل حتى يستمع ويتحرك، لكن البرغوثي أراد أن يبث رسالته بصورة متفاعلة لها مدلولاتها على مستوى بنية الموضوع والشكل مما يعزز بنية التناص وتداخلاته مع النصوص الأخرى التي تعبر عن المعنى الذي يطرحه المبدع في بنية قصائده المتفاعلة.

ووظف الشاعر في صلب رسالته أسلوب المفارقة مما زاد من تفاعلات النص الذي استلهم فيه من سيرة المصطفى وكسائه، إلى أن رسم مفارقة تصويرية بين كساء النبي والمخيم الذي يعيش فيه حيث الخيام التي لا تقي البشر من برد الشتاء وحر الصيف، ومثلت هذه المفارقة المضمون الأساس لطبيعة الرسالة التي وظفها البرغوثي في بنية نصوصه الشعرية، وترك خاتمة رسالته بأسلوب الأمر في ضرورة توفير مستوصف ومأوى للضعفاء من البشر والأنام، تلك رسائل لها دلالاتها التي برهن عليها البرغوثي في البُنى النصية التي وظفها في بنية التناص وبنائها الفني على مستوى البنية العامة للنصوص التي أبدعها البرغوثي، والتي

(1) البرغوثي، في القدس (ص43).

تحمل في ثنايا أبنيتها كثير من الدلالات التي تمثل معادلات موضوعية متفاعلة تمنح المعنى الشعري دلالات عميقة وسطحية يعبر عنها المبدع بطريقة مباشرة وغير مباشرة، لكنها تشكل في مجملها تفاعلات حيوية على مستوى المضمون والشكل، فالنثر الذي يمنح النص انفتاحاً دلالياً هو" الذي يقصد به صاحبه إلى التأثير في نفوس السامعين والذي يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء، وهو أنواع، منه ما يكون قصصًا وما يكون خطابة وما يكون رسائل أدبية محبرة"[1].

ولجأ البرغوثي إلى استخدام بعض أجزاء تقنية الرسالة التي وظفها في بنية التناص الذي يبلور طبيعة المضمون الذي يسعى البرغوثي إلى توصيله لجمهور المخاطبين، فيقول في قصيدة القهوة:

لا تســــــــــــرقي أقلامـــــــــــه لا تهزئـــــــي مـــــــن شـــــكله[2]

بث البرغوثي رسالته بطريقة مكثفة وموجزة لتعبر عن المضمون الذي يطرحه في صلب قصائده، مما أضفى على النص حيوية دلالية لها سماتها وخصائصها على مستوى البنية الفنية للتناص وبنيته المتفاعلة، واستخدم في ذلك تقنية الحذف التي ساهمت في تقليص المعنى المطروح، وترك العنان لجمهور المتلقين في فهم المعنى وتحديد دلالاته.

يتضح مما سبق بأن معمارية التناص لها تفاعلاتها على مستوى المضمون والشكل وما يتعلق بهما من دلالات مباشرة وغير مباشرة، تنتج عن الارتباطات والتداخلات التي وظفها البرغوثي في صلب قصائده التي أبدعها بقريحته الشعرية الفذة، فوظف البرغوثي تقنية الدراما والقصة والسيرة والرسالة بصورة متفاعلة لها انعكاساتها على تذوق النص الشعري المنجز، وتسهم في حيوية بنية التناص مع البنية الكلية المشكِّلة للنص الذي أبدعه البرغوثي.

(1) ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي (ص398).

(2)البرغوثي، مقام عراق، (ص6).

الخاتمة

إن التجربة الشعرية تعبر عن الحالة التي يمر بها الأديب وتبين الظروف التي تحياها الكتابة الأدبية وكيفية إنتاجها وإبرازها لجمهور المخاطبين، فترتكز التجربة الشعرية على مقدرة الأديب على تمثيل مشاعره وأحاسيسه التي تعبر عنها معانيه، وانتقائه للكلمات والألفاظ الموحية التي تتناسب مع مضامين موضوعاته ومحاور أفكاره، علاوة على الصورة والأسلوب الذي ينظم من خلاله ألفاظه ومعانيه، حتى تنضج القصيدة بصورة فنية، تدلل على الجنس الشعري الراقي، والحس الأدبي المرهف الذي يمتلكه الأديب.

تأثر تميم البرغوثي بالبيئة التي عاش فيها، التي مُورست فيها أبشع حكايات الصراع بين الحياة الموت بين الحضور والعدم، فقصائده تعبر عن الألم الذي عاناه أهل فلسطين ومن تعاطف معهم، في ظل غياب روح العدل والنزاهة والإنصاف عند كثيرين من القادة والولاة والحكام، الذين سيطروا على مقدرات الأمم والشعوب.

كما نلحظ بأن القصائد البارزة في دواوين البرغوثي تبرهن على عمق التجربة الشعرية لديه، لما لها من صدى وانبعاثات على جمهور المتلقين علاوةً على الإنجازات التي قدّمها في أبنية قصائده، فاستلهم تجربته الشعرية من التراث والواقع والخيال وبوتقة الذات والتعبير عنها بطريقة متفاعلة، فيعبر عن ذاته ويصف مشاعره وأحاسيسه التي يجيش بها قلبه، وما يدور في عقله ومخيلته، فهو يعبر عن الشعور بالسعادة والأمل والحزن والألم، ثنائيات الذات الشاعرة الثائرة في بيئة الصراع التي تكون حُبلى بالتناقضات، ويصور حالة ضعف الأمة التي خارت عزائمها وفترت هممها في ظل تكالب قوى الشر، كل ذلك شكل هزات نفسية لذات البرغوثي عبر عنها من خلال تجربته الشعرية التي أودع فيها كثيراً من انطباعاته النفسية وآماله التي يصبو إليها بأساليب فنية متنوعة.

وقد أجاد البرغوثي في توظيف التناص ضمن قصائده الشعرية التي توحي بالمعين الذي تتمتع به شاعريته الفذة، التي برهن من خلالها على مقدرة الشاعر الفلسطيني من إنشاء نصوص شعرية تنبض بالأصالة في بنيتها الفنية وموضوعاتها التي يسكب من خلالها الشاعر ما يدور في تفكيره ووجدانه؛ ليرسم صورة شعرية وشعورية متفاعلة تنطلق من الإيمان بالمبادئ والقيم والأصول التي تمثل ثقافة المجتمعات العربية والإسلامية في مواجهة الظلم والطغيان الذي تتعرض له، فأسدلت المتناصات عند البرغوثي تفاعلات شعرية بين النصوص وجمهور المخاطبين.

إن المتناصات التي استخدمها البرغوثي تدلل على قدرته الشعرية سواء تعلقت بالجانب الديني أو التاريخي، فدللت على مدى الثقافة التي يكتنزها في ذاته المبدعة والتي يحملها في عقليته الفذة التي أبدعت في مجال الفن نصوصاً فيها كثير من الدلالات والمعاني التي تجيش بها نفس الشاعر.

ونوّع البرغوثي في تناصاته الخارجية والتي ترتبط بالقرآن الكريم ومفرداته وقصص الأنبياء الواردة فيه، والأحداث التاريخية ومواقفها وقضاياها، وبرز التناص الأدبي المتمثل فيالأشعار والأجناس الأدبية، ومن ثم وظف التناص الداخلي الذي يدور في فحواه على استحضار نصوص من الشعر العربي، واستخدام الأجناس النثرية ومتعلقاتها، ومن ثم وظف التناص الذاتي الذي يتمثل في الشعر الفصيح والشعر العامي وما يرتبط بها من ألحان موسيقية، والدراسات المعرفية التي تنتمي لحقول مختلفة انعكست على إبداعه للنصوص الشعرية، فالتناص الذي وظفه البرغوثي في إبداعه المتميز من خلال قصائد دواوينه يعبر عن مدى اللباقة الأدبية في صناعة النص وإثراء محاوره وصقل بنيته بالمرجعيات الدلالية التي تعزز من مضمونه وشكله وتسهم في حيويته وفاعليته.

ويتطرق الفصل الأخير إلى معمارية التناص وتقنياته المستخدمة في صلب النصوص الشعرية التي أبدعها البرغوثي، وتتمثل معمارية التناص في البنية الفنية للجنس الأدبي الذي صهره البرغوثي في متن نصوص دواوينه، والتي تتمثل في الدراما والقصة والسيرة والرسالة، لذا يسهم التناص الذي وظفه البرغوثي في إثراء النص من خلال فتح باب الحوار بين الحاضر والماضي مع استعراض الحقائق التاريخية بثوب تعبيري جديد، يحمل دلالات ورسائل موجودة في أبنية النصوص وبنيتها الفنية كذلك يخدم البنية الكلية للنص ويعمل على إيصال رسائلها التي أراد البرغوثي أن يرسلها ويخطها من خلال ذاته المبدعة التي استطاعت أن تنتج أدباً متفاعلاً يستوحي مزيداً من الأدوات والأساليب والدلالات التي أبدعها وتسهم في حيوية بنية التناص مع البنية الكلية المشكِّلة للنص الذي أبدعه البرغوثي.

النتائج

- **أهم نتائج الدراسة:**

1. التجربة الشعرية ضرورية لحياة الأديب وتزيد إبداعه الأدبي والفني جمالاً ورونقا وقد استلهم الشاعر تجربته من التراث والواقع والخيال وبوتقة الذات، كما لعبت ثقافة الشاعر دوراً كبيراً في صقل المعاني الشعرية، وتنوع الأساليب المتبعة في التعبير عن المشاعر والأحاسيس.
2. أجاد الشاعر في توظيف التناص وبرهن على مقدرته الشعرية وموروثه التاريخي والديني، وأسهم في البناء الفني بشكل كبير الذي استطاع من خلاله أن يوصل رسائله التي بثها في ثنايا أشعاره إلى المخاطبين، الذين يكون بمقدورهم تفكيك بنية النص وفهم رسائلها بطريقة سهلة؛ لفهم الرسائل والوصول لأهداف النص الذي ابتكره الشاعر وألبسه ثوباً فنياً يحمل رسائل ومعانٍ.
3. أسهمت معمارية التناص لدى البرغوثي والتي تمثلت في الدراما والقصة والسيرة والرسالة في إثراء النص الأدبي وحيويته.
4. يتجلى التناص في المحاورات النصية بين النص الحالي والنصوص الأخرى ومتعلقاتها في شعر البرغوثي؛ بمعنى أن التراسل بين الأجناس الأدبية والمكونات الشكلية يتجلى" بصورة المظهر الحقيقي للتفاعل بين الأجناس الأدبية، إذ هو محاولة لوصف التضايف الحاصل بين مختلف الأنواع، مجاله المشهد الأجناسي الرحب بتضاريسه وألوانه وليس مجرد حيوية أو ديناميكية بين المكونات داخل الجنس الواحد بل إنّه يغدو وفق هذا التصور قرين التبادل المستمر بين الأنواع، تبادل المكونات الشكلية والوظائف"[1]، مما يضفي معاني ودلالات أدبية في سياقات مختلفة لها إنتاجاتها وقرائنها الدلالية المتفاعلة مع النص المنجز، فتمازج الأجناس، يمثل " الوظيفة الأدبية هي التي تسمي الجنس لأنها وسيلته في إظهار هوية وكيان مغاير لسائر الأجناس وهي واسطته في التعاطي والتعامل مع سائر الوظائف الأدبية"[2]، كل ذلك يخدم التشكيل الفني لبنية المعنى المراد طرحه من خلال المضمون والسياق

(1) عروس، بسمة. التفاعل في الأجناس الأدبية، (ص42).

(2) المرجع السابق (ص42).

المنتج، مما يوسع دائرة الرسالة الأدبية ويسهم في نشرها وإعادة فهمها من جديد، وإثراء محاورها.

التوصيات:

- **أهم توصيات الدراسة:**

توصي الباحثة بما يلي:

1. ضرورة تناول الشعراء المحدثين في مجال الدراسات الأدبية بالدراسة والتحليل والنقد، فلا يجب أن نحتفي بأدبائنا بعد موتهم.
2. دراسة أعمال البرغوثي ليس فقط في المجال اللغوي والفني والجمالي وإنما في المجال الرمزي.
3. برع الشاعر في خطابه الإعلامي الذي أثار انتباه القراء والمخاطبين مما يعكس الأثر الكبير في بناء وعي القراء وثقافتهم.
4. صور الشاعر لنا العراق تصويراً جميلاً حفل بالصور الحزينة وبين فيه جرائم المحتل وما تركه من ويلات ومشاهد حزينة للدمار، وضحت لنا أن العدو لا يحتاج إلى المهادنة وانا للجهاد والحرب وهي أمثل الطرق للتعامل معه.
5. إقامة أيام دراسية حول موضوع التناص، والتعريف به، وكيفية بيانه وأنواعه.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**

إبراهيم، رزان.(2003م).***خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة***.بيروت: دار الشروق.

إسماعيل، عز الدين. (2006م).***الأدب وفنونه***. ط1، القاهرة: دار الفكر العربي.

البادي، حصة. (2009م). ***التناص في الشعر العربي الحديث " البرغوثي نموذجاً"***. عمان: دار كنوز المعرفة.

بارت، رولان، (1986م).***درس السيميولوجيا***.تحقيق: عبد السلام بنعبد العالي. ط2. المغرب: دار توبقال.

ابن برد. بشار. (1976م). ***ديوانه***. شرح وتحقيق: محمد الطاهر ابن عاشور. (د.ط)، تونس: الشركة التونسية للتوزيع.

البرغوثي، تميم.(2005م). ***مقام عراق***. (د.ط)، القاهرة: دار أطلس.

البرغوثي، تميم.(2008م). ***في القدس***. (د.ط)، رام الله: مطبعة الأيام.

بن شداد، عنترة. (1893م).***ديوان عنترة***. ط4، بيروت: المكتبة الجامعية.

بنيس، محمد. (2001).***الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاتها***، ط2، المغرب: دار توبقال.

التهانوي، محمد.(1996م). ***كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم***. تحقيق: رفيق العجم وآخرون. (د.ط)، بيروت: مكتبة لبنان.

الجاحظ.أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي. (2002م).***البيان والتبيين***.تحقيق:عليبوملحم. (د.ط)، بيروت: دار ومكتبة الهلال.

الجاحظ،أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي. (1965م).***الحيوان***. تحقيق: عبد السلام هارون. ط2، القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي.

الجبوري، جمعة.(2012م). ***المضامين الشعرية في الشعر الأندلسي في عهد المرابطين الموحدين***. عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع.

الجرجاني، علي. (1983م). ***التعريفات***. تحقيق: مجموعة من العلماء بإشراف الناشر. بيروت: دار الكتب العلمية.

الجعيدي، محمد.(1997م). ***مصادر الأدب الفلسطيني الحديث***. ط2. نابلس: منشورات الدار الوطنية للترجمة.

ابن الجهم، علي. (1980م).***ديوانه***. تحقيق: خليل مردم بك. ط2. بيروت: دار الآفاق الجديدة.

ابن حجة، تقي الدين الحموي. (2004م). ***خزانة الأدب وغاية الأرب***، تحقيق: عصام شقيو. (د.ط)، بيروت: دار ومكتبة الهلال ودار البحار.

حسين، علي محمد.(2004م). ***التحرير الأدبي***. ط5. المملكة العربية السعودية: مكتبة العبيكان.

حسين، يسري خلف. (2011م). ***التناص في شعر حميد سعيد***. (د.ط)، عمان: دار دجلة.

درويش، محمود. (1967م). ***ديوان محمود درويش آخر الليل***. بغداد: دار الحرية للطباعة والنشر.

الرافعي، مصطفى. (1997م). ***تاريخ آداب العرب***. (د.ط)، القاهرة: دار الكتاب العربي.

الربيعي، علي.(2012م). ***الخيال في الفلسفة والأدب والمسرح***.عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع.

ابن رشيق، القيرواني. (1981م). ***العمدة في محاسن الشعر ونقده***. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط5. بيروت: دار الجيل.

الزعبي، أحمد. (2000م). ***التناص نظريا وتطبيقيا***. ط2، الأردن: مؤسسة عمون للنشر.

الزوزني، أبي عبد الله الحسين بن أحمد. (1992م). ***شرح المعلقات السبع***. (د.ط)، بيروت: الدار العالمية.

ساسة بوست. (د.ت).نيويوركر" ***الناس يكتبون الشعر بأقدامهم أحياناً***" *مقابلة مع تميم البرغوثي*، 25 سبتمبر، 2017م. الرابط: https://www.sasapost.com.

السهيلي، أبو القاسم. (2000م). ***الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام***، تحقيق: عمر السلامي. ط1. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

الشافعي، شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني. (1570م).***الإقناع في حل ألفاظ أبيشجاع***، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات. (د.ط)، بيروت: دار الفكر.

الشايب، أحمد.(2003م). ***الأسلوب***. ط12. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

الشنطي، محمد.(2001م). ***فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه***. ط5. السعودية: دار الأندلس.

الصابوني، محمدعلي. (1997م). ***صفوة التفاسير***، القاهرة: دار الصابوني.

ضيف. شوقي.(1960م). ***الفن ومذاهبه في الشعر العربي***.ط14. القاهرة: دار المعارف.

ضيف، شوقي.(1960م). ***تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي***،ط14.القاهرة: دار المعارف.

عائشة، سواعدية.(2015م). ***جماليات التناص في شعر أمل دنقل: ديوان البكاء بين يدي زرقاءاليمامة أنموذجا***، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة محمد بوضياف، الجزائر.

عباس، إحسان. (1900م). ***فن السيرة***. ط2. بيروت: دار الثقافة.

عبد الباري، ماهر.(2011م). ***التذوق الأدبي طبيعته نظرياته مقوماته قياسه***. عمان: دار الفكر.

عبد العزيز ،عبد الله. (2010م). ***من قتل الحسين***. ط2. القاهرة: دار الأمل.

عبد النور، جبور. (1979م). ***المعجم الأدبي***. (د.ط)، بيروت: دار العلم للملايين.

عبيد الله، محمد. (2013م). **النثر في الشعر: صور من التفاعل في تجربة محمود درويش**.*مجلة الأثر*. العدد (17).

عتيق، عبد العزيز. (2009م). ***علم المعاني***. بيروت. لبنان: دار النهضة العربية.

عروس، بسمة. (2007م). ***التفاعل في الأجناس الأدبية***. لبنان: مؤسسة الانتشار العربي.

العسكري، أبو هلال. (د.ت).***كتاب الصناعتين***، تحقيق: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: المكتبة العصرية.

العلوي، ابن طباطبا. (د.ت). ***عيار الشعر***. تحقيق: عبد العزيز المانع. القاهرة: مكتبة الخانجي.

أبو علي، نبيل.(2007م). ***اتجاهات القصة القصيرة في فلسطين بعد اتفاقية أوسلو***. غزة: دار المقداد.

عمر، أحمد مختار وآخرون.(2008م). ***معجم اللغة العربية المعاصرة***. القاهرة: عالم الكتب.

غنيم والهشيم، كمال وجواد. (2012م). **جماليات الشعر الإسلامي الفلسطيني المعاصر**. *مجلة الجامعة الإسلامية*. *15*(2)، 44-22.

غنيم، كمال. (2004م).***الأدب الفلسطيني أوراق في الأدب والنقد***.غزة. مكتبة الطالب الجامعي.

فتحي، إبراهيم. (1986م). ***معجم المصطلحات الأدبية***.تونس. المؤسسة العربية للناشرين المتحدين.

فضل، صلاح. (1998م).***أساليب الشعرية المعاصرة***. ط1. القاهرة: دار قباء.

الفلسطيني. (د.ت). *قصيدة "في القدس" للشاعر الفلسطيني تميم البرغوثي*، تاريخ الاطلاع: 10 أكتوبر، 2017م. الموقع: http://www.felastini.com/index.php/ar/literature-culture/36-poetry/9409-2016-10-15-11-35-23.

قاسم، حمزة محمد، (1995م). ***منار القاري شرح صحيح البخاري***. (د.ط)، دمشق: مكتبة دار البيان.

قاسم، نادر. (2005م). **التناص القرآني والإنجيلي والتوراتي في شعر أمل دنقل**، *مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات*. العدد (6).

القطاوي، أسامة. (2017م). ***الصورة الشعرية عند تميم البرغوثي***. (رسالة ماجستير غير منشورة). الجامعة الإسلامية، غزة.

قليلة، عبده.(1986م). ***التجربة الشعرية عند ابن المقرب***. ط1. الرياض: النادي الأدبي.

قمصية، مريانا. (2017م). ***الشاعر تميم البرغوثي***. تاريخ الاطلاع: 10 أكتوبر 2017م، الرابط: https://mawdoo3.com.

ابن كثير. (1997م). ***قصص الأنبياء***، تحقيق: عبد الحي الفرماوي، ط5، القاهرة: دار الطباعة والنشر الإسلامية.

كريستيفا، جوليا. (1997م). ***علم النص***. ترجمة: فريد الزاهي، ط2، المغرب: الدار البيضاء. دارتوبقال.

كيليطو، عبد الفتاح. (2000م). ***أبو العلاء المعري أومتاهات القول***. (د.ط)، المغرب: دار توبقال.

المبحوح، حاتم.(2010م). ***التناص في ديوان لأجلك غزة***.(رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الإسلامية، غزة.

المتنبي، أحمد بن حسين الجعفي المتنبي أبو الطيب. (1983م). ***ديوان المتنبي***. (د.ط)، بيروت: دار بيروت.

المرسال. (2017م). ***السيرة الذاتية الشاعر تميم البرغوثي***. تاريخ الاطلاع: 10أكتوبر 2017م، الرابط: https://www.almrsal.com/post/523521

مشعل، نداء. (2015م). ***الوصف في تجربة إبراهيم نصر الله الروائية***.عمان: وزارة الثقافة.

مصطفى، إبراهيم وآخرون. (د.ت). ***المعجم الوسيط***. (د.ط)، القاهرة: دار الدعوة.

مطلوب، أحمد.(2001م). ***مصطلحات النقد العربي القديم***.بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.

المغلوث. سامي عبد الله. (2014م). ***أطلس الأديان***. ط4. السعودية: العبيكان للنشر.

المناوي، زين الدين.(1990م). ***التوقيف على مهمات التعاريف***. ط1. القاهرة: عالم الكتب.

منتدى أنوار أهل البيت. (2011م). ***مقال "ما هي الأبوذية؟"***. تاريخ الاطلاع: 2 فبراير 2018م، الرابط:http://al-albet.yoo7.com/t5-topic.

مؤمن وجرجس، نجوى وسلوى. (2004م). ***التراث الشعبي للأزياء في الوطن العربي***. القاهرة: عالم الكتب.

نجم، محمد. (1996م). ***فن المقالة***. بيروت: دار صادر

النساج، سيد. (1980م): ***بانوراما الرواية العربية الحديثة***. القاهرة: دار المعارف.

نصار، نواف. (2011م). **معجم المصطلحات الأدبية** (عربي – إنجليزي). عمان: دار المعتز.

وهبة، المهندس، مجدي، كامل. (1984م). ***معجم مصطلحات العربية في اللغة والأدب***. ط2. بيروت: مكتبة لبنان.

يقطين. سعيد. (1989م). ***انفتاح النص الروائي***. ط2. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.